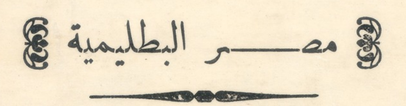
مصـــر البطليمية



تأليف

زكي عـــلي

١٩٨٠



تأليف

زكى عـــلى

١٩٨٠

لمحات في حضارة مصر البطلمية (1) "تأليف: مزكى على"

٣٠٥ ق.م – ٣٠ ق.م

هناك جوانب كثيرة في حضارة مصر البطلمية ، ولكنها اتسمت في مجموعها بطابع معين ، لا يمكن لمن يتصدى لهذا الموضوع الا ان يعرض له ويتناوله بشيء من التفصيل وذلك ان البطالمة جاءوا الى مصر في ركب غزوة الاسكندر الاكبر (الثالث) وفتحه لابواب هذه البلاد . وآثر احد قواد الاسكندر واركان حربه وهو بطلميوس بن لاجوس ان يستأثر بمصر ويخص نفسه بها بعد ممات الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م . وعمل منذ البداية على أن يحتفظ بها لتكون ملكا خالصا له ولاسرته من بعده ، فأثبت بذلك انه كان رجلا حصيفا وبعيد النظر وهو الذي كان قد بلغ الاربعين من عمره عندما قدم الى البلاد وكان يعرف على حد قولهم " من اين تؤكل الكتف " ويعرف كيف يصيب بحجر واحد اكثر من عصفورين ثم انه كان يؤثر ويفضل الاحتفاظ بعصفور في اليد خير من الجري والتطلع الي العديد من العصافير على الشجرة – تلك هي صورة ذلك الرجل الالمعي الذي وطد اقدامه في مصر وحكمها بوصفه " ساترابا " او مرزبانا ، نائبا عن ورثة الاسكندر بعد مماته ٣٢٣ ق.م حتى ٣٠٤ عندما اعلن نفسه ملكا مستقلا على مصر "باسليوس"

ومنذ ذلك الحين حتى ٣٠ ق.م بقيت مصر في حوزة عدد من ابنائه واسلافه عددهم استرابون في كتابه الجغرافي السابع عشر في عبالة وسماهم جميعا باسم بطلميوس وخص كل واحد منهم بكنية او صفة تضفي عليهم القداسة فوصف الثلاثة الاولين منهم بالكفاية والمقدرة اذ هم المؤسسون الحقيقيون لهذه الحضارة البطلمية التي استرعت انظار العالم بما منحته لمصر في الحكم من نظم اتسمت بالبيروقراطية الشديدة وبما طبقوه من نظام اقتصادي بديع كان رائدا في العالم الهيللنستي ومصدرا لثراء ضخم ، ملأ الخزانة البطلمية (باسيليكون) بثروات عينية ونقدية هائلة مكنتهم من السيطرة وبسط النفوذ في الحوض الشرقي من البحر المتوسط والمحافظة لفترة او لحين ما على امبراطورية بحرية

(١) البطالمة (Ptolemies) نسبة الى بطلميوس الاول (Ptolemaeus)
يطلق عليهم بالفرنسية (Lagides) او باللاتينية Lagidae
نسبة الى الجد Lagos

تشمل عدة جزر منها قبرص وبعض اجزاء من آسيا الصغرى وبرقة وسوريا الخالية (سهل البقاع) وفلسطين ، وبذا كانت لملوك البطالمة الاولين سيادة بحرية تسمى باليونانية " ثالاسوكراسي " ، ولكنها لم تدم طويلا واول هؤلاء الملوك الثلاثة هو بطلميوس الملقب سوتير او المخلص ٣٠٤ حتى ٢٨٥ ق ٠ م ٠ ثم بطلميوس الثاني (٢٨٥ – ٢٤٦ ق ٠ م ٠) الملقب بفيلادلفوس اى المحب لاخته وكان هذا اللقب اصلا يسبغ على اخته وزوجته الثانية المسماة ارسينوى الثانية فيلادلفيا (Philadelphos) وكان قد تزوجها بعد ان طلق زوجته ارسينوى الاولى وترك لاخته مقاليد الامور وكانت تكبره سنا ، فلما توفيت ، رفعت الى مصاف الالهة والالهات ورصدت لها اموال تتوفر من ضريبة الا بوموير ا (Apomoira) او الجزء المقتطع Hekté – Dekaté وهو السدس او العشر ، على الكرم والبساتين ، للصرف من حصيلتها على مراسم هذه العبادة الجديدة ، اما ثالثهم فهو بطلميوس الثالث الملقب يورجيتيس (٢٤٦ – ٢٢١ ق ٠ م ٠) اى فاعل الخير ، فكان محاربا مغوارا خاض في السنين الخمس الاولى حروبا في الشام وبلاد مابين النهرين وماوراء الفرات وابلى بلاء حسنا وانتقم لاخته برنيقه المتوفاة وكانت زوجة لانطيوخوس ملك الشام التي ورثها عن ابيه وجده ، حافظ على تلك الامبراطورية وهؤلاء الملوك البطالمة الثلاثة كانوا في نظر استرابون اقوياء الشكيمة ودعامة قوية لمصر وعظمة مصر حريصين على سمعتها ومجدها ، البرتلي ، وقد افاض استرابون في مدحهم والاشادة بذكرهم ، اما من جاءوا بعدهم فكانوا اما ابناء لهم على التوالي او اخوة لهم سردهم استرابون في سلسلة متصلة واكثر من عليهم من الكرام فذكر منهم بطلميوس الرابع بن بطلميوس الثالث بالذات وكان هذا الملك يلقب بلقب الذي هو الذي عرف به على مر السنين وهو بطلميوس فيلوباتور اي المحب لابيه وكان من عشاق عبادة الاله ديونيسوس والداعين للاحتفال بطقوسه ومراسم عبادته سنويا وكان يقيم المواكب التي يسير فيها حملة القربان من الخمر وحرص على تسجيل اسماء المنضوين في هذه العبادة في ديوان بالاسكندرية ، وفي عهده انغمس في الملذات والشهوات واعمال المجون وارتمى في احضان ثالوث ماجن يحركه وزير ماكر هو المسمى سوسيبيوس ثم كان هذا الثالوث عبارة

عن ام فاجرة تسمى أوينانش وابنتها الجميلة " أجاثوكليا " عشيقة الملك واخوها أجاثوكليس احد وزراء الملك ومعاونيه • وعلى الرغم من انغماس الملك في مجونه واهتمامه البالغ بعبادة الاله ديونيسوس اله الخمر والكرم واشتراكه في الحفلات الماجنة لتكريم هؤلاء العباد واتباع ذلك الاله ودعوته لهم للحضور لاسكندرية وتسجيل اسمائهم واهتمامه البالغ بحصر اولئك الذين تلقوا اسرار هذه العبادة ، فان عهده اشتهر في تاريخ البطالمة بما وقع فيه من احداث (١) ذلك ان ملك سوريا انطيوخوس شن غارة على البلاد في حوالي ٢٢٠ – ٢١٨ ق٠م • فانبرى له سوسيبوس الماكر واخذ يفاوض سوريا ويتظاهر بالرغبة في المسالمة وهو في الحقيقة يستعد لخوض معركة هائلة – تلك هي معركة رفح ٢١٧ ق٠م التي غيرت من سياسة البطالمة في مصر ومن الاتجاهات التي كانت تسير نحوها • ذلك ان فيلقا مصريا تألف وتدرب على اساليب القتال اليونانية بعد ان كان هيرودوت يسخر من الجنود المصريين ويصفهم بأنهم جماعة من القوات الحامية المسماة " بالماخيموي " لا يعرفون النظام ولا يلبسون الا السراويل ولا يحملون سوى البلط والعصى ، اثبتوا في معركة رفح انهم أكفاء وابلوا بلاء حسنا وصدوا العدو وكانوا بذلك اصحاب فضل على اسرة البطالمة والمؤيدين لعرشهم بعد ان كان قد اهتز تحت اقدام هذا الملك المفتون • ولذلك تعتبر معركة رفح ٢١٧ في حضارة مصر البطلمية بمثابة " مفترق طرق " لما كان لها من آثار بعيدة المدى في السياسة الخارجية والداخلية فبينما هي حفظت عرش البطالمة من الانهيار والسقوط اذ بها رفعت من معنويات الشعب المصري وجماهيره ومقاتله " الماخيموي " اخذت تطالب منذ ذلك الحين بثمن هذا النصر الذي كسبوه وتلح في ان تشارك في الحكم وان يكون المصريون على قدم المساواة مع اليونانيين • وبعد ان كان اليونان ينظرون شذرا الى المصريين وينزلونهم منزلة دنيا في السلم الاجتماعي ويشيرون اليهم بشيء كثير من الاحتقار ، اصبحوا يعملون للمصريين الف حساب وحساب • وعلى ذلك لا ينبغي ان نغفل اثر معركة رفح في حضارة مصر البطلمية •

---

(١) انظر ماكتبه المؤرخ اليوناني بوليبيوس (Polybius) عن هذا الملك المفتون •

جاء بعد ذلك ملك هو بطلميوس الخامس الملقب " ابيفانيس " اى المتجلى او
الظاهر وفى عهده سطر عام ١٩٦ ق.م لوح اشتهر على مر السنين وكان له اهمية فى
حياة مصر القديمة ذلك هو حجر رشيد عثر عليه اثناء الحملة الفرنسية على مصر فى رشيد
ثم نقل الى المتحف البريطانى . وقد كتب عليه قرار اصدره الكهنة المصريون يشيدون فيه
بما منحه هذا الملك الشاب من اعفاءات " فيلانثروبيا " وتسامحات والعلاوات وتعويضات
ولما كان هذا القرار مكتوبا باللغة المصرية القديمة بالهيروغليفية ثم بالخط الديموطيقى
ثم ترجمة هذا كله باللغة اليونانية وجاء فى ثنايا هذا القرار كلمتان مهمتان باليونانية
هما بطلميوس ثم زوجته كليوباترة والمقابل لهما مكتوب داخل اطار او خرطوش بالهيروغليفية
فقد توفر عالم فرنسى هو شامبليون على حل رموز اللغة المصرية القديمة عن طريق التعرف
على حروف منها حرف الباء والتاء واللام ، والسين ، والميم ، والحروف المتحركة بينهما ثم
الكاف واللام والباء والتاء والراء والحروف المتحركة فى كلمة كليوباترة .

واخذ هذا العالم يعمل الفكر حتى استنبط آخر الامر حروفا هجائية اخرى
وتوصل الى كشفه العظيم وبذلك فك طلاسم هذه اللغة الهيروغليفية واسدى بذلك جميلا ،
الى علماء العاديات المصرية او علم الاجيبتولوجى المصريات ، فاثرى بهذا الكشف العلمى
معرفتنا الوثيقة بتاريخ الامة المصرية فى العصر الفرعونى ثم فى العصر البطلمى الرومانى على
مدى حقب طويلة تعد بآلاف من السنين ولاتزال بين ايدينا نسم ماكشف من آثار .

ويقرأ ماسطر على الحوائط والحجارة والنقوش والالواح والبردى والشقافة باللغة
المصرية القديمة وبالخط الديموطيقى وما اكثر ماسطر بهذا الخط .

ولايزال راقدا ومكدسا بالمتاحف الاوربية ينتظر ايدى العلماء من المصريين
والاجانب جاء بعد ذلك فى قائمة استرابون ملكان هما بطلميوس السادس الملقب فيلوميتور
اى المحب لامه ، وقد اشترك معه لفترة من الزمان اخوه بطلميوس السابع الملقب فيما بعد

يورجتيس الثانى واقتسما الملك فكان سما لهيور السابق يحكم امارة فى قبرص واخرى فى برقة ولم يكن عهدهما يشهد استقرار ،بل قامت الفتن والحروب وقد مات الاخ الاكبر عام ١٤٥ ق.م. وانفرد بالملك اخوه يورجتيس الثانى وحكم من ١٤٥ ق.م. حتى ١١٢ ق.م. وقد تـزوج هذا الاخير من ارملة اخيه وكانت تسمى كليوباترة الثانية ثم تزوج من ابنتها فى الوقت نفسه وكانت تسمى كليوباترة الثالثة ونشب خلاف اسرى وانقسمت البلاد وكان الصعيد فى حوزة زوجته الاولى وكان الوجه البحرى مشايعا له .

ويبدو انه كان ملكا شريرا وكانت علاقته بالسكندريين على غير مايرام فلقبوه بالشرير كاكرجتيس على النقيض من معنى اللقب الذى كان يسمى به وهو " فاعل الخير " اى " يورجتيس " واشتهر حكمه بتلك الحرب الاهلية التى نشبت بينه وبين اخته وزوجته الاولى وانقسمت فيها البلاد على نفسها ، الوجه القبلى يناصر الملكة والوجه البحرى يناصر الملك وزوجته الثانية كليوباترة الثالثة وانتهت تلك الحرب الاهلية سنة ١١٨ ق.م. بقرار اعلن فيه الطرفان هدنة وعفوا عاما سلم فيه كل جانب للآخر ببعض الترضيات وعرف هذا بكلمة " فيلانثروبا " (Philanthropa) ، حفظتها لنا وثيقة بردية مشهورة ، ومنشورة فى مجموعة بردى تبتونيس (ام البريجات بجنوب اقليم الفيوم) تحت رقم (٥) وجاءت هـذه البردية حاوية لكثير من الاحكام المتبادلة بين الطرفين ، يسلم كل منهما للاخر بحقوق يحافظ بها على مصالح المؤيدين او من كانوا يناصرونه بين الطوائف المختلفة من رجال الديـن والعمال والصناع واصحاب الحرف المختلفة ويعفى المحاربين من كثير من الاعباء وحقـوق الاسكان للجند وهى التى كانت تثقل كاهل الناس والاهلين .

ويأتى فى آخر المطاف فى سلسلة ملوك هذه الاسرة البطلمية ملك مفتون آخر هـو بطليموس الملقب أوليتيس (Auletes) اى الزمار وكان يهوى الزمر على الناى وكان يلقب بديونيسوس الجديد (Neos Dionysus) واشتهر بأنه كان والد كليوباترة الاخـيرة وهى السابعة وكان عهده غير مستقر وكان لهوه ومجونه قد كلف البلاد اعباء كثيرة وترتب على ذلك بيعه لاملاك واراضى كثيرة وتوسع فى الملكية الخاصة للافراد لانه كان فى حاجـــة

الى الاموال الطائلة وكانت روما اذ ذاك قد تدخلت فى شئون مصر بدرجة سافرة وخاصة بعد ان طرد الملك من مصر من ٥٩ - ٥٨ ق.م. حتى ٥٥ ق.م. بعد ان ضاق به السكندريون ذرعا فتخلصوا منه وعندئذ ذهب الى روما يطلب العون والتأييد . وهناك ارتمى فى احضان قائد رومانى مشهور هو "بومبى العظيم" وكان ثانى رجل فى روما بعد يوليوس قيصر وكلاهما يتنافس على الانفراد بسلطة فى حكم ثلاثى عرف بنظام الثالوث الحكومى الاول بين يوليوس قيصر وبومبى وكراسوس فى روما "ترياموريت Triumvirate"

قدم بومبى هذا الملك المخلوع الى مجلس الشيوخ الرومانى فمنحه لقبا كان يعتز به هو الصديق والحليف لروما = "اميكوس ام سوكيوس" (Amicus et Socius)

وكبده هذا كله اموالا طائلة جمعها من مصر واغدقها على زعماء الرومان كيما يكسب صداقتهم وتأييدهم . وعلى ذلك استطاع بومبى ان يوحى الى صديقه "جابينيوس (gabinius)" وكان الحاكم الرومانى فى سوريا اذ ذاك فى ان يعيد هذا الملك الى عرشه بقوة السلاح الرومانى . وقد تم هذا بالفعل وجاءت حامية من سوريا الى مصر يقودها انطونيوس قوة الفرسان ودخلت مصر من الفرما واستقرت فى الاسكندرية واعادت الملك الى عرشه عام ٥٥ ق.م. وبقى جيش الاحتلال الرومانى يؤيد عرش البطالمة . ومات هذا الملك عام ٥١ ق.م. فخلفه ابنته كليوباترة السابعة بحسب الوصية التى كان والدها قد اودعها فى روما لدى العذارى فى معبد رومانى (Vestal Virgins) وطلب الى الرومان ان يكونوا شهداء على تنفيذ هذه الوصية التى قضت بأن تتزوج كليوباترة من اخيها بطليموس الصغير وان يشتركا فى الحكم ولكن مالبث ان دب الخلاف بين الاخ والاخت وشهر كل منهما السلاح فى وجه الاخر من ٥١ حتى ٤٩ - ٤٨ ق.م.

وعندئذ حدث ان وقعت الموقعة الهائلة بين يوليوس قيصر وبومبى فى "فارسالوسا" (Pharsalia) فى بلاد اليونان ٤٩ - ٤٨ ق.م. انتصر فيها الاول على بومبى الذى فر الى مصر مؤملا ان يلقى الامان فيها بعد الهزيمة المنكرة ولكن الاغتيال كان نصيبه وهو يرسو على الشاطئ فى الفرما (بيلزيوم) اغتاله احد رجال الملك البطلمى الصغير . ظنا منه أن هذا الاغتيال سيكون خير قربان يقدمه الى القائد المظفر "يوليوس قيصر"

وقد عاد هذا القائد بالفعل فى اعقاب بومبى ودخل مصر وبكى زميله فى القتال بعد أن خر صريع الخيانة الدنيئة وتصرف على خاتم قيصر يوليوس قيصر على ناصية الموقف فى الاسكندرية حضرت اليه كليوباترة من معسكرها فى شرقى الدلتا بطريقة فيها شيء كثير من الروائية والروعة التى تأخذ بلب الشعراء واصحاب الخيال وقد نصح القائد الرومانى كلا من الاخ والاخت بأن يعيشا فى وئام ، وانجب من كليوباترة ابنا عرف على مدى الايام باسم عزيز على والده وهو قيصر فسمى بقيصر الصغير " قيصرون " وكان هذا الابن يشبه اباه فى مشيته وفى سحنته وكان موضع اعزاز من والدته التى اشركته معها فى الحكم بعد موت زوجها واخيها وكان مستقبله السياسى هو الشغل الشاغل لهذه الملكة المصرية الطموحة ، هل كان فى هذا فى واقع الامر مقتلها ونكبتها ـ كان كل همها كامرأة ان تكسب الى جانبها قائدا رومانيا عظيما ينفذ لها برنامجها السياسى او تحقق عن طريقه شيئا من مطامعها الواسعة وهى مطامع مصرية صميمة ، لاغبار عليها ، فهى تريد العظمة لمصر وتريد للاسكندرية ان تكون عاصمة العالم الهيللنستى وتستعيد الامبراطورية المصرية التى كانت على عهد تيكلاتلفوس وتبغى السيطرة على روما ، واتصال يوليوس قيصر بها لبضع سنين اثار عليه حفيظة الرومان من امثال شيشرون الخطيب والاديب والكاتب السياسى العظيم فاغتاله فريق من الجمهوريين هما بروتس وكاسيوس وهو خارج من مجلس الشيوخ الرومانى عام (٤٤) ق٠م٠ يوم مشئوم هو الخامس عشر من شهر مارس (ايديس من شهر مارس) بعد ودلعه لهذا العمل والتأهب لشن حملة ضخمة على دولة الفرس، وعندئذ انهار امل كليوباترة وعادت الملكة الى مصر ، فسارة كما قيل (فوجا ريجيناي Fuga regi-nae = بالاتينية) ، وعندئذ عكفت على اعادة التفكير فى خطتها ومن عام ٤٣ حتى ٣٠ ق٠م٠ وهى تتخبط وتحاول ان تصلح ما افسده الدهر فاتصلت بانطونيوس او بالاحرى هو الذى اتصل بها عام ٤٣ ق٠م٠ واحبها وانجب منها توأم وتزوجها آخر الامر عام ٣٧ ق٠م٠ بعد أن كانت زوجته الاولى فولفيا (Fulvia) فرضها بالاكراه من اكتافيا (Octavia) شقيقة خليفة اكتافيوس الوريث واسد ايد ليوليوس قيصر بحسب الوصية التى تركها القائد العظيم يوليوس قيصر ولكن العلاقة الزوجية بين انطونيوس وزوجته

اكتافيا لم تدم طويلا بسبب اختلاف الامزجة وعدم التكافؤ بين الاثنين فيا لبث ان طلقها وقضى الاتفاق المبرم مع اخيها وهو الحكم الثلاثى الثانى (ترايمفيورت Triumvirate)

بين اكتافيوس وانطونيوس وليبدوس . فلما تزوج انطونيوس من كليوباترة بدأ العداء السافر بين الاثنين الاولين وقضى العالم الرومانى فترة سنتين من سنة ٣٣ - ٣١ ق.م . فى حالة انشقاق وتأهب بين الطرفين الشرق والغرب ، وكان الغرب يناصر اكتافيوس بينما كان الشرق يؤيد انطونيوس ومعه كليوباترة ملكة مصر .

ووقفت مصر كلها الى جانب هذه الملكة مؤيدة لها فى كفاحها ضد اكتافيوس والغرب بعد ان اعلن اكتافيوس الحرب على ملكة مصر واعتبر زوجها عدوا (hostis) تخلى عن رومانيته وارتمى فى احضان ملكة مصرية . وهنا وقعت موقعتان هامتان فى سنتين متتاليتين اولاهما فى بلاد اليونان فى اكتيوم (Actium) عند مدخل بحر الادرياتيك على الشاطئ الغربى من بلاد اليونان فى خليج امبراشيا حيث وقف الاسطول المصرى والقوات المعبأة من جميع ارجاء الشرق تؤيد انطونيوس ضد قوى الغرب (ايطاليا واسبانيا وبلاد الغال) وكان النصر للغرب بعد فرار اسطول كليوباترة وزوجها انطونيوس من اليونان الى مصر اما المعركة الثانية فكانت فى ظاهر الاسكندرية فى اغسطس عام ٣٠ خاضها انطونيوس بعد ان فشل فى مرسى مطروح ضد القائد كورنيليوس جالوس الذى انبرى لانطونيوس وخدعه حتى وقع هو واسطوله فى كمين داخل الميناء ورده على اعقابه ولم يجد انطونيوس وكليوباترة غير الانتحار فتواريا عن الابصار وتركا مصر فريسة وضحية تخر تحت وطأة الحكم الرومانى وتدخل فى زمرة الاملاك الرومانية فى حوض البحر المتوسط وكانت مصر صاحبة الشرف الرفيع الذى يراق على جوانبه الدم الغزير آخر دولة فى هذا الحوض .

هذه الماحة عابرة فى عرض سريع للاحداث السياسية ، يمثل الاطار العام لحكم بيروقراطى ساد مصر طوال حقبة ثلاثة قرون شهدت فيه البلاد تطورا اقتصاديا وعلميا واستغلالا لموارد هذا البلد على نحو لم تشهده من قبل .

لمحة عن النظام الاقتصادى والاجتماعى فى مصر البطلمية

ننتقل الآن الى ذكر لمحة عن الشئون الاقتصادية باعتبارها الركيزة الاولى فى الحكم البطلمى فنقول كان الحافز الرئيسي فى ذلك النظام الاقتصادى الذى اقامه ملوك البطالمة الاولون هو الرغبة الملحة فى تنظيم الانتاج واسلوبهم فى ذلك رعايته وتنسيقه فى سلسلة من القوانين اهمها تلك التى اصدرها بطلميوس فيلادلفوس سنة ٢٥٨ ق٠م ٠ ثم اعيد تنسيقها فى عهد ابوللونيوس وزير المالية وعرفت تلك القوانين باسم يونانى هو (Nomoi Telonikoi) اى القوانين الضريبية والالتزام بجباية مختلف الضرائب وهى تمثل اعظم وثيقة بردية محفوظة الآن بمكتبة البودليان بجامعة اكسفورد وهى الاساس فى اى دراسة جادة عن نظام الحكم البطلمى كله وفيها تنظيم لجباية الضرائب وتحصيل المكوس ونظام الاحتكارات وتسوية الحسابات بين الحكومة والملتزمين ونظام المصارف واعمال النسيج ومنها يلم الانسان بالوان من الحياة ويعرف اوضاع العمال فى المصانع الخاصة بعصر الزيت والنبيذ ومشاركتهم فى الارباح والخسائر والاختصار بمعنى هذه الوثيقة البردية وارهة ولا مندوحة من ان يطالع الباحث فى الحضارة البطلمية بعض صفحاتهـا ويتأمل فى التشريعات التى اصدرها بطلميوس فيلادلفوس وكان فيها مقتبسا من نظم سائدة فى اثينا ومستعينا بجهود فيلسوف آثينى هو ديمتريوس الفاليرى (اى من اهل مرفأ اثينا القديم وهو فاليرون) ٠ ولا مجال هنا للدخول فى اى تفصيلات منها ٠ فهذه مهمة الباحث المتخصص ونقتصر هنا على الاشارة اليها بين حين وآخر ٠

وكان الغرض الاساسى من وراء ذلك كله هو ان تصير الدولة — او بالاحرى الملك — غنية وقوية ٠ يهابها العالم اليونانى ٠ وكانت كل جهود الشعب موجهة نحو تحقيق هذا الغرض الاسمى ٠ فكان يطلب الى كل فرد ان يكد ويشقى من اجل الدولة وفق برنامج موضوع ومعد بعناية شديدة بواسطة السلطات والهيئات الادارية وكانت الحكومة تسهر على تنفيذه بدقة ولم تكن تتردد فى فرض العقوبات والغرامات واخذ الضمانات والمواثيق الغليظة من قسم وخلافه حتى تطمئن الى ان كل شىء يسير على مايرام ٠

اما دور المواطنين من المصريين وهم جماعة تعرف باسم (laoi) فكان بعيدا عن القيادة والتوجيه واغلبه محصور فى الكد والشقاء ونصيبه في المكاسب والمغانم ضئيل اذ لم تكن الحكومة تترك للطبقات المختلفة من الشعب سوى القليل من الحرية ولم تتح لهم من الفرص الا ما ندر ليسهروا على مصالحهم الخاصة فكان نصيب الفرد الواحد من الربح او الناتج وهو مايسمى (epigenéma) الا قدرا ضئيلا جدا ، بل يكاد هذا يكون معدوما بالنسبة لمواطنين المصريين الذين كانت تقع على كواهلهم اثقل الاعباء فالكثرة الفقيرة منهم كانت ملزمة او مكرهة على ان تعمل من اجل الحكومة والملك في هذا او ذاك سواء في الحقل او المزرعة او في مختلف المصانع والمناجم او المصايد ، يستوى فى ذلك الفلاحون الملكيون (georgoi basilikoi) اوغيرهم من الفلاحين فى الاراضى والضياع الاخرى التابعة لبعض الافراد من المحظوظين او للمعابد او فى الاراضى التى كانت في حيازة الجنود مشاة كانوا ام فرسانا ضباطا ام جنودا فى جيش مرابط بمصر من المرتزقة اليونان ومن على شاكلتهم من العناصر المتأغرقة التى هبت الى مصر سعيا وراء الكسب او لاستغلال موارد بلد غنى بخيراته فجاءوا اليها كالسيل المنهمر متكالبين على خدمة ملك بطلمى سخى اعتبر فى رأى الشاعر اليونانى ثيوقريطس (Theocritus) بطلا وجوادا كريما . وكان يعنى بعض الملك بطلميوس فيلادلفوس بحض الناس على الانضواء في الخدمة العسكرية من اجله باعتباره احسن من يجزل العطاء للجنود .

وهناك غير المزارعين فئات اخرى من المصريين كانوا يمثلون جماعات مختلفة من دافعى الضرائب (hypoteleis) وكل من لهم علاقة ايا كانت بالايرادات ويطلق على هؤلاء ذلك الاصطلاح اليونانى المشهور (epipeplegmenoi Tais prosodois) ومعناه المرتبطون بموارد الدخل وبعض هؤلاء كانوا اما من العمال فى المصانع او تجار التجزئة والبدالين او رعاة الغنم وماشية او من الصيادين البريين او صيادى الاسماك او المجدفين والتجار او عمال المناجم والمحاجر فى الاماكن النائية او على حواف الصحراء الشرقية او الغربية . وبخلاف الاعمال العادية لكل هؤلاء فانهم كانوا معرضين للقيام بأعمال كثيرة تدخل فى نطاق السخرة (leiturgia) في حفر القنوات واقامة

السدود بين وقت لآخر في المناجم والمحاجر ولربما كذلك في صيد الاسماك ولعمال القنص او في تشجير جوانب الجسور وجوانب الطرق وشتى اعمال نقل المحاصيل على ظهور الحمير والبغال والجمال - كل هذه الاعمال واضرابها - كانت في الاكثر الغالب تشغل الناس في القيام باعمالهم المعتادة من اجل كسب قوت يومهم • ولسنا نعرف على وجه الدقة اى صفة ووضع قانوني تدخل تحت طائلته مثل هذه العلاقات الاجبارية ؟ ويبدو انها كانت في كثير من الاحوال تتخذ شكل التعاقد المبرم وكانت تبذل المحاولات احيانا في الحصول على تنازل عن هذه العقود متى ساءت العلاقات بين صاحب العمل والاجراء وتستعمل وسائل الاكراه للضغط حتى يتنازل اصحاب العمل هذه • ولكن العقود بين الحكومة والاشخاص الذين كانوا يعملون في خدمتها كانت من نوع فذ اذ انها كانت في العادة تحتوى على بند هام خاص بحق التنفيذ في حالة العجز عن الوفاء بسداد المطلوب من الديون فيذكر ان التنفيذ يجب ان يتم على نحو ماهو متبع في سداد الحقوق والمطلوبات الملكية (he praxis esto hos pros ta Iasilika or kathaperek dikes) ولدينا الكثير من الوثائق البردية الدالة على ان هذه الصفة كانت مستعملة كثيرا وتتضمن حق الحكومة في تحصيل المستحق لها بالتنفيذ على شخص المدين العاجز عن الوفاء بالمطلوب ومعنى هذا مصادرة كل املاكه الوفاء بالدين او الثلث الذي عليه وعلى ضامنيه والزج بهم في غياهب السجون فيصبحون رقيقا محرومين الحرية حتى توفى الديون •

وهناك فريق آخر من المواطنين المصريين يجمل اعتمادهم على الحكومة او على الملك وكان هذا الفريق يشقى وينصب تحت عبء من المسئوليات الجسيمة وهؤلاء كان سوء طالعهم هو الذي زج بهم في خدمة الحكومة البطلمية • وكان هؤلاء يساقون في المناطق التي يؤدون فيها اعمالهم • وترقبهم عيون الحكومة الساهرة فلا تأخذها سنة من النوم ولا تغفل ابدا من مراقبة اعمالهم وبث العيون والمخبرين من الوشاة (sykophantae) لرصد حركات الناس والابلاغ عن المتهربين من الضرائب او من العمل من اجل الحكومة وعلى الاخص في ميدان الزراعة واستصلاح الاراضي • ذلك ان مسئولية هؤلاء بصفتهم الشخصية

والمادية جسيمة وعملهم كان كريهها بغيضا ، يبعث احيانا على الملل والفتور ، فلا عجب اذا ، انهم كانوا يحاولون بشدة ان يفروا من أداء هذا الواجب • وهناك مسئولية اكبر من احتمال الحصول على كسب او نفع مادى فى هذا المجال ، فلدينا بعض الوظائف فى السلك الادارى ، تجئ فى اسفل الدرج ، وهذه كانت مباحة للمصريين يتولونها ، ومن هذه وظيفة رئيس القرية او شياختها وعموديتها واصحاب هذه الوظائف كان يطلق عليهم (komarchae) وهناك كتبة القرى وهم اشبه بالصيارف حاليا وهؤلاء كانوا يسمون komogrammateis وهذا باعتبار ان القرية كانت تسمى عند اليونان Kome وهى اصغر وحدة فى النظام الادارى وكان شاغلوا هذه الوظائف القروية يتمتعون بالطبع بمركز مرموق فى دائرة نفوذهم ولكن عملهم كان مضنيا ومعقدا وهناك احتمال بسيط للحصول على نوع من الكسب من وراء هذه الوظائف القروية ولكنه يغلب عن الظن ان تولى هذه الوظائف كان يمثل عبئا باهظا او غرما مؤكدا وليس فيه شرف او مغنم وقد تجر هذه الوظائف على اصحابها الوقوع فى اخطاء ومسئوليات تفوق ما قد يجلبه من نفع او كسب وما يتمتع به شاغلوها من نفوذ وجاه عريض ونفع جزيل •

وليس هناك بالطبع اى اساس للقول بان الطبقات العاملة فى مصر البطلمية كانت اشبه ماتكون بالعبيد او الاقنان ، ذلك ان افراد الشعب المصرى ممن كانوا يكنون بالاسم الاتى :

(laoi) لم تكن ايديهم مغلولة الى اعناقهم تماما وانما كانوا يتمتعون بقسط وافر من الحرية الاجتماعية والاقتصادية بوجه عام ولهم حرية التنقل بصفة خاصة • اما علاقاتهم المادية بالحكومة فيما يختص بمجالات النشاط الاقتصادى فكانت ذات طابع تعاقدى والمغارمة الاجبارية التى كانت تكلفهم الحكومة بأدائها كانت تكافئهم او تجزيهم عليها ولو ان هذا الجزاء كان تافها ويصل فى احيان كثيرة الى قدر ضئيل • ومع كل هذا وذاك فانهم لم يكونوا احرارا بكل معانى الكلمة فارتباطهم مع الحكومة كان رباطا وثيقا ولا سبيل لهم الى الفكاك منه او التخلص من هذه الاغلال التى فرضتها عليهم الحكومة فأصبحت امرا واقعا ، لا مجال فيه لاى صورية • فضلا عن ذلك فانهم كانوا يعتمدون فى الحصول على رزقهم وكسب عيشهم على الحكومة • وهناك رهط كبير من الموظفين الملكيين وجباة الضرائب على مختلف انواعهم ،

يحسبهم فصائل من الجند والخفر والحراس والكتبة والمفتشين موجودين في كل مكان يرقبون ويفتشون ويتجسسون ثم لا يتورعون عن التدخل في الشئون الخاصة لعامة الناس وخاصة في شئون اولئك الذين كانوا يعملون من اجل الحكومة في الحقل او في المصنع وذلك على اساس ان كل عمل يقوم به هؤلاء العمال والفلاحون قد يؤثر بصورة او باخرى بالسلب او بالايجاب في ايرادات الملك البطلمي ، وهذه الايرادات تأتي في المقام الاول ولها قدسيتها وحرمتها في نظر رجال الحكومة فهي الغاية القصوى التي يجب ان تتجه اليها عيون جميع الناس في مصر البطلمية والتي يجب ان تتضافر جميع الجهود لتحقيق اكبر ايراد ودخل على اتم وجه .

وهؤلاء العمال والفلاحون كانوا يعلمون علم اليقين ان عناية الحكومة بشئونهم سببها راجع بصفة خاصة الى حرصها على سلامة ايراداتها وان هذا كله يتوقف على عملهم . وعلى ذلك كانوا اذا ما رفعوا عرائض وملتمسات الى الملك – ونحن نجد هذه الملتمسات في مصر البطلمية ففي كتاب فرنسي نشره عالم فرنسي يسمى " اكتاف جيرو " (Octave guéraud) ، العديد من هذه الملتمسات والكتاب يسمى Enteuxeis اى الشكاوى (نشر في مصر عام ١٩٣١ من عهد كل من بطليموس الثالث وبطليموس الرابع – كان الناس دائما في هذه الملتمسات ينوهون من طرف خفي او بصراحة الى ضرورة رفع الظلم عنهم حتى يستطيعوا ان يؤدوا للملك الخدمات المطلوبة ولانتظار ايرادات الملك فهم عندما يشكون لا يتوسلون فقط بالترحم الى سماحة الملك واللجوء الى عدله وحبه في احقاق الحق ونشر العدالة بين الناس بقدر ما يدعمون ملتمساتهم بقولهم ان المعاملة الظالمة تحيق بهم سوءا قد يحول دون قيامهم بأعمالهم مما قد يترتب عليه خسارة مؤكدة في ايرادات الملك . فلا عجب اذا ان كان الشعب المصري في مثل هذه الظروف القاسية لا يظهر سوى القدر الضئيل من الحماس والغيرة ولا يبدى شيئا كثيرا من النشاط والقدرة على الابتكار في عمله الذي كان يضيق به ذرعا ويعتبره فرضا ثقيلا عليه ، مما سبب عدم الاكتراث احيانا وعدم المبالاة .

ولسنا نعرف على سبيل اليقين عدد المواطنين من المصريين الذين لم ينضووا في خدمة عمل من اعمال الملك وبقوا بمنأى عن اولئك الذين ارتبطوا مع الحكومة بعقد او بالتزام معين او

حتى بالتزام ضمني ، فالذي نعرفه عن الالاف من شرات الالاف من المصريين كانوا يعملون في خدمة الملك ولصالحه • ولا بأس ان كان الكهنة ونفر من الموظفين التابعين للتاج الملكي وبعضهم من ذوي المراتب العالية ولهم حظوة لدى الملك ثم ملاك الاراضي الخاصة وهم بالطبع قلة في مصر البطلمية لكن هؤلاء كانوا بصورة ما خارج نطاق تلك الاغلال المباشرة التي كان يرسف فيها سائر افراد الشعب ، وذلك اسوة بما كان عليه ذوو المهن الحرة — اذا صح ان وجد مثل هؤلاء في مصر — ونحن نرتاب كثيرا فيما يقال من انه كان يوجد لمصر في العصر البطلمي عدد كبير من المصريين ممن استطاعوا الفرص الحرة كيما يكسبوا قوتهم (بعرق جبينهم) بوصفهم الاجراء الاحرار دون ان يكون لديهم حرفة اخرى في نفس الوقت اما النساء والاطفال فهم بالطبع خارج هذا النطاق وليس هناك من سبيل لان تجري الحكومة معهم اي تعاقد بصفة مباشرة؟

<u>العبيـــد</u> — هؤلاء يطلق عليهم الكلمة اليونانية (douloi) ويمثلون شقا كبيرا — وقد افرد عالم امريكي ضليع هو وليام لين وسترمان (W.L.Westerman) الاستاذ الراحل بجامعة كولومبيا بنيويورك — عن العبيد والرق بصفة عامة دراسات مستفيضة في كتاب صدر عام ١٩٥٦ عنوانه (SlaveSystem) تناول فيه مركز العبيد في مصر البطلمية وتجارة العبيد واوضاعهم القانونية • ويجب ان نعترف بادئ ذي بدء ان النقص والقصـــور يعتور معرفتنا بدور الرق في معترك الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر • وعلينا ان نميز بين نوعين من الرق هما الرقيق المصري والرقيق اليوناني او الاغريقي فالاول كان نتيجـــة نوع او شكل من اشكال الاستعباد والاسترقاق ولسنا نعرف سوى النذر القليل عن اصل هذا النوع ، اما النوع الثاني فكان مجلوبا الى مصر ، اصطحبه اليونان معهم عندما وفدوا الـــى البلاد واعتمدوا عليه [illegible] وعملوا على اقتنائهم بالشراء وسجلنا اوصاف هؤلاء العبيـــد في وثائقهم وتابعوهم وتربصوا للآبقين او [illegible] وما اكثر حوادث فرار العبيـــد في مصر البطلمية واصداء هذا كله نسمعها من خلال [illegible]

[illegible] •

والشكل المصري للرقيق والعبيد كما نعرفه من تلك الوثائق هو ذلك الذي نجده في المعابد المصرية وكان يسمى بالعبيد المقدسين (heiro-daulot) ونظامهم يطلق عليه (heirodoulia) وهم فئة لعلها كانت تمثل رقيق الجماعة الذين التصقوا بالمعابد واصبحوا ملتزمين بالبقاء هناك برباط مقدس . وكان هذا النظام قوام النشاط الحيوي في شتى المعابد ويلقي على كاهلهم عبء العمل اليومي واليدوي . ومما لا ريب فيه ان رقيق المعابد ظلوا دون وجود العبيد المجلوبين ودون تسرب النوع الاخر من الرقيق اليوناني الى عالم المعابد او التغلغل في كيانها . ويبدو من المحقق انه لا مجال للرق في حياة الجماهير الفقيرة من الشعب المصري وانه لا يمكن ان تقوم للرق على اي صورة من صوره ذات قائمة او يكون له شأن هام في معترك الحياة المصرية العادية لسبب واحد وهو رخص العمل اليدوي في مصر في العصور القديمة ثم ان الفلاح الملكي او العامل في احد المصانع الخاصة بشيء من انواع الاحتكارات من ورق او ملح او زيوت او عصير نبيذ او جعة او نسيج او تعدين او صيد او تحالة الخ من قائمة الاحتكارات الهائلة ، التي كانت تشتهر بها مصر البطلمية ويحيط بها سيل متين من الحاكات وتستعين في عملها الرسمي او الدائم جموعا هائلة من العمال وتراقبهم مراقبة شديدة خشية ان يهملوا لحسابهم او يتهربوا — نقول ان هذا الفلاح او العامل المصري لم يكن على قدر من الغنى والثراء بحيث يمكنه ان يقتني عبيدا يشتريهم من اسواق النخاسة بمصر او من الخارج سواء اكان هؤلاء عبيدا من المصريين او الاعراب مثل عبيد الشيخ طوبيا فيما وراء شرقي الاردن وكان هذا الشيخ العربي يفاخر بهؤلاء العبيد ويقدم منهم هدايا الى الملك البطلمي بطليموس فيلادلفوس ثم الى وزير ماليته المشهور " ابوللونيوس (Apollonios) وكان الاخير يشغل وظيفة مرموقة هي وزير المالية (dioecetes) طوال خمسة عشر عاما هي الفترة الاخيرة من حكم بطليموس فيلادلفوس الذي امتد الى تسعة وثلاثين عاما حتى ٢٤٦ ق.م. (توفي في يناير من عام ٢٤٦ ق.م.) ان هذا الفلاح كان بالطبع رقيق الحال ، يعوزه دائما المال ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا انه كان يعيش من اليد للفم ، فهو قانع بكسب قوت يومه ، ولذلك كان الطابع المميز له هو الرضا والقناعة ولا يتحقق ان درجة الفقر والعوز التي كان عليها تمكنه من شراء او اقتناء

عبيد حوله بين انه هو نفسه كان يسعى الى الحصول على اجر زهيد لدى ملاك الاراضى من

الانتفاع بخدماته والمحتاجين الى جهده الجثمانى - كل هذا جعل تطور نظام الرق بشقيه

على اى نطاق واسع امرا مستحيلا فى مصر البطلمية ، اما العناصر الثرية فى مصر ذلك الجاه

والنفوذ فهى القادرة على شراء العبيد واقتنائهم سواء اكان هؤلاء من كبار الموظفين او من

الاعيان ، يستوى فى هذا اليونان والعناصر المتأغرقة والعناصر المصرية التى سايرت الحكام

وكانت على معرفة بلغتهم واساليبهم وهؤلاء عرفوا بانهم كانوا يعرفون او يجيدون لغتين

الديموطيقية أو المصرية القديمة واليونانية فهم bilingual ومن هؤلاء الكاهن

مانيتون السمنودى وبيتوزيريس (Pehosiris) من الاشمونين ، او هرموبوليس

ماجنا (ملوى) بالصعيد (تونه الجبل حيث كانت فى وقت ما لجامعة القاهرة (كلية

الآداب) حفائر اثرية هناك وهى منطقة ذات اهمية بالغة بالنسبة لهذه الدراسة لانها

كانت ملتقى الحضارة اليونانية او البطلمية مع الحضارة المصرية وموطن عبادة الآله تحت

(Thoth) الذى كان يرمز له بالقرد فى الاشمونين وبطائر الابيس (Ibis) فى

تونه الجبل غربى النيل وله مدافن هناك عبارة عن سراديب تمتد لالاف الكيلومترات تمثل كل

واحدة منها Ibeum وتحكى لنا قصة هذه العبادة . وعلى جدران السراديب

كتابات وطقوس باللغة المصرية المتأخرة وعلى توابيت هذا الاله تكريمات بالخط الديموطيقى

تعد بالالاف ، وهكذا كان اقتناء العبيد مقصورا على طوائف معينة ، هى تلك التى كانت

قادرة على جلبه من الخارج او شرائه من الداخل . فسادة البلاد الجدد وحكامها وكبار

الموظفين فى تلك البيروقراطية والحكومة المركزية من الملك ورجال بلاطه والبيوتات الكبيرة

وكبار رجال الدولة والضباط ورجال الجيش والجنود - كل هؤلاء كانوا يفاخرون بالاستحواذ

على اعداد هائلة من العبيد وغالبا ماكانت قبورهم يسطر على جدرانها وشواهد قبورهم

موتاهم وبصحبتهم رهط من العبيد ، ثم ان اعضاء العائلات المتوسطة سواء من الاغريق او من

المصريين والاجانب المتأغرقين وهؤلاء الاخيرون كانت اعدادهم فى تزايد مستمر - كل هؤلاء

كانوا وهم الممثلين للبورجوازية القديمة ، قد تعودوا على استخدام العبيد ، بل ان الكثيرين

منهم اصبحوا لا يقومون على الحياه بدون العبيد من حولهم اما كلاعبات على القيثاره او محظيات او فلتنات او مرضعات والذكور منهم كانوا يؤدون مات عامه • كممندماريين او كانوميجسين من حو . سيدهم للسر وللترفيه على سنه ( ) فى البلاد اليهوديه وقد وجدت فى مصر سوق رائجه لهؤلاء العبيد ازدهرت اثناء الحروب الخارجيه المستمره التى شنها بطلميوس الاول فى سوريا وفلسطين وغزه وسهل البقاع ( ) اى لبنان فى اسيه الصغرى وفى برقه وجزر الارجنتيين وتابع ابنه بطلميوس فيلادلفوس الشوط فى مضمار الحروب وكان يشنها بواسطه قواده وضباطه وبين بنفسه اما الملك البطلمى الثالث وهو بطلميوس يوجنيس الاول فكان بطلا مغوارا سارع فى سيئه الاولى من توليته الى الشام وما وراء الفرات محاولا استعاده الاملاك التى كانت قد بدأت تتقلص من مصر — ومن نتائج فتره الحروب هذه ان راجت سوق العبيد فى مصر بفضل تواجد الاعداد الهائله من الاسرى ومن هؤلاء اى العبيد المجلوبون من سوريا وقد تحدثت عنهم الفائق والاوامر الملكيه التى اصدرها الملك بطلميوس فيلادلفوس بشأن اطلاق سراح بعض هؤلاء الاسرى من قبيل التسامح • فلما تواجد فى مصر سوق هائله للرق مزوده بجميع العناصر لهذه السلعه البشريه البغيضه نجحت فكره افتتان العبيد لدى الكثيرين • اما من باب الماهله المفاخره وليس من باب الحاجه الماسه فالفعل كلما قلنا رخيص فى مصر ولا يدعو بحال من الاحوال لاستخدام العبيد • على العبيد • على ان هذه العناصر الثريه وذات الجاه والنفوذ عرفت كيف تتخذ رقيقا من بين بعض المصريين بسبب الديون والعجز عن الوفاء بها وهذا فى حد ذاته ككل يتضخم اعداد العبيد تنفيذا لشروط الدين واهمها حق التنفيذ على اشخاص المدينين العاجزين عن السداد وعلى الضامنين لهم وهكذا كانت الروابط تتفكك بين الناس فلا يلبث الانسان ان يجد نفسه قد تحول لبين يوم وليله الى عبد مستخدم ومسخر على الآخر فى مثل الاعمال المنزليه • ومصر البطلميه حاولت بالتأكيد ادخال نظام العمل بواسطه الرقيق فى الاعمال الصناعيه والتجاريه وبذلت المحاولات الجاهده فى هذا السبيل وبخاصه فى الاسكندريه ولكنها لم تهتم وباءت بالفشل للاسباب التى ذكرناها انفا واهمها رخص الايدى

العاملة بدرجة ملحوظة وماكان ينطوى عليه الرق من مبادئ ليس فيها انسانية ولاكرامة وليس هناك مايحمل على الظن بأنه فى مثل تلك المنشآت والاعمال الواسعة التى كانت تجرى فى ضيعة كبرى هى هبة مساحتها عشرة آلاف من الاروروات وتساوى ستة آلاف من الافدنة المصرية فى نطاق بلدة مشهورة هى قرية فيلادلفيا الواقعة بشرقى اقليم الفيوم والاقليم الارسينويتى كما اسماه فيلادلفوس بعد موت اخته وزوجته ارسينوى الثانية وكان الملك البطلمى قد وهبها الى كبير وزرائه ابولونيوس قابلة للاسترداد واستردت بالفعل بعد موت او اختفاء ابولونيوس فى صدر حكم بطليموس يورجتيس الاول مباشرة – فى هذه الضيعة كان استخدام الرق فى العمل يجرى على قدم وساق يمثل ظاهرة فريدة جنبا الى جنب الاعمال الاخرى التى كان يستخدم فيها الاحرار • وعلى اى حال لاينبغى ان نغالى فى تقدير اعداد العبيد المستخدمين فى منازل وبيوتات اعيان البلاد وحكامها وكبار موظفيها • ذلك ان الملوك البطالمة لم يكونوا من المشجعين على زيادة اعداد العبيد وانما فرضوا الضرائب والقيود الكثيرة على بيعها وتداولها واوجبوا تسجيلها وحاولوا جهد استطاعتهم منع انتشار هذا الداء الوبيل والحيلولة دون استرقاق العناصر الوطنية وتحديد اعداد العبيد المجلوبين من الخارج •والمصدرين من مصر الى خارج البلاد وفرضوا الضرائب والمكوس العالية على التجارة الخارجية فى هذه السلعة البشرية • وخلاصة الرأى ان الرق كعامل اقتصادى كان اقل اهمية فى مصر البطلمية منه فى اى جزء من العالم الهيلليينستى (اى العالم اليونانى عقب مقدم الاسكندر وهو الاسم الذى اطلق على هذه الحضارة الهيللينية تمييزا لها عن الحضارة الهيلينية الاصيلة – حضارة القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد حضارة سقراط والشعراء يوريبيدس وارسطو [illegible] والمفكرين والكتاب مثل هيرودت دثوسيديوس وبركليس • اما حضارة مابعد الاسكندر فكانت شبيهة من تلك ولاتدانى الحضارة الاولى فى اصالتها لاصطباغها بصبغة شرقية ارادها الاسكندر ان تكون خليطة وان يمزج الشرق بالغرب وان يقرب اوربا من آسيا وافريقيا ونجح الى حد ما فى افكاره التقدمية هذه •

الكهنه فى مصر البطلميه (   ) والكهنه (   )

الف الكهنه فى مصر طبقه متميزه وكانوا بالطابع من العناصر الوطنيه وكانت معابد هم بمثابــــه معاقل للوطنيه المتأججه ضد الحكم الاجنبى ولكنهم سايروا الملوك البطالمه الى حين وتبـاروا فى اصدار القرارات التي تشيد ببعض ملوك البطالمه وما اسبغوه على المعابد من انعامــات وحقوق للايواء والاستجاره لبعض الطوائف من حقوق وامتيازات ومن عفو عام عن المتأخــر مــن الديوان واخراج للمساجين الى ولدينا من هذا القبيل نقوش مسطره على الحجاره منهـــــا حجر كانوبوس بطلميوس الثالث (٢٣٧ ق٠م٠) (   ) وحجــــر رشيد لبطلميوس الخامس (١٩٦ ق٠م٠) وكان رجال الدين يحظون بمنزله خاصه ويتمتعـــون ببعض المميزات العامه مثل الاعفاء من العمل بالاكراه ولكن فى واقع الامر لم يكن الموظفـــون الاداريون فى مصر البطلميه يرعون لهم هذه الميزات بالاستمرار وانما كانوا يتجاهلونها ٠ علــى انه من المؤكد ان الكهنه كان مسموحا لهم ان يتمتعوا بقسط وافر من الحكم الذاتي فى داخـل معابدهم فكانوا يباشرون طقوسهم ومراسمهم الدينيه دون اى تدخل من جانب الحكومــــه وفوق هذا وذلك فانهم كانوا يحصلون على ايراد من الزراعه بوصفهم ملاكا لمساحات ضخمه مــن اراضى المعابد المرصوده على هذه المعابد للصرف على الاغراض الدينيه (   )

وكانوا كذلك يستفيدون من الناحيه الماديه من وراء الاشراف على الصناعـــات التى كانوا يزاولونها فى المعابد مثل اعمال نسيج الكتان الرفيع المعروف باسم (   ) وعصر الزيوت لفترات موقته من كل عام وعصر النبيذ للاستهلاك الخاص بهذه المعابد وليـــس للمتاجره بحال من الاحوال والا اعتبروا مخالفين ومنافسين للحكومه البطلميه التى لا تطيــــق احتمال وجود اى منافس لها فى مضمار التجاره والصناعه الداخليه فى هذه السلع الحيويـــــه وكان مسموحا لهم بالمتاجره فى بعض السلع الاخرى والحرف التى تخلفت عنها عين الحكومــــه كأعمال التحنيط وبيع سلع لها ارتباط باعمالهم الدينيه ٠ ولكن جزءا كبيرا من موارد رجــال الدين بل لعل هو الجزء الاكبر من هذه الموارد كان يذهب الى خزانه الملك او الى بيــت المال ويطلق عليه كما قلنا من قبل (   )

وهنا يجدر بنا ان نحاول الكرة الى التنويه بوجود طائفة مهمة في داخل المعابد المصرية لها كيانها الاقتصادى والاجتماعى ولاغنى عنها تلك هي رقيق المعابد (Heirodoulos)
وقد يكون من الشائق ان نعرف شيئا عن هذا النوع من الرقيق الملتصق بالمعابد والذى لم يكن ينتمى بالطبع لاى مرتبة من مراتب رجال الدين ، فلاهم كهان Reireus, Reireis ولاهم كهان عرافون propheteis ولاهم حملة الاردية المقدسة Stolistae ولاهم سدنة المعابد (neokoroi) وانما كانوا يعملون من اجل المعابد فى فلاحة الارض المقدسة (ge heira) او يعملون كعمال فى المصانع الصغيرة الملحقة بالمعابد ومنهم من اشتغل برعى الاغنام والماشية او المحافظة على الاوز المقدسة (cheroboskoi) وهناك فريق ثالث (من الذكور والاناث) كان يقوم بالاعمال اليدوية على مختلف انواعها ، مما كان يتصل بادارة المبانى الخاصة بتلك المعابد والسقاية واعداد الوقود وشتى الواجبات الدنيا فى هذا المحيط الدينى ، ولو اطلقنا على هؤلاء اسم الرقيق كما يفهمه الاغريقى من مدلول كلمة رقيق (douloi) لكان فى هذا الشىء الكثير من خطل الرأى ، ولعل حقيقة مركز هؤلاء العبيد المقدسين تتكشف لنا شيئا فشيئا بعد نشر الوثائق الديموطيقية التى تجرى دراستها بعناية فائقة وتنشر تباعا ويكفينا الآن هذا القدر ولا داعى للخوض فى اسئلة قد نحار فى الاجابة عليها .

العناصر الاجنبية فى خدمة مصر البطلمية

يطلق على هؤلاء الاجانب كلمة (ξενοι) باليونانية وكان هيرودوت اول من اطلق على المصريين انهم يخشون الاجانب بصفة عامة وينفرون منهم وصار وصفه للمصريين على انهم (xenophoboi) لاصقا بالشعب المصرى على مدى الزمان ، وكان المصريون فيما عدا موظفى الحكومة وقلة من ملاك الاراضى والكهنة ومحترفى الحرف والمهن ، لا يجدون سوى المجال الضيق يكسبون من ورائه ثروات طائلة اما عن طريق الادخار او بفضل نشاطهم وقد رتبهم على العمل وهم فى هذا المجال كانوا يختلفون اختلافا بينا عن مركز الطبقات الممتازة من الاجانب والوافدين الى مصر وهم الذين تفتحت امامهم الابواب واصبحوا باستقرارهم

ويكتب اسمهم في اوراق مصر وهم رعية (subjecti) لملوك البطالمة على الرغم مما كان لبعضهم من التمتع بحقوق مدينتهم الواطنية (politeia) وهي المنزلة التي كان يحظى بها نفر من سكان الاسكندرية وسكان مدينة نقراطيس ثم سكان مدينة بطلمية (Ptolemais) او المنشأة في محافظة سوهاج بأقاصي الصعيد • ولا ريب ان مركز هؤلاء الاجانب المستقرين في مصر كان اسعد بكثير من هؤلاء الاجانب • ونجم عن هذه التفرقة في المعاملة حساسية شديدة واحتكاكات مستمرة •

وليس هنا مجال مناقشة المركز السياسي والقانوني لاولئك الاجانب في النصف الاول من القرن الثالث وحتى صدر عصر البطالمة فالموضوع شائك وطويل • تستقي بعض مصادره من لمحات واشارات ترد في الاوامر والتشريعات الملكية او في ثنايا الخطابات والمظالم التي كانت تصدر عن كل فريق ازاء الآخر بسبب سوء المعاملة وروح الاثرة • وقد وضعت النوازع في شتى المجالات وافترضت الاحتمالات لتفسير لهذه الظواهر بهدف الوصول الى رأي قاطع • وانى لنا ذلك والموضوع معقد ومتشعب • ومما لا ريب فيه ان الانسان يستطيع التحدث بافاضة عن احوال اولئك الاجانب من يونان خلص او عناصر اسيوية مصطبغة بصبغة يونانية من انحاء كثيرة في آسيا الصغرى مثل [illegible] وليديا وكيليكيا وكاريا [illegible] ونيا وفريجيا • وكانت الالوف المؤلفة من هؤلاء جميعا بشتى مراتبهم ومختلف حرفهم قد انسابوا الى مصر ورحبت بهم البلاد لانها كانت في حاجة ماسة الى خدماتهم وجهودهم العسكرية والفنية وخبرتهم وعلمهم في شتى المجالات من زراعة المحاصيل التقليدية واستنبات نباتات كثيرة وجلب اخرى مثل الكرنب والسمسم والبنجر والقلقاس وانواع شتى من التمر والقرايص والقمح الذي كان ينضج في ثلاثة اشهر وعرف في عهد فيلادلفوس باسمه الدال عليه (Trismenos sitos) ثم الفاكهة على مختلف انواعها وليس فيها باع طويل فاشجار الزيتون والتفاح والكروم كانت محببة اليهم • اصبح جل هؤلاء ينقسمون الى شيع وسلالات ويؤلفون في مجموعهم فريقا منفصلا ومتميزا عن باقي السكان ويشكلون قشرة رقيقة او طبقة خارجية في مبنى مكسو بهذا الغشاء وقد نأى افراده بجانبهم عن باقي المصريين كلما امكن وذلك • وتفشى هذا في الحضر اكثر منه في الريف

او الخورا (Chora) حيث كان الاختلاط اشد والتم فى الحقول والاجران والشون حيث كان يجرى التصرف في المحاصيل بعد تقديرها واحتساب الضرائب المقررة عليها وترك الفائض (epigenema = bonus) منها للمصريين وقد حرص الاجانب على اقامة الحواجز والفواصل بينهم وبين المصريين كلما امكن ذلك خشية ان تطغى عليهم الجموع الغفيرة او الكثيرة من المصريين فيذوبون فيها كما تذوب حبات الملح او نقطة العسل فى بحر خضم لجى . وقد قسموا انفسهم الى سلالات وشيع حسب الجهة التى وفدوا منها وكان الاساس فيها يقوم على قاعدة اثنولوجية اساسها السلالة وتسمى الواحدة بولتيوما (Politeuma) لها حقوق وضمانات سياسية واجتماعية ونظم مرعية . وكان انتقال فرد من . موع المصريين الى صفوف اولئك الاجانب او بالعكس او من شيعة من الاجانب الى سلالة اخرى امرا محرما تماما . على ان الاجانب الذين استقروا فى البلاد بصفة دائمة كانوا . مثلهم مثل المصريين عرضة لدفع الضرائب ولا سبيل لاعفائهم من قيود الاحتكارات . كما كان عليهم واجب الوفاء بنصيبهم في تلك الاعباء المالية الجسيمة المفروضة على الشعب وكان ينتظر منهم بالطبع اداء جميع ما يفرض عليهم من اعباء من قبل الحكومة .

والاجانب كانوا على اى حال فى نظم معيشتهم ومركزهم سواء الواقعى (de facto) او القانونى (de iure) — يحظون ببعض الخصائص والمميزات التى فرقت بينهم وبين المصريين ويحق لنا ان نسمى هذه الخصائص امتيازات . وكانت اكبر الجماعات واكثرها تنظيما هى الجيش البطلمى وحامياته فكان رجاله وضباطه (stratiotae) يعيشون حياتهم الخاصة ويتمتعون بكثير من الامتيازات وتسود بين صفوفهم تقاليد قديمة متوارثة وتطبق عليهم لوائح وضعها الملك لضباطه ورجال جيشه . ثم يلى الجيش فى الاهمية تلك الجماعات الكبيرة من المستوطنين الاجانب من عصر ماقبل البطالمة وجلهم من المهاجرين الذين كانوا يكونون الهيئات المدنية فى المدن الاغريقية القديمة واولاها واقدمها نقراطيس (فى مركز ايتاى البارود فى محافظة البحيرة)

ومحلها الآن تل فراعون وكوم جعيف ونبيرة وكانت منذ أيام الفرعون ابسماتيك فى الاسرة السادسة والعشرين مؤسسة يونانية خالصة جاء سكانها من اهل ميلتوس بآسيا الصغرى وعناصر يونانية اخرى اخذت تسود فيها المقومات اليونانية والمبادئ التى تتميز بها المدن اليونانية الخالصة ولكن هناك مدينة اخرى هى بارا يتونيوم (Paraetonium) ومحلها الآن مرسى مطروح حرفها العرب الى البرتون ثم الى مارق مرسى ثم استقر التحريف اخيرا الى مرسى مطروح ولما جاء الاسكندر اسس بنفسه مدينة الاسكندرية واختار موقعها الحالى وكان موفقا فى اختياره وارادها ان تكون مركز اشعاع حضارى وقد اتم بطلميوس الاول وابنه بطلميوس الثانى بناءها ونقلت اليها العاصمة من منفيس بعد ان اكتمل البناء واسس بطلميوس الاول مدينة اخرى كانت آخر المؤسسات الحضرية من هذا النمط وتلك هى بطلمية ptolemais وكان محلها قديما قرية مصرية تسمى " ابسوى " (psoi) وتعرف الآن باسم المنشأة فى مديرية سوهاج ، قصد بها كذلك ان تكون مركز اشعاع حضارى فى الصعيد ولم يشأ البطالمة التوسع فى هذا المجال واقتصروا على هذا الجهد المتواضع ولم يجاروا السلوقيين فى الشام وهم خلفاء الاسكندر مثلهم وعرف عنهم التوسع فى انشاء المدن فى الشام اما البطالمة فخشوا ان تتحلل اوصال البلاد بتأسيس المدن ذات الكيان الذاتى ، ومما لا ريب فيه ان هذه المدن كانت تتمتع بقسط موفور من الحكم الذاتى ولم يكن نظامها الداخلى من حيث توافر مجلس الشيوخ او البولى (boule) ومجلس الاحرار او الاكليسيا ecclesia والانقسام الى قبائل وديمات (phylee demes) ، ووجود بريتانيس وبريتانيم (Prytaneis) (prytaneion) واصدار قرارات من مجالس الاحرار تبلغ للسلطات البطلمية الخ ـ لم يكن الجو السياسى فى هذه المدن يختلف كثيرا عما كان عليه الحال فى المدن الحرة الاغريقية مثل أثينا (كبوليس) (poleis) وجمعها (polis) بوجه عام .

ويظهر ان الحكومة البطلمية لم تكن تعترف لمعظم الاغريق الذين انتشروا فى ريف البلاد او ما يعرف بالخورا (Chora) وعاشوا بين ظهرانى المصريين واختلطوا بهم فى الحقول

ومواطن الصناعات المختلفة ، بأي نصيب ولو بقسط محقوق من الحكم الذاتي — فهذا الامر كان بعيد المنال ، وانما كانت لهم نظمهم وهيئاتهم التعليمية في المعاهد والنوادي الثقافية المعروفة باسم جمنازيم (gymnasia gymnaseum) والمتمتعة ببعض الميزات مثل حق تملك الارض والاستيلاء على ايراداتها • وكانت هذه المدن تحرص على تكوين هذه النوادي وغيرها من مختلف الجمعيات والمؤسسات (synodoi) ذات الطابع الديني والقومي او الاجتماعي • وان اكثر هذه الهيئات اهمية واعرقها من الناحية السياسية هي تلك الجماعات القومية او الجاليات (politeumata) واغلبها كان وثيق الصلة بالجيش ولربما كانت كل جماعة منها تتمتع بمنحة او حق من الحقوق المدنية او بميزة من الميزات لانعرف كنهها • ونسوق على سبيل المثال جالية الليكيين lycians او جالية الكيريين (Carians) ويبدو ان اليهود الساكنين في الاسكندرية كان لهم حق العبادة في بيعهم على النحو الذي شرعه لهم سيدنا موسى وليس للدولة حق الاعتراض على مباشرتهم طقوسهم الدينية ولربما كان لهم كذلك حق التشريع والقضاء في شئونهم الخاصة وقد فصل لنا ذلك الفيلسوف السكندري اليهودي فيلون فيما كتبه عن القوانين الخاصة de specialibus legibus وكان يلي هذه الهيئات من حيث الاهمية طائفة من خريجي هذه المؤسسات الثقافية او الجمناسيات وهي اشبه مايكون بخريجي الجامعات في العصر الحديث فكان هؤلاء يطلق عليهم بالخريجين (Hoi apo tou gymnasiou) وهم فئة مثقفة يشار اليها بالبنان ، تقوم على تبرعات اعضائها وتشرف على تطبيق النظم الاساسية الكفيلة ببقاء الحياة الاغريقية ومراعاة اصولها في مصر • وكانت هذه الجماعات على اتصال وثيق ببعض البطالمة المرابطة وكانت تنظم محاكم خاصة للتقاضي بين صفوف الافراد من الاغريق ويعترف الملك البطلمي بشرعية القانون المدني الاغريقي ويوافق على تطبيقه على اليونان وقد حفظت لنا اوراق البردي مجموعة من تلك القوانين ، نشرتها جامعة " هالي (Halle) الالمانية عام ١٩١٣ تحت عنوان Dikaeomata اى الاحكام وعرفت ببردية هالنسيس (PapyrusHalensis) فكشفت لنا عن القوانين الجنائية والمذهبية والقسم القانوني ومحاكمة المزورين وشهود الزور وكيفية التقاضي بين هذه

الطوائف اليونانية المقيمة بالاسكندرية • ومن المحتمل انها كانت تمس المدن الاغريقية الاخرى بمصر ومطبقة فيها • بل وربما كذلك الهيئات القومية التي تحدثنا عنها وهذه القوانين تعرف بالاسم الدال على كنهها ومجالها وهو (hoi politikoi Nomoi) وازائه لابد لنا ان نقول في شيء من التأكيد ان الاستعانة بهذه القوانين والتشريعات الخاصة بالمدن وتطبيق المحاكم اليونانية المعروفة باسم الخريماتستاي (Chrematistae) واعتراف الموظفين الملكيين الذين كانوا يقومون في بعض الاحيان بدور القضاء الحاجل • كانت لاتحصل الا في الاحوال والظروف التي لايوجد فيها نص صريح عليها في القانون العام ولم يرد بشأنها امر ملكي سواء اكان هذا الامر من قبيل مايسمى فيليلماس (prostagmata , diatagmata, diagrammata) وهناك قضاء اهلي خاص بالمصريين عندما تكون الوثائق المعروفة ديموطيقية فعندئذ يذهب المتقاضون الى محكمة مصرية هي محكمة (Laocritae) او هي تسمى Knbt بالمصرية القديمة وهذه تستند في احكامها على القانون المدني المصري في حالة عدم وجود اوامر ملكية او لوائح يمكن تطبيقها • والآن نعرض لمظهر آخر وهو من جانب الحكومة البطلمية ازاء الجاليات الاجانب او بالاحرى ازاء بعض العناصر غير الوطنية من رعايا الملك • فهؤلاء الاجانب وسلالاتهم كانوا معفين في اغلب الاحيان من اداء اي عمل من الاعباء التي كان يكلف بها غيرهم وتدخل في نطاق اعمال السخرة (leiturgia) او على اشبه ماتكون بها •كما كانت بعض الطبقات من بين هؤلاء • مثلهم في ذلك مثل الافراد • متمتعة بامتيازات واعفاءات خاصة فيما يتصل بالضرائب مثال ذلك ضريبة الملح halike التي قال الملك بطلميوس وزير المالية على عهد فيلادلفوس لعامله telos tout halis وهو مدير الشئون الاقتصادية بنانى يسمى زويلوس ان الملك امر باعفاء المعلمين والمدربين والحائزين لقصب السبق في المباريات والالعاب التي تعقد في الاعياد الملكية وعيد الاسرة البطلمية وعيد الخمس سنوات من ضريبة الملح هم وسلالتهم او بالاحرى هم واتباعهم من الساكنين معهم (oikeoi) (انظر بردية ماكسيس الاسطر ١٦٦ حتى ١٧٠) • ولكن كل هذه الامتيازات والاعفاءات تقدم ابدا الدليل على ان فيلادلفوس كان ينتهج سياسة مشابهة

للهيلنية اذ خص المعلمين للغة اليونانية والحائزين لقصب السبق فى الالعاب والمباريات اليونانية بهذه المنحة وهى الاعفاء دون غيرهم من المصريين الذين يقومون بتعليم الكتابة الديموطيقية للناس وقد اخذ الكتاب والمعلقون عليه هذا الانحياز لبني جلدته ورموه بالتحيز السافر .

على ان كل هذه الامتيازات والمنح التى اسبغها الملوك البطالمة المتعاقبون على طوائف من الاجانب ومصريين ، كانت مجرد منح قابلة للاسترداد فى اى وقت للنقض والابرام حسب هوى الملك ،فلم تكن حقوقا مكتسبة ووراثية لها سندها من القانون . ولا ينقض توريثها ، ولو اننا عثرنا على وثيقة بردية نشرها مؤخرا عالم بريطانى اسمه اسكيت Skeat تفيد ان يونانيا من الحاصلين على نصيب من الارض قوامه مائة وعشرين من الارورات (الافدنة اليونانية كتب وثيقة يورث فيها هذا القدر بعد موته لآخرين (الوثيقة رقم ٢٠١٥ من بردي المتحف البريطانى وتاريخ الوثيقة ١٣ يونية ٢٤١ ق.م .

وفى هذا الصدد يجب ان نذكر ان فريقا كبيرا من الاجانب الذين استوطنوا فى مصر ،كان يعمل بشكل او بآخر فى خدمة الملك ،فالجيش الذى كان يمثل العنصر الاجنبي المجلوب والمرتزق احسن تمثيل ،كان يعتبر جيش الملك ولا تربطه اية التزامات جوهرية نحو البلاد ،بل ان الوطنية او القومية كانت بعيدة كل البعد عن تفكير قادته ورجاله ، فهو ليس بجيش البلد المصرية الذى يذود عن حوضها ويرد كيد الاعداء وانما هو جيش ملك من ملوك البطالمة المقدونى الاصل ، يغدق عليه الملك ويحركه كيفما شاء .

اما عن باقى الاجانب ممن ليست لهم صفة عسكرية فكانت الغالبية العظمى منهم من المدنيين والكثرة الغفيرة التى وصلت الينا معلومات عنهم كانوا ينتمون الى حاشية الملك وبلاطه فهم اتباعه وزبانيته يضخمون السراى الملكية وتعج بهم دهاليزها واروقتها — هذا هو شأن بيت الملك (oikos) الخاص به فى الحى الملكى برأس لوخياس lochias او البراخيوم bracheum على شاطئ البحر بالاسكندرية (فى حى الشاطبى حاليا ، فى منطقة السلسلة) ، يحوف من حوله رهط من الاتباع وكل من يلوذ بالاسرة

الملكية المقدونية وهؤلاء جميعا كانوا بمثابة خدام الملك الخصوصيين ، وكان لكل واحد من هؤلاء بدوره اشيته وبيته الخاص (oikos) الذى يجمع شمل اتباعه ، فكان لابولونيوس (Apollonios) وزير مالية فيلادلفوس dioecetes ومن اشارته رجاله واعوانه التابعون له ممن يحيطون به ويخضعون لاوامره ، فهم = (hoi para Apolloni, hoi peri Apollonion, hoi hypoApollonion

وكان لمدير اراضيه وضياعه الواسعة في منفيس وفي الفيوم وهو المسمى زينون (Zenon) سكرتيره الخاص ورفيقه فى زياراته ورحلاته فى خارج القطر فى فلسطين والاردن ثم مندوبه المقيم والمستقر في فيلادلفيا (Philadelphia) بالشق الهيراقليدى الواقع شرقي الفيوم بعد عزل باناكستور - كان لهذا الوكيل " الكاونى " (من اهل كاونوس) بكاريا بآسيا الصغرى ، دواره وحاشيته وقلم الكتاب وحفظة السجلات وقد ترك لنا ارشيفا من البردى حاويا لرسائله ومكاتباته ورسائله مع سيده وزير المالية ومع افراد عديدين ممن يقيمون بالاسكندرية وشتى انحاء البلاد ويتناول عمله اليومى والمعاملات العامة والخاصة . كل هذا مبوب ومحفوظ بتواريخه ومناسباته ، عثر عليه حوالى عام ١٩١٧ بخرابة الجرزا (محل فيلادلفيا) بالفيوم بواسطة العمال الذين كانوا يبحثون عن السباخ فوجدوا بين الانقاض هذا الكنز الذى يحكى لنا احوال مصر فى هذه الحقبة والجهود التى بذلت فى الاصلاح والمشاريع العمرانية التى كان لحكومة بطلميوس فيلادلفوس من اجل النهوض بمصر واصلاح اراضيها والتوسع الرأسى والافقى ، فكانت منطقة فيلادلفيا والقرى من حولها عبارة عن بساتين وحقول زيتون وكروم واحواض بها الفاكهة والفول والعدس والخضروات والرياحين ، تفوح منها رائحة زكية ويعتبر هذا السجل الذى يتألف من اكثر من الفين من القصاصات البردية ، معظمها باللغة اليونانية والقليل منها بالديموطيقية ، وقد نشرت عشرات من الكتب والآلاف من المقالات عن هذا التراث العلمى الذى يحكي لنا تاريخ مصر ويصور لنا من الوان الحضارة السائدة فيها في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، على مدى اكثر من خمسة وعشرين عاما من ٢٦٠ ق.م. حتى ٢٣٦ ق.م. وليس هنا مجال الافاضة فى الشروح التفصيلية ويكفى ان نقول ان هذه الصفحة من تاريخ مصر البطلمية هى صفحة فخار حقة .

تزهو بها على العالم فبهود الملك البطلمي وكبير وزرائه والخبراء الاجانب على مختلف انواعهم ساهمت بنشاط وافر في تغيير معالم الحياة كلها في مصر فأثرى الكثيرون وعكفوا على البحث واقتباس الاساليب المستحدثة في الزراعة واستنباط البذور المنتقاة واستخدام الميكنة في الزراعة كالطنبور والساقية بدلا من الشادوف ثم النورج والمدراة وادخال الجمل في حمل الاثقال واستخدام الفيل في القتال — هذا وغيره كثير كان من وسائل النهوض بمصر حتى اصبحت اذ ذاك قبلة الانظار ، ومزارا لملوك آسيا وامراء الهند والسفور ، وسفراء من اروس ببلاد اليونان يخطب ودها وود مليكها وكبير وزرائه امراء اسيويون كملك الهند ويقدمون لهم الهبات والعطايا استرضاء لهم .

وفيما عدا ماكان يجرى في المدائن والحواضر وبخاصة في المدن اليونانية الثلاث او الاربع ، فانه كان من العسير العثور في ريف البلاد وقراها على عدد يذكر من الاجانب ممن لم يكونوا ينتمون الى بيت اودوار من البيوتات التي كانت لاحد من عظماء الاسكندرية في بلاط الملك او احد وزرائه او يقعون تحت حماية صاحب العمل الذى كانوا يعملون في خدمته ، يسبغها عليهم ويؤمنهم على مستقبلهم ويدفع عنهم شر المعتدين وكيدهم .

كان مركز الاجانب من الوجهة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يختلف في الواقع عن مركز المصريين فمركز الاولين كان اكثر نفعا وجدوى من اهل البلاد ، ذلك ان الطبقة العليا من الموظفين المدنيين كانت مقصورة على الاجانب القادرين على التفاهم مع الملك المقدوني بلغته اليونانية كما كان كذلك ضباط الجيش وقادة من المقدونيين واليونان ، جاءوا طائعين مختارين بواسطة زعماء لهم (Condottieri) لخدمة الملك كجند مرتزقة اغراهم المال والكسب المادى والفرص الذهبية فسارعوا الى اقتناصها اما سكان مدينة الاسكندرية فجلهم من الاجانب الذين جاءوا من كل صوب وفج والاحرار منهم قلة بالطبع ولكن الاجانب بوجه عام كانوا يتمتعون بمركز سياسي خاص وقد تهيأت لهم الفرص السانحة كيما يضاعفوا من تقدمهم ويؤكدوا نجاحهم في شتى المجالات في التجارة والصناعة ثم في الزراعة فكان من اليسير عليهم الحصول على الاراضي والاستحواذ عليها من

الملك على سبيل الكيروكيات (   ) وهى اقطاعات من الاراضى الصالحه للزراعه او القابله للاستصلاح تبدأ من خمسه ارواث ويطلق على صاحبها من صغار الجند (   ) الى صاحب الخمسه والعشرين ارواث ويطلق عليها الى صاحب الستين والسبعين والثمانين والتسعين والمائه ارواث

اى صاحب المائه او المائه والعشرون — كل بحسب رتبته العسكريه من الضباط والفرسان وكان كل هؤلاء يحصلون بفضل هذه الاقطاعات على دخل كبير من الارض التى كانوا يتركونها بدورهم للفلاحين المصريين ليزرعوها لهم من الباطن اما فى مجال الصناعه فكانوا هم اصحاب العمل والمقاولون والمتعهدون والمهندسون والخبراء وغيرهم هم العمال لتنفيذ ما يؤمرون به ولاصحاب العمل بالدلبع الفنه ولغيرهم من العمال الفنات والغرم • اما فى موضوع جبايه الضرائب فكان الاجانب هم الملتزمون والمشرفون المتعهدون بجبايتها ومنهم الضامنون والموقعون على صكوك الالتزام باعتبارهم اصحاب اكبر عطاء مقدم فى مزاد بيع الضرائب وكان يعقد سنويا بواسطه مندوب وزير الماليه وهو الموظف المقيم فى حاضره كل اقليم ويعرف بمدير الشئون الماليه اى الـ (   ) ويجرى هذا المزاد تحت اشرافه ويراقب هذه العمليه الدقيقه والتباين فيها وينحى المشكوك فى امرهم وذوى السمعه السيئه والمذنبين ويمنع الموظفين من الاشتراك فى هذه المزادات لا بالذات ولا بالواسطه اى من الباطن وبذا يضمن ان تجرى هذه المزادات على اسس سليمه ثم تطالب الضامنين بتقديم الضمان الكافى على مدى ثلاثين يوما مقسمه الى سته اقسام كل منها خمسه ايام يوفى الضامن جزءا من الضمان يساوى سدس المطلوب فاذا عجز الضامن او الملتزم عن ذلك اعيد المزاد من جديد • وكانت هذه المزادات السنويه وحساباتها الشهريه وعمليه التسويه الشهريه (   ) بين الملتزم ومدير الشئون الاقتصاديه تمثل عبئا دقيقا توليه الدوله كل عنايتها عليه ميزانيه الدوله السنويه •

وكان الاشراف على معظم المصاريف الملكيه والخصوصيه فى ايدى اولئك الاجانب من اليونانين ومن على شاكلتهم فهم الذين يعرفون كيف يمسكون الدفاتر والحسابات المصرفيه

ويسددون ما يتحصل من ضرائب وما يوفيه اصحاب الالتزام والملتزمون من المستحقات عليهم شهريا ويدرجون الاصول والخصوم في قوائم وحسابات مفصلة ـ يتم كل ذلك بدرجة من الاتقان منقطعة النظير في هذا العهد القديم بواسطة هؤلاء اليونانيين •

ومع ان هؤلاء الاجانب كانوا قانونا رعية الملك سواء بسواء مع المصريين ، فانهم كانوا من الناحية العملية رفقاء الملك واعوانه الذين شاركوه الحكم ، والسيطرة على المصريين فخصهم بجل عنايته وغض الطرف عنهم في كثير من الامور • وعلى ذلك فان نظام الحكم في عهد البطالمة الاولين او في صدر هذه الدولة البطلمية اتسم بطابع يذكرنا الى حد كبير بذلك النظام الذى كان سائدا في مطلع القرن العشرين في المستعمرات التابعة للدول الاوربية الحديثة في الهند وشمال افريقيا وآسيا الغربية وعلى الاخص في العصر الاول من فترة التقدم الاستعماري الاوربي وعندئذ كانت العلاقة بين الاوربيين والوطنيين تنم عن روح السيطرة والتعالي وليس فيها اى اثر او بادرة تكشف عن الزمالة والرعاية الواجبة • وكان غرض المستعمرين يهدف دائما الى استغلال موارد تلك البلاد لصالحهم وفائدتهم المادية ـ هكذا كان الحال الى حد ما في عصر البطالمة الاولين • ومهما قيل عن حكم البطالمة ورغبتهم في العمل على اسعاد شعبهم وان حكمهم كان مشوبا بحبهم للخير وميلهم للافكار التي من شأنها الاخذ بيد الناس والترفيه عن احوال الشعب وسعيهم لرفعة شأنه الى غير ذلك من الاقوال التي ضمنها عالم امريكي راحل هو " وليام لين وسترمان " (W.linn Westermann) في مقال مشهور له عنوانه

" The Ptolemies and the Welfare of Their Subjests "

" اى البطالمة ورفاهية شعوبهم " فان هذا الدفاع المجيد يفتقر الى تأييد من مصادر اخرى • ولعل وسترمان بالغ [illegible] في استخراج المعاني واستنباط الرأى السليم فكون الملك البطلمي الاول ولقب سوتير اى المخلص المنجي وكون الملك بطلميوس الثالث لقب بفاعل الخير او يورجتيس ليس ضمانا كافيا بأنه كان يهدف الى فعل الخير وليس استنجاد اللاجئين والمظلومين بالملك دليلا على انه كان دائما في نصرة المظلومين فهذه

كلما ادوات واماالات لا تنم عن شئ الا الحكم البطلمى اتسم بالقسوة والشده واخذ الناس بغير المعروف ، وقوانين الاسره البطلميه واوامرها عن فى عدم التهاون فى اى شئ وفرض الغرامات الباهظه على المخالفين من الناس الى المالكون فى الاغلال ليلقوا العقاب اذا ما تواتر الى سمع الملك ان تاجرا من تجار البيعه مثلا فى قريه دائريه فيلادلفيا قد دلس فى الحساب او تنوه بعبارات اخذ عليها — تقوم عليه البيئه فى الوثائق البرديه وتحصيل الغرامات كات يصل الى عشره امثال والى الالف من الدراخمات وعشرات الفئات لا يسع الانسان وهو يطالع صفحات من قوانين الالتزام فى جبايه الضرائب لفيلادلفوس الا ان يشفق على افراد الشعب المصرى وياسس لحالهم وبوسهم فخيرات البلاد تذهب تحت سمعهم وبصرهم الى خزائن الملك وشونه ولا يبقى لهم منها الا الفتات والنزر اليسير .

على اننا لا يجب ان نبالغ فى تقدير هؤلاء الاجانب فكبار الموظفين كان لهم بالطبع نفوذ كبير فى تسيير دفه الشئون فى البلاد ولكنهم كانوا يعتمدون كليه على الملك او على رؤسائهم ، فمسئوليتهم الماديه والشخصيه كانت جسيمه ومن ذلك فان هؤلاء الموظفين الكبار الذين كان ينظر اليهم كما لو كانوا اشراف البلد قد يصبحون بين عشيه وضحاها ، وقد حلت عليهم نقمه الملك وغضبه فيعزلهم او يقتلهم او ينفى بهم فى غياهب السجون ثم يصادروا املاكهم وثرواتهم الطائله . ولدينا من الوثائق البرديه ما يدل على وقوع مثل هذا بالنسبه لا يوللونيوس نفسه وزير الماليه المشهور الذى توارى فجأه وقيل عزل او مات بعد وفاه فيلادلفوس واعتلاء ابنه بطلميوس يورجتيس الاول عرش البلاد . وقد يلقى الموظفون من الدرجه الثالثه مثل هذا الجزاء مثلما حدث لقطار الجمسه فى فيلادلفيا (انظر المقال الذى دبجه العالم البريطانى ايريك تيرنر بجامعه لندن وعنوانه "

وهناك امثلة اخرى عديدة فى الوثائق البردية وارشيف زينون بصفة خاصة ، فالملك كان يعتبر كل هؤلاء بمثابة الوكلاء عنه فاذا ماتبين له وجود خيانة من احدهم او عجزا وعدم مقدرة وكفاية فى اى منهم ، لم يتردد فى الحصول على مايعوضه عن الخسارة التى لحقت به بمصادرة مالدى هؤلاء الموظفين الصغار او الكبار من ممتلكات - وبالطبع لسنا على بينة من عدد المرات التى كان يحدث فيها مثل هذا التقصير والعقاب ولكن الذى نعرفه على سبيل اليقين هو ان هذا من الجائز حدوثه فى اى وقت ولاى موظف فى البيروقراطية المصرية على عهد البطالمة .

الضباط والجنود :

كان امام الضباط وجنود الجيش من الفرص السانحة لاثراء الشئ الكثير ، فالخدمة فى الحرس الملكى كانت تصبو اليها نفوس الكثيرين وكذلك كانت الخدمة فى [illegible] المختلفة على حدود البلاد والمناطق الاستراتيجية تجلب اجزل العطاء ويثاب عليها من يؤدونها على خير مايرام . ثم ان الانتصار فى الحروب قد يجلب معه الغنم الوفير للجيش المنتصر . ولسنا نعرف كيف كان البطالمة يعالجون مسألة اسلاب الحرب ولو اننا نعرف ان الملك بطليموس الرابع (فيلوپاتور) بعد احرازه النصر [illegible] معركة [illegible] المشهورة عام ٢١٧ ق.م . قدم لجنده مكافآت سخية . وكان ضباط كل من الملكين بطليموس الثالث (يورجتيس الاول) وبطليموس الرابع (فيلوپاتور) يفخرون بما حصلوا عليه من منح وعطايا وهبات كان بعضها من الذهب الخالص . وعندما كانت تنتهى الحروب ويعم السلم كان الجنود والضباط يكافئون بتهيئة حياة فيها الاستقرار والسكينة بعد الصخب والجلاد ، وفيها الضمان لعيش كريم هادئ فيرتبطون بالبلاد برباط وثيق وتستفيد البلاد من خبراتهم ومعرفتهم بأصول الزراعة كما هى مدونة فى الكتب المتداولة مثل Theophrastus, Historia plantarum [illegible] النباتات لثيوفراستوس احد علماء المدرسة الارسطاليسية ، كان الملك يقطعهم على سبيل الهبة القابلة للاسترداد رقعا من الاراضى الزراعية تتناسب فى مساحتها مع رتبهم

العسكريه كما سبق ان اوضحنا وكل قطعه منها هى كليروس (　　　) وصاحبها يسمى كليروك (　　　) اى الحائز للكليروس وبذا تهيأت لهؤلاء الضباط والجند من الفرسان او المشاه (　　　) الفرص المؤاتيه لتحسين احوالهم المعيشية بتحسين رقع الاراضى التى منحوا اياها كما كانوا يحصلون على تكنات او بيوت يسكنونها تسمى ولها نظم معتنيه وقواعد وضعها الملك وراقب تنفيذها وهذه تدخل تحت نظام اسكان الجند

وعلى اعتبار ان هذه المساكن خولت للجند والنبلاء الاستيلاء عليها اما بواسطة مديرى الشئون الماليه (　　　) او انهم ابتنوها لانفسهم ولاحق لهم فى تأجيرها من الباطن او بيعها او رهنها ولا حبسها لانفسهم وضع الاختام عليها عندما يستدعون لاداء التدريبات الدوريه او الخدمه العسكريه كما لو كانت ملكا خاصا لهم وما يتركونها وهى فى الحاله التى كانت عليها عندما تسلموها .

وكان فى مكنه هؤلاء النبلاء والجنود ان يضيفوا لتلك القطاعات من الاراضى التى يحوزونها من قبل الحكومه اراضى خاصه يتملكونها وتسمى هذه　　　　وذلك بفضل ما يزرعونه فيها من كروم وزيتون ونخيل وشتى انواع الفاكهه . اما عن الضرائب التى كان على هؤلاء الجند والنبلاء الكليروكين (　　　) دفعها فانها لم تكن عاليه بالقدر الذى كان يدفعه الفلاحون الملكيون فهو البند الخاص بالضريبه المشهوره وهى الابومويرا (　　　) ومعناها النصيب او الجزء المقتطع فكانوا يدفعون نصيبهم فيها عشرا (　　　) بدلا من السدس (　　　) مما يستخرجون من النبيذ على ما يزرعونه من كروم وفضلا عن ذلك كان قسطهم من الحريه الاقتصاديه اعظم بكثير من شركائهم . وقد صادف بعض هؤلاء الجنود المستوطنين فى اقطاعاتهم العسكريه شيئا من النجاح فى هذا المضمار بوصفهم ملاكا للاراضى . ومع انه من العسير ان نقدر نسبه هؤلاء ، الا ان هذه النسبه تكن قليله بحال ما . وكان هؤلاء الجند المستوطنون انفسهم من المقدونيين والاغريق ومن التراقيين والنسوريين وسكان الاناضول والمعلوم المستفاد من هذا انهم كانوا ينتمون لشعوب واصول وسلالات عريقه انصهرت على مدى الزمان اناسا

عرفوا بالجدية والنشاط في العمل والقدرة على الابتكار . ومع ذلك فقد نشأت ظروف ، نجم عنها وجود عوائق كثيرة كانت تحد من ذلك النجاح الاقتصادى الذى صادفوه ، فاحتراف الجندية فى عصر مثل عصر بطليموس فيلادلفوس لم تكن بالمهمة السهلة التى تدر الارباح على اصحابها دون عمل . ذلك ان الجنود كانوا بين حين وآخر يطلبون لاداء الخدمة العسكرية والاضطلاع بهذه الاعباء يتطلب وجودهم فى اقطار نائية ولمدد طويلة وفى اثناء غيابهم كانت انصبتهم ترد فى بعض الاحيان للحكومة او يديرها اناس لايمتون اليهم بصلة وتعوزهم الكفاية والمقدرة ثم الحماس ، ثم ان هؤلاء الجنود والضباط لم تكفل لهم الحرية التامة فى مباشرة اعمالهم الزراعية التى كانت تخضع لدورات زراعية سنوية تحددها الحكومة لتعيين المحاصيل والمساحات التى تزرع من كل نوع وتراقب تنفيذ هذه الــــــــدورة (diagraphe tou sporou) بعناية شديدة وتعاقب المخالف لهذه الدورة .

وهناك صعوبة اخرى كان الناس البطالمة منها ويشترك فى ذلك العناء الجنود والضبـــاط والمصريون على السواء ، فالشكوى عامة من عدم امانة الموظفين وقلة كفايتهم واستغلالهم لنفوذهم ومناصبهم وضاعف من هذا كله تلك الصعوبات التى كان يسببها لهم ذلك الاقتصاد الموجه (economie= dirigée) الذى فرضه عليهم ملوك البطالمة وكان عنوانا بارزا على حكم ملوك البطالمة ، فلكم اضطروا الى ان يبيعوا محاصيلهم والحبوب التى تجود بها اراضيهم ، لا فى السوق العامة الحرة ، وانما للحكومة وبالسعر المقرر فى تعريفة محددة .

<u>ملاك الاراضى واصحاب المساكن</u> : هناك من الادلة مايثبت وجود طبقة من ملاك الاراضـى واصحاب البيوت والمساكن على درجة مرموقة من الغنى والثراء وذلك بخلاف اولئك الضبـاط وموظفى التاج والجنود المستوطنين الذين كانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش . ويمكـن استنباط هذا كله من بعض مظاهر النظام الاقتصادى السائد فى مصر البطلمية ولعل المصدر المهم الذى نستقى منه اهم معلوماتنا عن ذلك هو تلك الوثيقة البردية الشائقة المعروفـــة بالقوانين الضريبية (Nomoi Telonikoi) التى صدرت فى منتصف حكم بطليموس فيلادلفوس ٢٥٩ ـ ٢٥٨ ق.م . والجزء التمهيدى فيها يمثل أهم القوانين المنظمة لجباية الضرائب

على الاطلاق وهو القانون المسمى (Nomos telonikos) وهو يوضح كيف كانت تطرح الضرائب في مزادات سنوية وكيف كان يجرى فحص الراغبين في الاشتراك في هذا المزاد بواسطة مدير الشئون الاقتصادية او (oikonomos) وكيف كانت تبرم العقود مع من يرسو عليه اكبر عطاء وكيف كان يتم الحصول على الضامنين ذوى العقار وكيف كان المتزايدون افرادا كانوا أم جماعات تضم شركاء (metochoi) يمثلهم مفوض (archones) وهكذا اتخذت الحكومة في ظل هذا القانون جميع الضمانات التي تكفل الحصول على المبالغ التي تعاقدت عليها وهناك وثيقة بردية اخرى شبيهة ، تنتمي لمصر تارخ هو عصر الملك بطلميوس الخامس (ابيفانيس) او المتجلي صدرت في عام ٢٠٣ - ٢٠٢ ق.م ، وهي تحتوي على مجموعة من اللوائح الخاصة بجباية الضرائب بواسطة الملتزمين في زمن القانون الكبير ... وقد نشرت هذه الوثيقة بواسطة العالم الالماني فلكن عرفت بالاسم الاتي (Wilcken, U. p.E.112)

ومن المعلومات التي نستمدها من هاتين الوثيقتين بالاضافة الى ما وصل الى علمنا من المعلومات المستمدة من وثائق اخرى عديدة متصلة بموضوع نظام العقود في جباية الضرائب (What) نرى كيف نظمت الحياة الاقتصادية في مصر على هذه الركيزة باعتبار ان نظام الالتزام هذا كان يمثل احد الركائز الاساسية في كيان الحكم البطلمي .

ونود في هذا المقام ان نفرد له فصلا قائما بذاته لما له من اهمية بالغة في كيان الجهاز الادارى وفي مستقبل الحكم البطلمي ، وتنوعت به مظاهر هذا الحكم وكان عنوانا بارزا في الحضارة السائدة في مصر البطلمية .

نظام الالتزام

سبق ان قلنا ان نظام الحكم البطلمي في مصر كان يقوم على أسس ثابتة ودعائم قوية وهذه كان من اهمها الوضع الاقتصادي والعمل على استغلال موارد البلاد بطرق مفضلة واساليب محسنة ، وكان من اهم الركائز التي كان يعتمد عليها اقتصاد البلاد بالدرجة الاولى والتي بفضلها اتى بخير الثمار ، نظام الالتزام (tax - farming system)

الذى جلبه البطالمة من بعد اليونان ثم ادخلوا عليه الكثير من التحسينات ووضعوا الضمانات لكى يكفل له النجاح دون اى عبث او استغلال ، لا من قبل الموظفين ولا من الملتزمين انفسهم او حتى طوائف الاهالى الذين كان عبء الضرائب يقع على كاهلهم .

ولما كان نظام الالتزام هذا يمثل شقا مهما فى حياة الناس فقد حرص المؤلفون على أن يفردوا له فصولا وصفحات مطولة في كتبهم ، وكان من السباقين فى هذا المضمار الانسة " كلير بريو فى كتابها المشهور الاقتصاد الملكى صفحات ٤٥ حتى ٥٩

Claire Préaux , Economie royale des lagides (1939)

ثم م. روستوفتزف فى كتبه ومؤلفاته العديدة ومنها الكتابان الاتيان

M. Rostovtzeff , Social & Economic History of Hellenistic World

الصفحات من ٢٢٧ حتى ٢٣٠ ثم الضيعة الكبرى فى مصر ص ٤٣ ومابعدها A large Estate in Egypt

حيث قال : اما انه كانت توجد طبقة من ذوى اليسار تمثل اصحاب الاراضى والعقار ، بخلاف الضباط وموظفى الدولة والجنود الحائزين لأنصبة من الاراضى تتفاوت رقعتها بحسب المرتبة العسكرية التى كانوا يشغلونها وقد عملت الحكومة على توطينهم واسكانهم فى انحاء البلاد بما هيأته لهم من تكنات ، فهذا امر قامت الادلة والبينة على صحته . ولم يكن هذا المعنى مستمدا من الادلة التى سقناها من قبل ، وانما كذلك من الطابع الخاص الذى اتسمت به الحياة الاقتصادية فى مصر . والمصدر الذى نستقى منه معلوماتنا عن ذلك هو وثيقة هائلة او بالاحرى بمقدمة تلك الوثيقة التى عرفت بقوانين الدخل لفيلادلفوس . وتحتوى هذه المقدمة على القواعد العامة الخاصة بنظام الالتزام المؤقت فى جباية الضرائب (Wnai) وهذا القانون معروف بقانون الجباية . nomos telonikos وله الافضلية المطلقة والاسبقية فى التنفيذ (protopraxia) على غيره .

ثم هناك الوثيقة الاخرى التى سبق ان نوهنا عنها وهى تماثل هذا القانون فى انها تعرض لنظام الالتزام ولكنها ترجع الى مابعد ذلك بنحو ستين عاما اى (٢٠٣-٢٠٢ ق.م.) اذ صدرت فى عهد بطليموس الخامس المعروف بالمتجلى او الظاهر اى ابيفانيس .

وتحتوى هذه الوثيقة على طائفة من التعليمات الخاصة بالتزام جباية الضرائب بواسطة المزارعين الملتزمين كانوا قد تعاقدوا مع الدولة على جبايتها فى اقليم اكسيرنخوس (البهنسا) (Wilcken,U p.Z.112) وحصيلة العائدات التى يمكن ان تستغلها من هذه الوثيقة يمكن استكمالها من عديد من البرديات الاخرى التى جاءت بها اشارات ولمحات عابرة وفى احيان كثيرة مفصلة عن نظم الالتزام فى صورته الصارمة بجميع مراسيه ومساوئه فى كل مكان يكتنفه من صعاب ولعل ارشيف زينون وما كشفه من اوراق البردى فى هذا الارشيف من اوجه النشاط التى يفعلها زينون نفسه ورفاقه فى هذا المضمار وكيف انه عندما تقاعد فى صدر حكم بطليموس فيلادلفوس الاول اشتغل بهذه المهنة وبذل فيها جهودا مضنية ليجنى لنفسه ربحا هو وشركاؤه •

وانا لنعرف كيف كانت الحياة الاقتصادية فى مصر البطلمية منسقة وكيف كانت الحكومة البطلمية المستنيرة على عهد فيلادلفوس تولى جل عنايتها وتخصها بأكبر قسط من التنظيم والادارة • فكانت هيئات الموظفين العديدة التى تؤلف الكتل البشرية من الناس بين مواطنين واجانب يعملون جميعا فى تناسق اما كمنتجين ومستهلكين ودافعى ضرائب او موظفين وعسكريين وبعض الاخيرين كانت لهم صفة مزدوجة ومصالح مشتركة بين هذا او ذاك وكان لفريق من هؤلاء المنتجين تربطهم بالحكومة عقود من مقتضاها المساهمة بأكبر نصيب فى هذا الثراء العريض الذى توافر للملك وهذه الموارد التى كان يقدمها هؤلاء لخزانة الملك (to basilikon) ولبيوته المالية ومصارفه الجديدة (trapezai) ولمستودعاته ومخازنه المنتشرة فى ارجاء البلاد (Thesauroi) وكان يكلف بجمعها والمساهمة فى تزويد الملك بها آلاف مؤلفة من الموظفين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم • وادنى هؤلاء جميعا من حيث المنزلة اولئك الجباة الذين كانوا يقومون بالتحصيل الفعلى ويعرفون بالاسم الاتى (logeutae) واحيانا يطلق عليهم (praktores) وجميع هؤلاء الموظفين كانوا مسئولين امام الملك عن الوفاء بما عليهم من التزامات واردة فى العقود المبرمة التى كانت تحكم زراع الارض الخاضعين للضريبة (hypoteleis)

وكذلك مختلف الطبقات الاخرى من عامة الناس ممن ارتبطوا بصورة او باخرى بايرادات الملك وموارد دخله اما الملتزمون فيسمي هؤلاء باليونانية (hoi Telonai) ويمثلون طائفة مهمة للغاية وحلقة اتصال وثيق بين دافعي الضرائب والسلطة المشرفة على جباية الضرائب ، ولذلك ينبغى ان نخصها بشيء من العناية وان نتعرف على مدى جهودها واوجه نشاطها وماكانت تتردى فيه من صعاب ومشاكل فى هذا الخضم من مجتمع ذاخر وخليط مؤلف من امشاج تمثل شتى العناصر وتتلاطم فيه المصالح . وفى هذا النظام الضريبي المتوازن ، الذى كان فى احدى كفتيه دافعوا الضرائب من ناحية ، بينما فى الكفة الاخرى كان الجباة ، استطاع البطالمة ان يدخلوا او بالاحرى ان يستخدموا طرفا ثالثا ، يتألف من اناس لهم صلة وارتباط وصالح بتحصيل الايرادات . وهؤلاء كانوا يعرفون بالوسطاء ، يعملون كأفراد او كجماعات ، ممثلة بعضها فى شركات ، لها دور مخصص وملحوظ فى تحصيل ايرادات الدولة وموارد دخلها . وهؤلاء جميعا كان يطلق عليهم الملتزمون ، تربطهم عقود مبرمة تكفل لديهم قواعد ثابتة ، فأملاكهم وكذلك املاك ضامنيهم مسئولة بسداد ماعليهم من التزامات قبل الحكومة .

وفى بلاد اليونان كان امثال هؤلاء الوسطاء هم الذين يقومون بالفعل بتحصيل موارد الدخل والايرادات العامة ، فكانوا يدفعون للدولة (اى للمدينة الدولة polis) مبلغا اجماليا محددا يخول لهم الحصول على حق تحصيل مورد معين من موارد الايرادات من دافعى الضرائب وغالبا مايشتطوا فى ذلك . اما فى مصر فالحال غير ذلك ، فمهمة التحصيل الفعلى لموارد الدخل كانت من الاعباء الملقاة على عاتق موظفى الدولة انفسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بتوريد مايصل الى ايديهم من مبالغ او ايرادات عينية الى المصارف الملكية او المخازن والمستودعات المنتشرة فى ارجاء البلاد . وعلى ذلك كان يقع على عاتق الملتزمين فى مصر والحالة هذه دور ضئيل جدا فى عملية الجباية الفعلية ، وانما كانت لهم فى الوقت نفسه مصالح حيوية فى عملية الجباية هذه ، ولهذا قاموا بدور فعال فى الرقابة على كل من المنتجين والزراع الذين يساهمون فى الايرادات

وعلى المحصلين المكلفين فعلا بجبايه الضرائب وذلك نظرا لانهم بمقتضى العقود التى ابرموها مع الملك قد ضمنوا له الوفاء بالتزاماتهم ووقعوا على تعهد بذلك ، مؤداه ضروره الوفــاء بالمطلوب وهو التحصيل الكلى لاحد موارد الدخل ومعنى هذا تقديم قدر معين من المحاصيل والبضائع او مبلغ معين من المال . وفى حاله العجز عن الوفاء بهذا الالتزام فانهم ومعهم شركاؤهم (   ) والضامنون لهم (   ) يطالبون بان يوفوا بالعجز كاملا غير منقوص من مواردهم الخاصه . وفى حاله الاعسار والعجز عن الدفع يصبح مال الاملاك الضامنه والمرتهنه من قبل الملتزمين المتعاقدين الضامنين ، الى الحكومه التى كانت تستولى عليها وتقوم ببيعها وفاء للمطلوب . اما اذا سارت الامور وفق ما كانوا يشتهون واسفر التحصيل الفعلى عن حصيله من المطلوب التى تحقق فائضا (   ) فان هذا الفائض يصبح من حقهم وفضلا عن ذلك فانهم كانوا يتسلمون من الحكومه مكافأه او عمولة (   ) اوراتها (   )

وهكذا كان النظام البطلمى الخاص بالتزام جبايه الضرائب يقوم فى اساسه على قواعد يونانيه مجلوبه من بلاد اليونان . ويعتبر فى صورته التى طبق بها فى مصر نظاما رائعا وفى ليلة ابهما دليل على مبلغ الحذق والبراعه التى ارتبها ملوك البطالمه ثم حين استحدثوا هذا النظام باستخدام اولئك الوسطاء ليكونوا حجابا فاصلا بين دافعى الضرائب من ناحيه وبين الجباه الفعليين من ناحيه اخرى اقاموا سياجا يحمى مصالحهم على نحو دل على مقدره وكفايه فائقه فاصبح هناك فئتان هما الجباه والملتزمون — كلاهما مسئول بدوره امام الملك ولذا كان كل جانب يتفانى فى بذل الجهد فى سبيل الحصول على الدخل والايراد المطلوب من دافعى الضرائب ولما كانت مصالح الفئتين فى هذا الخصوص واحده ومتطابقه فان تعاون الطرفين جعل مــن المستحيل من الناحيه العمليه ان يفلت احد من دافعى الضرائب من الوفاء بما عليهم من التزامات ومن ناحيه اخرى فان اى تعاون او ايه محاوله للغش والتدليس من جانب الموظفين كــان من

مصيرها ان تؤثر تأثيرا بليغا على صالح فئة الملتزمين ـ وعلى ذلك مع هو لا الملتزمون الى ان يكونوا بمثابة الرقباء الذين وقفوا بالمرصاد ليكونوا عوائق فى سبيل اكبح جماح اولئك الموظفين . وكان الخاسرون بالطبع فى هذا التنظيم هم دافعوا الضرائب ، فكل جانب من الموظفين والملتزمين ، كان مرتبطا بالتزام لابد ان يوفيه حقه ، وان يتم تحصيل الدخل برمته ، والا تعرض لعقوبة شديدة توقع عليه . وسواء انجم عن ذلك فى نهاية تلك العملية ان دافعوا الضرائب قد خروا صرعى ومحطمين تحت وطأة هذا العبء ، ام نجوا من ذلك الخسران فهذا امر لا يعنيهم فى كثير او قليل .

اما بالنسبة للملك ، فان هذه النتيجة كانت من الامور التى تشغل بال الملك ، ولذلك كان يصر دائما على الا تسوء معاملة دافعى الضرائب ولا تسلب منهم اموالهم ولا يقع شئ من الغش او التدليس فى معاملتهم (١) . ولكن كقاعدة عامة ، كان الموظفون والملتزمون اذا ما ائتلفوا واتحدت جهودهم ، يصبحون اقوى من الملك ولا عاصم لدافعى الضرائب من بطشهم وطغيانهم .

وحرفة الملتزم ، مع كل ما كان يلازمها ويصاحبها من مخاطر ، كانت فى اغلب الظن مجزية بوجه عام . فكان هناك فى صدر عصر البطالمة كثيرون من الراغبين والمتهافتين على ابرام عقود الالتزام هذه . ولم يكونوا ليجدوا اية صعوبة فى الحصول على الضمانات والضامنين لالتزامهم هذا ، وكان عدد الملتزمين فيما يبدو كبيرا نسبيا ، وذلك لان موارد الدخل المعروضة فى سوق الالتزام ، كانت عديدة ، وان لم يكن من اليسير تحديد عددها . ومع ان ر... ثريا كان بين الحين والاخر فى وسعه ان يتعاقد على عدد من تلك الالتزامات فى وقت واحد ، وبذلك يركز فى يديه شقا كبيرا من العمل ، مثلما فعل زينون فى اغلب الظن وبخاصة بعد اعتزاله العمل فى خدمة ابوللونيوس وزير المالية المشهور وقضائه العمر فى اقليم الفيوم او فى قرية فيلادلفيا بالذات كفرد عادى (parepidemos) بوصفه احد الاعيان المدنيين الغرباء ـ فالقاعدة العامة كانت تهدف الى تفتيت هذه العقود وتوزيعها بدلا من تركيزها فى نطاق ضيق . ولا بد

ان نذكر ان هذه العقود الخاصة بنظام الالتزام ، كانت تطرح في المزاد للتعاقد عليها محليا في نطاق اقاليم ومناطق لاتزيد على رقعة " النوم " (nomos) او القسم الادارى (المحافظة) ، ولاريب ان المعرفة الوثيقة بالاحوال والاوضاع المحلية القائمة كان من المستلزمات التى يحرص عليها اى ملتزم حصيف ، طامع فى ان يتحقق له شيء من النجاح فى تقدير الصافى من اى ضريبة يتقدم لالتزام بها والتعاقد عليها ذلك ان عمله كان ينطوى على بذل جهد لابأس به ويتطلب وجوده بشخصه فى عديد من العمليات التى لاحصر لها والتى لها ارتباط بمهمة التقييم للضرائب على الطبيعة وتحصيل المطلوبات المختلفة • وعلى ذلك كان اغلب الملتزمين من الرجال المحليين ، ممن توافرت فيهم المعرفة الوثيقة من ناحية بدافعى الضرائب ثم بالمحصلين لها • وفوق هذا وذاك كان هؤلاء الملتزمون جميعا من الشخصيات الثرية " المليئة " ومن رجال الاعمال الذين لهم ارتباطات واتصالات واسعة المدى وكانوا فى المقام الاول مكلفين بالاشتراك مع الضامنين بتقديم مايلزم من الضمانات التى كانت فى اغلب الاحوال تتخذ شكل عقارات واملاك من بيوت ومساكن وكروم وحدائق وبساتين واراضى •

وهكذا كان الالتزام فى مصر يعتبر دعامة تمثل نظاما فيه من الكفالة والضمان للحقوق مايؤمن الدولة على استحقاقاتها وليس نظاما للتحصيل حسبما وصفته الاستاذة كليربرو فى كتابها المشهور فى الاقتصاد الملكى الملوك البطالمة والبطلميين ص ٤٥ اذ قالت انه مجرد نظام لحفظ الضمانات وليس مقصورا على كونه اسلوبا للجباية والتحصيل

" une institution de garantie, non une institution de perception"

وكان يعتبر محور ارتكاز مهم بل بالأحرى " ترسا " من تروس الجهاز الحكومى ودعامة اساسية فى دولاب الاقتصاد البطلمى • ومع ذلك فالجهاز الادارى الموكل بتحصيل موارد الدخل كان تاما ومستكملا من غير نظام الالتزام هذا ولذا يمكن ان نقول ان نظام الالتزام البطلمى يمكن اعتباره جهازا رقابيا ودخيلا ، وهو اشبه مايكون بقلم الكتاب فى اى ديوان او مؤسسة ، ان صحت هذه التسمية • وهذا النظام كما قلنا ، مقتبس من بلاد اليونان

فى عصرها الكلاسيكى واثر ديمتريوس فاليريوس (Demetrius phalerius)
الاثينى والذى كان يعتبر المشرع الاول للملك بطليموس الاول وبين ولذلك كان اشتقاقه
راجعا الى اصل آتينى بالتريب • ولم تكن مصر الفرعونية تعرف شيئا عن نظام الالتزام ،
نظرا لان الاقتصاد العينى والتبادل بالمقايضة كان هو السائد فيها ونظام الالتزام
ليس له اى معنى او مقتضى فى بلد لايعرف شيئا عن النقد وتداول العملة فهــــو
بطبيعته وجوهره مرتبط ايما ارتباط بالاقتصاد النقدى ووثيق الصلة به • وعلى ذلك
فهذا النظام الذى كفل جميع الضمانات بتأصله وتغلغله فى الاقتصاد الملكى ، اصبح
له معنى جديدا ولم يعد يحتفظ من اصله اليونانى سوى بالشكل والمظهر فقط •
ونظام الالتزام فى صورته البطلمية له مبرراته وهو لاول وهلة لايعدو ان يكون جهازا
يكفل جميع الضمانات ضد الاخطار المالية وهو من بعض النواحى والاعتبارات يتناول
موضوع القروض (daneia) التى كانت الدولة تقدمها للمزارعين على مـدى
آجال قصيرة بضمانات وكفالات اورهون على الانتاج المرتقب ، فتضمن بذلك الدولـة
الوفاء بمطالبها • واحتياجاتها ومصروفاتها من الاموال السائلة • ونظام الالتـزام
فى مصر البطلميـة يمكن تفسيره على انه كان ينطوى على البحث عن ضمان مالى اضافى
وله سبب آخر يبرره كذلك وهو ان البحث عن ضمان هو فى الحقيقة مطلب هام جــــل
وخاصة فى جميع الحالات التى كانت تؤدى فيها الضرائب نقدا ويستحق دفعها بالعملة
وذلك فى بلد كان تداول العملة حديث العهد فيه وبخاصة ان الثروات الخاصـــة
لدى دافعى الضرائب كانت فى اغلب الاحوال متواضعة ولاتحقق عند التنفيذ الفعلــــى
وتسديد الديون اى مكاسب يعتد بها •

والآن يجدر بنا ان نوجز العناصر الاساسية فى تلك القوانين الخاصة بنظـــام
الالتزام ، حتى نتبين اهمها والاهداف الحقيقية التى كانت الحكومة البطلمية ترمى اليها
(١) كان بيع عقود الالتزام هذه يجرى باسم الملك صراحة وبلا مواربة اذ ان تلك العقود
كانت تستهل بكلمة يونانية هى (puloumen) اى " نحن نبيع " فى صفة المتكلم

الجمع وهو على لسان الملك وذلك فى مزاد علنى •

(٢) كان الاعلان عن موعد البيع ومايرفق به من دفتر او " كراسة " شاملة لقواعد الالتزام باللغتين اليونانية والمصرية (اى الديموطيقية) لابد من تعليقة فى مكان علم الفترة زمنية محددة قبل اجراء المزاد بمدة بحيث يسمح للراغبين فى الدخول فى المزاد بأن يدرســـوا موارد الدخل ومايمكنه ان يأتى به من ثمار ناجمة عن الموارد المعروضة للبيع فى المزاد • وعلى ذلك تكون البيانات الاحصائية ميسورة وفى متناول المتزايدين للاطلاع عليها •

(٣) كان يتعين على كل من يرغب فى الاشتراك فى هذا المزاد ، سواء اكان اصيلا لم شريكا فعليا • ان يسجل اسمه واسم شركائه لدى مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) وان يذكر الجنسية التابع لها • واذا كانت الغالبية العظمى من اليونانيين هم الاشخاص الذين توافرت لديهم المقادير الكافية من رؤوس الاموال التى تخول لهم ان يصبحوا ملتزمين او شركاء فى احد المشروعات التى لها اتصال بنظام الالتزام ، فهناك فى الوقت نفسه مصريون ساهموا بنصيب وافر فى هذا المضمار • ولسنا نعرف سوى طائفتين كان محرمـــا عليهما القيام بعمل الملتزم وهما الموظفون والعبيد ، فكل من ينتمى لإحدى هاتين الطائفتين عليه ان يتنحى ويبتعد عن المشاركة فى هذا المضمار ، لعدم توافر الاهلية القانونيـــة لدى اى منهما ، وعلى ذلك لم يكن الموظف او العبد يستطيع ان يتولى عمل الالتـــزام لا بالذات ولا بالواسطة وذلك بنص القانون الوارد فى وثيقة الالتزام وقانونه وانه لمـــن خطل الرأى ان يدهش الانسان ويستولى عليه الحيرة اذا ماوجد ان الاعتبار القومى والتحيز الطائفى لم يكن له شأن فى سير النظام الذى كان يجرى عليه الالتزام ، فليس هذا الا ظاهرة اخرى دالة على ان الافكار المنطقية على نفوس البطالمة لبعض لدتهم وايثارهم للنعرة القومية واخذها فى اعتبارهم ، كانت الرائد لهم فى توجيه السياسة البطلمية فى اضيـــق الحدود وبصورة ضئيلة •

والصك او العقد المكتوب كان يسبق المزاد ويكشف السبيل امام المشرفين على الجهاز الادارى فى تسيير عملية البيع • على ان نظام المزاد انسود ثم ماكان يجرى احيانا مـــن

اعادة فتح باب المزايدة مرة اخرى فهذا حق مكفول لمن يشاء ـ كل هذا تناوله بلا ريب
شيء كثير من التغيير والتبديل على مدى القرون الثلاثة من عهد البطالمة • والدليل
على ذلك ما جاء في وثيقة باريس في العمود الثالث الاسطر ١٤ حتى ١٦ (انظر
Wilcken, U.P.Z.112) اذ قيل انه عقب رسو المزاد على شخص ما ، استؤنف
التزايد وفتح بابه من جديد في صالة المزاد نفسها ، وتقدم شخص آخر بعطاء اعلى
ولكن هذا العطاء الجديد لم يكن يسمح به بأقل من زيادة ١٠% على السعر الذى
رسا من قبل على صاحبه الاول • اما هذا الذى رسا عليه المزاد ، فكان مكلفا بأن يقدم
الضامنين الكفيلين بضمان الثمن الذى استقر عليه المزاد • وكان على هؤلاء الضامنين
ان يقدموا املاكهم لتكون رهنا للوفاء بهذا الالتزام • وكان يدعم هذا الارتباط ويقويه
احيانا قسم ملكي (hórkos basilikós) يؤكد ان هذه الاملاك المرهونة خالية
من اى التزام او حقوق عينية عليها •

ومنذ الوقت الذى كان يبرم فيه عقد الالتزام ، اصبح الملتزم مسئولا عن الوفاء
بما استحق عليه من ثمن يدفعه الى الملك • وبالطبع كان الملك يتخذ من جانبه جميع
الاحتياطات التى يخولها القانون قبل الضامنين الكفيلين بالوفاء بالضمان الاصلى ،
وهناك ضمان آخر الا وهو اجراء التحفظ والحجز على المبالغ التى يقدمها دافعوا
كان التنظيم البطلمى يختلف اختلافا بينا عن تلك التنظيمات
الضرائب الى المصرف لحساب الالتزام القائم • وفي هذا المجال بالذات ، نجدها
في بلاد اليونان في العصر الكلاسيكى • ذلك ان طريقة دفع الضرائب لم تكن متروكة
لحرية الاختيار ، فليس دافع الضريبة ولا الملتزم بحر فيما يتصرف في هذا الصدد • وهاهو
الدور الاخير الذى كانت تقوم به المصارف ، باعتبارها اجهزة خاضعة لرقابة الدولة •
ذلك انه لما كانت جميع اوجه النشاط الاقتصادى في مصر خاضعة لضرائب منوعة تقوم
الحكومة بجبايتها وكانت تلك الضرائب يجرى تحصيلها عن طريق نظام الالتزام ، فمصير
جميع المبالغ التى كانت ترد من التجار المدينين او من الصناع والفلاحين كان حتما
المآل الى ان تودع في خزانة تلك المصارف ثم يتم التحفظ والحجز عليها لحساب الدولة

وبذلك يستطيع الانسان ان يتصور الى اى مدى كان هذا البحث عن الضمانات يصـــل بصاحبه ويبلغ مكانا يتورط به احيانا من مسلك ملتو يقترفه فى مثل هذه المعاملات . هذا فضلا عما قد يطرأ من تعقيد وشل تبعا لذلك فى الحياة الاقتصادية من مثل تلك الاجراءات التى كانت تتخذ مبررا لفرض الرقابة الملكية على اصغر الشرايين والاجهزة وهى المصارف والمستودعات التى كانت تتدفق اليها موارد الثروة والغنى كالسيل المنهمر باستمرار . وكان رؤساء المصارف يقدمون بيانات بحسابات الملتزمين كل شهر الى مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) المختص ، فيقوم هو بدوره بمراجعتها وعمل ميزانية تقريبية منها . وتلك هى احدى العمليات التى كان يطلق عليها كلمة رهيبة هـــى " التسويات " (dialogismos) والاشارة هنا الى عملية مرتبطة بديوان المحاسبات الخاص بالدولة ومركزه الرئيسى فى الاسكندرية . ولعل هذا كان يمثل اهم واجب مفروض على مدير الشئون الاقتصادية الذى كان عليه ان يفرد حسابا لكل قرية ، ان امكـــن ، والا فلكل توبارخية أو مركز ثم يبين فيه جميع موارد الدخل ، غير مقتصر على النقـــدى منه فحسب ، بل يضمنه الموارد العينية كذلك . وكان محرما عليه تحريما باتا وقاطعا ان يأخذ فى اعتباره عند عمل هذه التسوية الشهرية اعتماد اى مبالغ أخرى خلاف ما هو مدون فى سجلات المصارف . وجاء هذا التحذير فى وثيقة بردية مشهورة هى بردية تبتوس رقم ٧٠٣ (انظر السطران ١٢٤ ـ ١٢٥) وكان ينبغى ان ترسل الى الاسكندريـــة نسخ من الميزانية الشهرية ، ممهورة بالخاتم فترسل صورة منها الى وزير المالية واخرى الى المحاسب الاعظم (eklogistes) وهو رئيس ديوان المحاسبات فى الدولـــــــة (logistérion) . ولا يعطى للملتزم اى شئ من المبالغ المسلمة ، متى وجد ان هناك فائض فى نهاية العام ، الا بعد اتمام عملية التحصيل وانتهاء مهمتها ، ويكون ذلك بناءا على امر من وزير المالية .

وفى جميع الحالات التى ينشأ فيها عجز فى الحساب الخاص يبدأ سلسلـــــة من الاجراءات التنفيذية على الممتلكات الخاصة بالملتزم وعلى املاك الضامنين ومما

لا يستطيعون التنفيذ كان يقع على اشخاص هؤلاء وعلى ابدانهم فى آخر الامر • وفى الوقت نفسه نجد أ كذلك مسائلة الموظفين المفرطين • ووثائق البردى حافلة بالامثلة التى تحكى لنا ماكان يتخذ من اجراءات ومطالبات ووضع اليد او التنفيذ على الاشياء المرهونة • وهكذا و د الممون نفسه او الملتزم فى حالة من القلق والتهديد بمصادرة ممتلكاته المرهونة ، متى عجز عن الوفاء بالتزاماته قبل الحكومة •

ونظام الالتزام كان مثار نزاع هائل وموضوع جدل طويل ، اثقل عبء الجهاز الادارى واعيى كاهل الادارة المصرية ، ذلك ان المتقدمين فى المزاد كانوا يطمعون فى الفوز باعلان اسمائهم باعتبار انهم هم الذين رسا عليهم المزاد • وفى سبيل ذلك كانوا يبالغون عندما يتقدمون بعطاءات عالية القيمة للغاية فى تلك المزادات ، بل ان البعض منهم كانوا يعمدون الى مناورات دنيئة ، فيحاولون التعرف على محتويات العطاءات التى تتقدم بها منافسوهم او يعملون على اخفاء صك هذا العطاء والاوراق والمستندات التى تتقدم بها منافسوهم • وفضلا عن ذلك فالملتزم كان فى كثير من الاحوال يتقمص ثوب الدائن البغيض والانسان والماكر اللئيم • حقيقة انه كان يظهر فى احوال كثيرة بهذا المظهر ، ولكننا فى الوقت نفسه لايجب ان نتقبل هذه الصورة ونسلم بمضمونها فى يسر وسهولة اكثر من اللازم ، فالوضع ليس قائما على هذا النحو باستمرار ، خاصة وان الالتزامات وما ابرم من عقودها التى حققت ارباحا طائلة لم يظهر لها أثر ، لافى الاجراءات ولافى المكاتبات من جهات الاختصاص ولم تحتفظ لنا وثائق البردى بأى أثر لذلك • وانما تصل الى اسماعنا العيوب والمساوىء فقط ويتردد صداها فى الوثائق وفى محيط الجهاز الادارى بصورة اقوى مما نلحظه عن المحاسن •

على انه ليس من المحقق ان مشروع الالتزام هذا كان بصورته المطبقة فى مصر غير مجزى ، كما يبدو من تصفح الدفاتر الحاوية لتلك الاعباء الملقاة على كواهل الملتزمين ومن الدوسيهات الخاصة بموضوعات النزاع بين مختلف الاطراف والمشاكل المترتبة عليها ، واذا كان الملتزمون قد وجدوا الضامنين على اتم استعداد للتقدم بضماناتهم وفاءا

الخزانه الملكى وجميع ما ارتفق به من بيانات موقعا عليها من الملتزمين الذين يسلموا هذه الوثيقه من الهدال او التاجر الذى اشترى هذه النبذ المستخرج من الكرم وجاء فى هذا البيان الموافق توضيح بالمستحق او المطلوب وقيمه المسلم عينا وثمه بالنقد . وانحصر الخلاف فى ان القيمه سددت خطأ بوساطه المندوبين عن الملتزم لا عن عام ٢٨ كما هو المطلوب وانما عن عام ٢٧ مع ان تبعون هذا كان لديه ما يثبت انه كان قد سدد المستحق بالكامل عن العام السابق . وهناك مثل اخر مشابه فى مجموعه بردى زينون المحفوظه بالمتحف المصرى والتى نشرها العالم الهيدالنى ادجار (   ) وهذه الوثيقه رقمها فى الكتالوج الخاص بالمتحف المصرى ٥٩٢٣٦ .

ونظام الالتزام فى مصر البطالميه باعتباره نظاما مجلوبا من الخارج (من اثينا) وليس اصيلا نابعا من اعماق البلاد وبوصفه مجردا من حريه المبادره ووتوقفه موقفا سلبيا من حق الضمان ، كان مصيره فيما يبدو ، ان اخذ فى الذبول . وفضلا عن ذلك فلم تكن به تلك الخميره " الكفيله بان يحرز اى تقدم اقتصادى ولم يتوافر فيه العامل اللازم لضمان اى تطور سياسى . واذا ما قدر لاى من الملتزمين ان يحرز اى تقدم بتحقيق شىء من الكسب لنفسه او النفع والفائده لشركته فانه لم يكن فى الوقت نفسه بقادر على ان يجلب شيئا من السياده والقوه والجاه لنفسه . ويعد الشخصيه البارزه التى كان عليها من ابوللونيوس وزير الماليه فى عهد بطليموس فيلادلفوس وما كان ولعامله زينون من نفوذ مستمد منه فان بردى فيلادلفيا (فى ارشيف زينون) لا يزودنا باسم اخر لاحد كبار الماليين ممن خالفوهما فى هذه القريه المصريه وهى فيلادلفيا فى اقليم الفيوم وهى ملتقى اجناس بشريه من كل فج . وكما كان النقد اليونانى والمصارف اليونانيه مجلوبه من الخارج فان نظام الالتزام اليونانى المستحدث فى بلد كان النظام الملكى فيه شديد التركيز وحكومته البيروقراطيه قويه البأس ما لبث ان فقد اهميته بمضى الوقت واصبح يسير فى ركب الدوله ويخدم اغراضها . واستمر موجها فى مصر فى العصر الرومانى .

واذا صح انه كان لنظام الالتزام بعض التأثير على مستقبل المجتمع المصرى فان هذا الاثر كان على نحو غير ملحوظ وباسلوب غير مباشر • وكان من اولى متطلبات الالتزام وجود نظام دقيق للخدمات بصورة عاجلة ، يتوفر فيه نوع من الرقابة الدقيقة والاشراف التام ثـم جهاز لإمساك الدفاتر والحسابات وعمل التسويات على اوسع نطاق وبصورة مضطردة • واقتضت كل هذه الضمانات الاضافية وهذا الخوف المستمر وعدم الاطمئنان على وصـول الايراد سواء أكان لهذا مايبرره ام لا — نقول اقتضى هذا كله تكاليف باهظة واضطـر البطالمة ان يتكبدوا مصروفات كثيرة لتوفير كل هذه الضمانات ومع الشك باليقين بالحيلولة دون التردى فى ارتكاب اخطاء جسيمة من قبل الملتزمين او المتقعمين او الموظفين العموميين

وفضلا عن ذلك ، فان نظام الالتزام فى حد ذاته كانت له نتائج ايجابية باهرة وشائقة ، اذ كان له الفضل كل الفضل فى اقامة كيان تشريعى متمم للغاية • ففى مصر حيث كان الفرعون فيما مضى يرضى ويقنع بتخطيط ورسم قائمة بالضرائب الواجب تحصيلها من الاقسام الادارية المختلفة ، جاء الملك البطلمى فأظهر الحرص الشديد على تجديد وتصريف الالتزامات وصيانة الحقوق الخاصة بالملك وبالموظفين والملتزمين والضامنين ودافعى الضرائب • واستطاع بذلك ان يساهم فى انشاء قانون مالى بالغ الدقة ، بمـا حرص المشرع عليه من التدوين والتسجيل لعبارات وفقرات وبنود واشتراطات فى عقـود مركبة ، اجتمع فيها روح القانونين العام والخاص • فالالتزام لدى البطالمة كان اذاً ، بمثابة الوازع القوى والدافع لعجلة التشريع ثم انه كان بمثابة الخميرة التى بعثت الحياة فى الجسم البالى فأخذت تدب الروح فى السلطة التشريعية ، فهو على هذا النحـو يعتبر النواة والاداة الكفيلة بتطوير قانون الالتزامات وبلوغه غاية الكمال ، اذ كانت الدولة فى كل عام تقوم بتصفح قوانين الالتزام وتدخل عليها من التحسينات والتصويبات ماتراه لازما وبذلك استطاعت ان تنشىء احكاما خاصة واساليب جديدة فى اجراءات التنفيـذ وان تبتكر اشكالا وانواعا من الالتزام ، لم تكن معروفة او مقررة من قبل • ان قوانين الالتزام فى واقع الامر كانت بمثابة بواتق حقيقية ، انصهر فيها القانون وتشكل حتى اخذ صـورة

الصافية وشكله الدقيق .

اما فيما يختص بوثيقة الدخل وماجاء بها من قوانين الايرادات والضرائب ، فيكفى ان نعرف انه تمخض عنها الشيء الكثير . ومن هذا على سبيل المثال ذلك المنشور الدورى الذى اصدره وزير المالية الى العاملين من قبله فى الاقاليم ويلقب الواحد منهم بلقب ايكونوموس او المدير الاقتصادى وقد ورد نص هذا المنشور فى وثيقة بردية مشهورة فى مجموعة بردى " تبتونس رقم ٧٠٣ وهذا المنشور فى مجموعه هو عبارة عن تعليمات ادارية متداولة وارشادات مالية ونصائح غالية ، كان يسديها وزير المالية لموظفيه فى الاقاليم ليكونوا يقظين على الدوام ولكى يحسنوا معاملة الناس ويرفعوا عنهم ما امكن على الا يتركوا احدا يفلت من اداء ماعليه من التزامات مالية وضريبية . ويقوموا باحصاء الماشية والاغنام فى فصل الفيضان من كل عام (شهر مسرى) . وجميع هذه التعليمات ذات طابع مصرى فى مادتها وروحها الانسانية وليس لها بحال من الاحوال طابع قانونى وانما نستشف منها ونلمح من ثناياها مبلغ ماقدمته المالية البطلمية عن طريق ماابتدعته من نظم وقواعد فى الالتزام وما ادخلته من تطور وتقدم فى صياغة القانون وتبويبه . على ان هذا القدر الذى ساهم به نظام الالتزام كان له تأثير عظيم فى مجالات اخرى . وقد بين لنا كل من رستوفتزف فى مقاله عن تاريخ الالتزام والعالم الفرنسى م . كاركوبينو (Carcopino) فى مؤلفه عن قانون هيرون الثانى والرومان ، مبلغ ما يدين به العالم الرومانى للقوانين الخاصة بالالتزام وهى التى اصدرها بطلميوس فيلادلفوس ويرجع الفضل فى انتقالها لهم الى هيرون الثانى الصقلى .

وخلاصة القول ان اولئك الذين يشوقهم هذا الموضوع ويروق لهم البحث فى اصول القوانين ومبلغ تطور النظم وتغيرها وتأثيرها بغيرها ، يجدون مادة خصبة فى نظام الالتزام والمصير الذى آل اليه فى المملكة البطلمية . وقد اعتبر رجال القانون المهتمون بالتاريخ القديم فى ضوء ما اسفرت عنه دراسة اوراق البردى من امثال العالم الالمانى " مايـر " (Meyer) والعالم البولندى المتأمرك تاوبنشلاج (Taubenschlag) والعالم الالمانى " زايدل " (Zeidl) انه يمثل ظاهرة تستدعى شيئا كثيرا من الانتباه وفيه مادة شائقة للغاية .

الزراعة ونظام الاراضى فى مصر البطلمية

كانت الزراعة هى الدعامة الاولى التى كان يرتكز عليها الاقتصاد البطلمى • وكانت البلاد محظوظة فى هذا المجال فالمناخ بديع وموارد المياة متوفرة فى السنين العادية وبخاصة اذا ماانتظمت واحكم توزيعها فتصبح كفيلة بضمان محصول وفير• ثم ان تربة البلاد اشتهرت بخصوبتها الفائقة وصلاحيتها لعدد كبير من مختلف المحاصيل ومن ذلك الحبوب على مختلف انواعها والخضروات واشجار النخيل والسنط والاثل والصفصاف ومختلف الاعشاب وشتى النباتات التى تستخرج منها الزيوت من كتان وزيتون وسمسم وعصفر وخلافه اما اشجار الفاكهة والكروم والتوت فلدى مصر منها انواع كثيرة • وهكذا كانت مصر فى نظر بقية العالم القديم جنة تفيض بالثراء والخير الوفير ،وهى هبة النيل"ابو البركات " كما كان يطلق عليه قديما فأسبغ عليها وعلى شعبها خيراته فى كرم وسخاء كل عام•

وكان طبيعيا ان يعنى كل حاكم على مصر ،بل اول شئ ينبغى ان يعنى به — هو شئون الزراعة وتوزيع المياة و تنظيم ذلك فالزراعة فى مصر كانت من اولى مستلزماتها العناية الشديدة بموارد المياه ووضع النظم الدقيقة للمحافظة على المياه بصفة عامة وضمان حسن توزيعها وبخاصة عقب الفيضان وانحسار المياه التى غمرت الاراضى على جانبى النيل وقت الفيضان • وتطلب هذا عينا ساهرة واشرافا بعيد المدى على مجرى النيل وقنواته وسدوده ثم تنظيما دقيقا للايدى العاملة من اجل تشييد عدد من السدود وحفر شبكة من القنوات لتوصيل المياه الى المناطق البعيدة عن مجرى النيل الاصلى • وكان تنظيم العمل فى هذا المجال يتطلب احيانا اللجوء الى السخرة واكراه الناس (l#iturgia) جثمانيا وماديا ومعنويا — فالشعب برمته ومعه دواب النقل يمكن ان يجرى حشده من اجل هذا الغرض اذ ذاك فى فصول معينة من السنة • هذا بعض ماكان يحدث فى مصر الفرعونية وبقى الوضع على اشده وبمنتهى الدقة فى مصر البطلمية ،بل وفى مصر الرومانية• ومما لاريب فيه ان البطالمة وبخاصة الملوك الثلاثة الاولين اخذوا النظام الفرعونى وطبقوه بحذافيره ثم زادوا عليه من حيث التنظيم والرقابة واستخدام الاساليب الهندسية التى

استحدثوها فى هذا المجال وفى غيره من المنشآت العامة ، فكانت التحسينات والتصويبات التى ادخلها اليونان كفيلة بتحسين احوال مصر زراعيا واقتصاديا بدرجة ملحوظة ، اشاد بها الكتاب اليونان المعاصرون اذ ذاك ومن جاءوا بعدهم فى العصر الرومانى • على اننا لانعرف على سبيل اليقين الى اى مدى ولاى اى اتجاه ساروا فى هذا السبيـــل ولا متى تنكبوا عن السير فى خطى التقدم الزراعى • وكل مانعرفه انه فيما يختص بنظـام الرى ورث البطالمة عن اسلافهم الفراعنة اسلوب المحافظة على مراعاة هذا النظام بدقـــة وانهم كانوا يلجأون فى تحقيق ذلك الى العمل الاجبارى الموسمى ، يفرضونه على الشعب برمته فى سبيل الصالح العام • ولكنهم كانوا اسوة بالفراعنة ، يمنحون بالطبع بعض الاعفاءات عن هذا العبء لبعض الافراد والطوائف ، فكانت ابيات معينة تتمتع بالامتياز الذى يخول لها ان تدفع مالا بدلا من اداء هذا العبء • وفى اغلب الظن ان مثل هذا الامتياز كان يسمح فى العصر البطلمى على الوافدين من اليونان ومن على شاكلتهم اما بصفة جماعية او لطوائف معينة منهم وبقى نفس هذا الامتياز مرعيا بالنسبة للكهنة ورجال الدين •

تسجيل الاراضى وانواعها : (geometria)

هناك شئ ضرورى وتمهيدى يعتبر من المستلزمات الواجبة لاى عمل زراعى جاد اومثمر وقد ورث البطالمة هذا الشئ عن اسلافهم الفراعنة – ذلك هو مسح الاراضى فى جميع انحاء مصر وتسجيلها بدقة وهذه العملية كانت تعرف بالاسم اليونانى الاتى . geometria وكانت تتم بدقة وعناية فائقة كل عام • وسجلات الاراضى هذه كانت تتجمع لدى كتبة القرى فى العصر البطلمى وهم الذين كان يطلق عليهم (Komogrammateis) ولدى عمد هذه القرى وهم الذين كانوا يعرفون بالاسم الاتى (Komarchae) وكانـــت عملية المسح والتسجيل هذه تخضع لاشراف دقيق فيه تقص للحقائق على اوسع نطاق وبشتى الوسائل وهذا التقصى هو مايكنى له فى مصر البطلمية والرومانية (episkepsis) يباشره كبار الموظفين من امثال الكتبة الملكيين (basilikoi grammateis) وكانت هذه السجلات فى تجدد مستمر فيتم هذا التحديد سنويا وتحظى هذه العملية

التسجيلية بعناية فائقة ٠ وبالطبع كان الغرض من هذه الانواع المختلفة في مراحل عمليات التسجيل والمسح الشامل هو الابقاء على سجل وا ؛ بالارض الصالحة للزراعة والتعرف على معدن كل قد : عة منها — وهذا امر يستوجب التدوين والتسجيل اولا بأول وهو عرضة للتغيير والتبديل من عام لآخر ويتطلب معرفة اولئك الاشخاص المسئولين في كل عام عن الوفاء بمهمة الزراعة في كل رقعة من ارض مصر ومهمة حصر اولئك الاشخاص يأتي في المقام الاول بالنسبة للحكومة ، فهذه الرقعة او تلك اما ان تكون منزرعة (esparmené) او غير منزرعة واما ان تكون قد غمرتها مياه الفيضان السنوية بشدة (embrochos) او تكون جدبة (abrochos) او خرسة (chersos) على حد قول اهل الصعيد في الوقت الحاضر ٠ والمعنى المستفاد من هذا كله ان رقعة ما من ارض مصر البطلمية قد تكون في حالة صالحة تماما لزراعتها فتنبت نباتا حسنا وتوفي ماعليها من الالتزامات المستحقة للملك البطلمي (to apégmenon) واما ان تكون عرضة لان يجري عليها تخفيض واستنزال في الاي . ار او قد لاتخضع لاي ايجار عليها في مصر البطلمية والرومانية (Hypolgos) ٠ وهكذا كان يجري تصنيف الاراضي بحسب حالتها ووضعها بالنسبة لمياه الفيضان وصلاحيتها للزراعة في كل عام وهذه مهمة حيوية تمس ارزاق الناس وميزانية الحكومة السنوية ، فلا عجب ان اولتها الحكومة البطلمية جل عنايتها وكانت هذه القوائم بما اشتملت عليه من نتائج مسح الاراضي في زمام القرى المتناثرة ، تبوب من وجهة النظر المالية بواسطة حكام المراكز والدساكر (toparchoi) ثم ترسل بدورها الى موظفين في حواضر الاقسام الادارية يعرفون بالاسم الاتي النومارخيين (nomarchai) وهم المختصون بالاشراف على زراعة الارض الملكية ٠ وكان هؤلاء بدورهم يقومون بارسال هذه التقارير المتعلقة بالاقسام برمتها الى الاسكندرية وبها دواوين عديدة للسجلات ، فتتخذ هذه القوائم اساسا جوهريا في اعداد قوائم الخراج السنوي وكشوف الضرائب المطلوبة ٠

أنواع الاراضى

اذا ماتوفرت لـ رض وسائل الرى وتم حصر الاراضى ونوعيتها بعناية فائقة فانهـــا كانت توكل الى القائمين بزراعتها من المصريين او اليونان الوافدين والمنتفعين مــن جند وضباط مستوطنين وغيرهم من اصحاب الحظوة لدى الملك البطلمى وكبار رجـــال الدولة البطلمية • ومنذ اقدم العصور كانت هناك انواع شتى من النظم المرعية فى حيازة الارض ولااقول تملكها ـ فهى اساسا كلها ملك للملك الفرعونى وبالتبعية لورثة الفراعنـة وهم ملوك البطالمة وهذه الحيازة او تملك الارض كانت تتوقف على مركز الاشخاص المسئولين عن زراعتها وعلاقتهم بالملك وكنيتهم فى الجهاز الحكومى او الطبقى ومنزلتهم فى السلم الاجتماعى والكهنوتى فى مصر البطلمية • ويجب ان نعترف بادىء ذى بدء انه ليست لدينا معلومات دقيقة ووثيقة عن الاشتراطات المرعية فى هذه الحيازة فى العصـــر السابق على عصر البطالمة ، بل ان معلوماتنا عن عصر البطالمة نفسه ليست وافية اوكاملة بصورة تدعو الى ان تكون على يقين تام بما نقول • وهنا يجب ان نذكر ان روما كــان لها الفضل فى اخضاعها بجدية قامت به على الوجه الاكمل وهو انشاء نظم ومصطلحات دقيقة فى نطاق القانون العام والخاص • وفى هذا الميدان تخلفت بلاد اليونان عن روما كثيرا ، بل كانت مصر البطلمية اقل دقة مما نفترض • ويبدو انه فى عصر متوسط مـــن عصور البطالمة ، كان هناك على الاقل نوعان اساسيان من الارض ، يتميز أحدهما عــن الاخر وهما (١) الارض الملكية وتعرف بالاسم اليونانى الاتى ge basilike (نسبة الى الملك بالطبع) وهى تشمل الاراضى التى كان للملك اشراف مباشر عليهـــا ويفلحها فلاحون كان يطلق عليهم " الفلاحون الملكيون "/(٢) ثم الارض المتخلى عنها او المتروكة وتسمى (ge en aphesei) منحتها الحكومة اواسبغتها وسلمتها لاشخاص اخرين بعد الافراج والتخلى عنها وبذلك انتقلت من الاشراف المباشر للملك اوالمندوبين التابعين له الى التدبير وهناك نوع ثالث ثانوى يمكن ان يؤلف فى مجموعه ماكان يعـــرف بالاسم الاتى : الارض الواقعة فى نطاق المدن الحرة وهى ge politike وكانت مخصصة للاراضى الواقعة فى زمام المدن اليونانية بمصر وهى الاسكندرية وبطلمية

(المنشأة فى محافظة سوهاج بالصعيد) ثم نقراتيس (كوم جعيف ونقراس ونبيره مركز ايتاى البارود محافظة البحيرة) ولدينا معلومات طفيفة عن المركز القانونى لهذه الارض فى صدر العصر البطلمى . وحسب ماقضت به الافكار اليونانية التقليدية فى نظم المدن اليونانية عموما ، كانت الارض الواقعة فى كنف هذه المدن هى بمثابة الملكية الخاصة لهذه المدن من حيث تبعيتها للمواطنين الاحرار بتلك المدن فكانت اذا بمثابة جزر أومقاطعات يونانية حرة ، تكتنفها الاراضى الملكية من كل جانب وعلى اننا نستطيع ان نتصور ان هذه المقاطعات اليونانية الحرة كانت بمثابة اقسام تابعة وتفرعت عن الاراضى المتروكة او المتخلى عنها ، سماحا من الملك وهى التى سبق ان نوهنا عنها وادرجناها تحت الاسم الاتى (ge en aphesei) .

ومن العسير ان نكون هنا اى فكرة ولو بصورة تقريبية ، عن المقدار الذى وصل اليه كل نوع من هذه الاراضى وبخاصة النوع الاول الذى استأثر به الملك واحتفظ به بصورة مباشرة ولربما كان هذا يصل الى اكثر من نصف ارض مصر . والسبب فى تعثرنا فى الوصول الى معرفة دقيقة ان المعلومات التى فى متناولنا اغلبها يتعلق بالاحوال المنعقدة فى اقليم الفيوم حيث كانت المساحات الشاسعة عن الاراضى الجديدة المستصلحة وهى بالطبع اراضى ملكية ، تمثل العنصر الغالب ولايمكن القياس على ذلك فى دلتا النيل ولافى باقى اراضى الصعيد ، فالظروف متباينة . ومن خطل الرأى ان نستنبط حقائق من معلومات ووثائق متناثرة واقصى مايمكن ان نقوله فى هذا الشأن ان الموقف بالنسبة للارض فى باقى محافظات مصر كان مختلفا ، ولاسبيل الى الوصول الى كنه الحقيقية فأصبحنا نسبح فى الخيال ونعمد الى التخمين فى تقدير نسب هذه الاراضى وتبعيتها لمختلف السلطات والهيئات .

ويمكن تقسيم الاراضى التى تخلى الملك عنها وسمح لغيره بالاشراف عليها الى مايلى

(١) اراضى كانت فى حيازة المعابد وعليها عماد الدخل المقدس ويكنى لها بأحد الاسماء الاتية : ge hiera , heira prosodos, ge anieromene

(٢) اراضى خصصت أو رصدت لتكون عونا ومصدر رزق لمختلف موظفى الدولة ، تخفف اعباء الحكومة ولا تتكفل بدفع رواتب لهم ويعرف هذا النوع من الارض بالاسم الاتى (ge en syntaxei) ويدخل ضمن المنتفعين والمستفيدين من يأتى على رأسهم ، طبقة الجند من مشاة وفرسان ، ضباطا وجنودا على مختلف رتبهم العسكرية وتعرف الاراضى التى كانت فى حوزة الجند بالاسم الاتى ge kleruchike فأصبح لدينا صاحب الخمس ارورات او الافدنة المصرية ويسمى pentarouros وصاحب الخمسة والعشرين eikosipentarouros وصاحب السبعين والثمانين والتسعين والمائة hekatontarouros والمائة والعشرين وهكذا .

ويدخل فى هذا الاطار نفر من الموظفين المدنيين على اختلاف مراتبهم . وهناك شئ آخر قائم بذاته مثل اراضى الهبات او الاقطاعات التى أسبغها الملك على سبيل الهبة او المنحة وتعرف بالاسم الاتى ge en doreai وتصل احيانا الى آلاف الارورات ولكن من اشهرها تلك الضيعة الكبرى التى اسبغها بطلميوس الثانى الملقب فيلادلفوس على كبير وزرائه ووزير ماليته المسمى ابوللونيوس (Apollonios) وكانت تبلغ عشرة آلاف من الارورات فى الاقليم الاسينويتى او الفيوم ومركز هذه الضيعة قرية مشهورة تسمى فيلادلفيا متعاصرة مع الاسكندرية اذ بنيت فى نفس الحقبة وخططت على نسق الاسكندرية/ وكانت قبلة الانظار ومركزا مهما للتجارب الزراعية وتنسيق الخبرات اليونانية وملتقى الحضارة اليونانية والمصرية ومركز عبادات يونانية ومصرية عديدة . وهكذا كان الملك يمنح كبار الموظفين المدنيين والعسكريين المخلصين فى خدمته تلك المساحات الشاسعة مكافأة لهم على اخلاصهم فكان هؤلاء يتفانون فى اصلاح تلك الاراضى واستجلاب الخبرات اليونانية والايدى العاملة ذات الخبرة المصرية من الاقاليم المجاورة . ويأتى فى آخر المطاف نوع من الاراضى كان بمثابة الملكية الخاصة ويسمى ge idiokletos او ktemata (١) اى المقتنيات والاملاك الخاصة .

---

(١) ktema مفرد ktemata ، وهى تعنى الحديقة او الكرم .

ويدخل في هذا النطاق اراضي الفاكهة والبساتين نظرا لانها تتطلب جهدا وفترات طويلة حتى تصبح منتجة • على ان هذه المصطلحات ليست من الدقة بحيث تكون قاطعة في تحديد المعنى وقصره على نطاق معين دون غيره فكثيرا ماتداخلت الاقسام بعضها في بعض ومن ذلك مثلا ان الاصطلاح العام الدال على الاراضي المتخلي عنها وهو (ge en aphesei) كان يرد في الوثائق البردية التى في متناولنا تارة معبرا عن اراضي المعابد (ge heira) واخرى للتعبير عن الاراضي الموهوبة كمكافأة للموظفين على مختلف مراتبهم (ge en syntexei) وكذلك للتعبير عن اراضى الهبات وهكذا كانت بعض هذه المصطلحات تعبر عن معنى شامل في بعض الاحيان وتتضمن معانى اخرى ضيقة في احيان اخرى ولذا كان التعويل عليه كلية فيه شيء من التضليل او اللبس•

على ان المعلومات التى وصلت الينا عن مختلف هذه الانواع ليست متسقة ولا متساوية في حصيلتها ومقدارها ومن ذلك فالنظام المطبق في استغلال الارض الملكية معروف تماما في شكله العام• ولدينا بعض المعلومات عن الاراضي التى كانت في حوزة الجنود • نقتطفها من شكاياتهم ومن الاوامر الملكية التى كانت تعكس احيانا بعض تصرفات هؤلاء الجند في اقطاعاتهم العسكرية وفي ثكناتهم والمحلات التى كان الملك ينزلهم فيهـــا وهي المعروفة باسم (Stathmoi) اما عن اراضي الهبات ففي ارشيف زينـــون وكيل ابوللنيوس في ضيعته المشهورة بفيلادلفيا من الرسائل والمعاملات مايكشـــف عن الكثير من المعلومات المستفيضة عن الوان من الحياة والجهود المحمومة التـــى بذلت في سبيل النهوض بمرفق الزراعة واصلاح الاراضي بصفة خاصة • اما معلوماتنا عن اراضي المعابد والاراضي الخاصة فهي محدودة ولاتعدو لمحات من هنا وهناك لاتؤلف في مجموعها سوى صورة مبتورة • وهناك امر واحد جلي : ذلك هو ان الملك البطلمي كان يعتبر نفسه المالك الحقيقي لجميع ارض مصر •وماتملك فئة من الفئـــات لنصيب من هذه الاراضي او الانتفاع بها واستغلالها على اى نحو •سوى وضع لايكسب

صاحبه بأى حال من الاحوال حقا .... يستردها فى اى وقت يشاء .

الاراضى الملكيـــــــة :

كان يفلح هذه الاراضى اناس عرفوا باسم شامل هو الفلاحون الملكيون (georgoi Basilikoi) وهذا وفى كان كذلك من تراث الماضى والغالبية العظمى من هؤلاء الفلاحين الملكيين كانت منتشرة وتعيش فى كنفها فى ريف البلاد (Chora) تطويها آلاف القرى والدساكر وكان تسجيل اسماء هؤلاء الفلاحين على هذا النحو فى قرية او بلدة متواضعة يعتبر هو الموطن او المقر الخاص بسكنى كل واحد منهم وهو مايكنى له عادة فى الوثائق بكلمة (idia) وكان المفروض ان كل واحد من هؤلاء ينبغى ان يبقى ملتصقا بمقره او بموطنه الاصلى ومسقط رأسه ولكنه ليس ملزما الا يغادره بصفة مستديمة فقد سمعنا بين حين وآخر ان كثيرين منهم اعتبروا غرباء (Xenoi) لان موطنهم كان فى قرية اخرى غير التى وجدوا فيها وانهم كانوا يسكنون قرية ليست لهم وشاع ذلك التصرف والتنقل الى حد ان محصلين وجباة اختصوا بتعقب هؤلاء بقصد جمع المتأخرات عليهم ومستحقتهم فى كل مكان وكان هؤلاء يسمون praktores Xenikôn تمييزا لهم عن زملائهم المختصين بجباية الضرائب من اولئك الذين بقوا فى مقارهـــم والتزموا بالبقاء فى قراهم . وقد اتحفتنا الاستاذة البلجيكية كليريــــــو (Claire Préaux) بمقال منشور فى مجلة Chronique d'Egypte العدد ٥٩ لسنة ١٩٥٥ عنوانه " Sur les fonctions du praktor Xenikôn "

صفحات ١٠٧ - ١١١ عرضت فيه لتتعرف على ماهية هؤلاء الجباة المختصين بالغرباء وفندت وجهات النظر فى هذا الشأن وربطت هؤلاء بسكان المدينة وتعريف الغريب Xenikos بأنه هو ماليس بالمواطن فى مدينة حرة اى ليس politikos ولسنا على علم بما اذا كان يتعين الحصول على اذن خاص بانتقال هؤلاء الفلاحين

الملكيين من قرية لاخرى • وهؤلاء الفلاحون الملكيون كانوا من أحرار الرجال وليســـوا اقنانا او عبيدا ويستدل على ذلك من عدة حقائق منها انه كان مخولا لهم حرية الحركة على النحو الذى نوهنا عنه آنفا ويمكن الاستدلال كذلك على مركزهم من العلاقـــات التى كانت تربط بينهم وبين اصحاب ضياع الهبات والاراضى التى كانت فى حوزة الجند • فالهبات التى كان الملك يمنحها للعظماء وذوى الحظوة لديه لم تكن بحال ما تشتمل على قرية او اكثر بما فى ذلك اراضيها وسكانها وانما كانت تشتمل على قدر من الارورات وعلى رقعة تساوى ستة آلاف من الافدنة المصرية • وفى الحالات القليلة التى وصلت الى علمنا كانت هذه الارض تفلح لا بواسطة اولئك الذين كانوا يملكونها بالوراثة وانما بواسطة مزارعين من مختلف البيئات والاجناس وبخاصة اولئك الذين استأجروا انصبـــة منها من صاحبها لفترة قصيرة موقوتة • ويصدق مثل هذا القول على اصحاب الانصبـة الصغيرة من الاراضى الممنوحة للكثير من امثال اولئك الجند الحائزين لرقع متفاوتـــة منها وهم الذين اطلق عليهم اسم (Cleruchs) فأصبحوا يمثلون بذلك طبقـــة لها كيانها ووجهتها • تضرب فى الارض مختالة وتعيث فسادا فى علاقاتها بالسكـان المصريين الذين حلوا عليهم فى منازلهم ولكنهم آثروا فى كثير من الاحيان استعمال القوة الغشومة فكانوا (apobiasamenoi) اى الطاردين بالقوة الغشومة للسكان من منازلهم كيما يحلوا محلهم • وامثال هؤلاء المستأجرين كانوا جميعا ينتمون لطبقة عرفت بالفلاحين الملكيين • ومع ان هذه الطبقة كانت تضم اناسا قاموا بفلاحة هذه الارض الملكية على مدى ايام طويلة ، فان اسم الفلاح الملكى كان يسبغ جوازا على كل مـــن كان يفلح الارض الملكية بصورة او باخرى ، باعتبارهم فى آخر المطاف مستأجرين من الملك • واخيرا كانت العلاقات بين الملك والفلاحين الملكيين تقوم على عقود مدونة كالمعتاد وليس على التقليد والعرف • وفى صدر العصر البطلمى كانت اغلب العقود لآجال قصيرة • ومع انه ليست لدينا معلومات مباشرة فى هذا الشأن فيما يتصل بالارض الملكية التى كانت تخضع لاشراف ملكى مباشر ، فان هذا الاجراء كان مقررا ومرعيا بالنسبة لاراضى الهبات

ولأنصبة الاراضي الخاصة بالجند • ولدينا حالة مشهورة تردد ذكرها في الوثائق البردية المنشورة وغير المنشورة • وعرض لها العلماء من امثال " رستفتزف " و "كلير بريو " بالتعليق والتفسير وهي تتعلق بعدد من الفلاحين المجاورين من اقليم هليوبوليس ليفحلوا ويصلحوا ضيعة ابوللونيوس بالفيوم وتعاقدوا بالفعل على ان يفحلو ويصلحوا الفا من هذه الارورات في هذه الضيعة البالغة في مجموعها عشرة آلاف من الارورات ولكنهم لم يوفقوا في عملهم واخذ المشرف وهو المسمى (Damis) يضايقهم ويحتقرهم وفضين الخزان عليهم بالقبض على شيوخهم حتى وقعوا على تنازل عن عقد كانوا قد ابرموه بالفعل واشاروا الى سوء حالتهم في شكاياتهم الثلاثة واحدة منها لوزير المالية ابوللنيوس صاحب الضيعة والاخرى للمدير الاقتصادي المقيم وهو (Zoilos) والثالثة يطلبون فيها تحديد موعد للقاء وزير المالية وشرح تلك الاخطاء الجسيمة التي لاحظوها في العمل ونوهوا بعدم وجود اخصائي يفهم في العمل او له دراية بما ينبغي عمله ونحن نستدل من هذا التنازل عن عقد كان مبرما ومن الاشارة الى هذا التنازل graphe apostasiou على ان النظام المرعي في اصلاح الاراضي وزراعتها اقتضى عمل عقود مع العاملين في هذا القطاع ونحن نذكر هنا ارقام الوثائق

P.London 2090 ; = P.Zenn by Skeat Nos .1954,19555
P. London 2094 (= Sammelbuch 7986) + P.S.I.502

ثم كتاب رستفتزف عن الضيعة الكبرى ص ٧٣ — ٧٥ وكتاب " كليربريو " عن "اليونان في مصر " ص ٥٠ — ٥١ •

ولاينبغي ان ينصرف عن بالنا ان عقود الايجار في اواخر القرن الثاني كانت في اغلب الظن لآجال طويلة وفي بعض الاحيان لايرد فيها اي ذكر لفترات محددة على الاطلاق وانما كانت الارض تجري زراعتها في الظروف العادية بلا تأخير الى ان يتراءى للحكومة ان تعلن عن تأجيرها من جديد (diamisthosis) • ثم تمضي في تنفيذه • وليس لدينا من سبيل الى التأكيد بأن صورا معينة من التعاقد كانت

مألوفة او غير مألوفة فى صدر العصر البطلمى وانما الذى شاهدناه هو مجرد اشارات الى انواع من التعاقد وتنازلات عن مثل هذه العقود سواء اكانت عقودا ايجاريـــة لفلاحة الارض او لاصلاحها وتهيئتها للزراعة • والغالب على الظن ان هذه العقود استحدثت فى عصر متأخر تحت ضغط الظروف والاحوال • ويبدو انها كانت تمثل اجراءا قديما ربما كان سابقا منذ اقدم العصور ثم صاحب ذلك اجراء عمد اليه البطالمـــة الاولون وهو ابتداع عقود لآجال قصيرة سايرت الاجراء القديم ولازمته •

قيمة ايجار الارض :

كانت رقى الاراضى الملكية هذه يفلحها كما قلنا الفلاحون الملكيون ويدفعون عنها ايجارا سنويا للملك ويعرف هذا الايجار بالاسم اليونانى (ekphorion) • وقد يجول بخاطر الانسان ان هذا الايجار الذى يدفعه الفلاحون ،كان فى العصور السابقة على عصر البطالمة هو نصيب معلوم يقدر بعشرين فى المائة من المحصول اى الخمـــس (pars quota = μέρος) (١) ولو ان هذا التقدير ليس على سبيل اليقين بين قدر ومع ذلك ففى العصر البطلمى كانت هذه النسبة غير ثابتة وقدرا متناسب مع المحصول اى انها كانت تمثل pars quanta وليس قدرا ثابتـــا هو pars quota كما كان فى العصور السابقة على عهد البطالمة فالقدر المطلوب من المحصول يكون موزيا للحكومة وللملك بحكم الكمية الثابتة • ويتحكم فى هذه القاعدة عدة اعتبارات ويخضع لعدة تغييرات طبقا للحالة الراهنة لكل قطعة من الارض عقـــب الفيضان السنوى من حيث ان مياه الفيضان قد غمرتها او لم تصل اليها وفضلا عن ذلك فالحكومة تشارك فى الخير والمحصول الوفير اذا ماعم وتتحمل وزر مايحدث اذا ماصيبت البلاد بقحط او ندرة فى المحصول • فهى فى الخير والشر لها نصيـب • وبالاضافــة الى الايجار المستحق ،كان الفلاح يدفع عددا لا يحصى من الضرائب المختلفة وقائمـة الضرائب المفروضة عليه ، مع انها غير كاملة ، رهيبة للغاية فعدد الاراداب artabae من الحبوب المقرر دفعها كايجار عينى عن كل ارورا او فـــدان يونانى ثم مايضاف الى ذلك من مقادير الحبوب التى تدفع سدادا لمختلف الضرائب الاخرى ، كثيرا ماترد اشارات اليها فيما لدينا من وثائق ولكن عندما نريد التعـرف

(١) جاءت اشارة الى ذلك فى العهد القديم (التوراة) سفر التكوين ،الاصحاح ٤٧ (الاسفار ٢٣ - ٢٦) " فقال يوسف للشعب انى قد اشتريتكم اليوم وارضكم لفرعون هوذا لكم بذار فتزرعون الارض • ويكون عند الغلة انكم تعطون خمسا لفرعون والاربعة الاجزاء تكون لكم بذارا للحقل وطعاما لكم ولمن فى بيوتكم وطعاما لاولادكم ••• " فجعلها يوسف فرضا على ارض مصر الى هذا اليوم لفرعون الخمس • الا ان ارض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون ".

على المقدار بالضبط وتقدير ماكان يدفعه الفلاحون الملكيون للملك مما توفر لهم من محصول ، تدخل في مناقشات من الحدس والتخمين ، ومما لاريب فيه ان هذه النسبة لم تكن تقل عن الثلث بل ربما كانت تزيد على النصف ، والفلاح الملكي كان بمقتضى عقد الايجار المبرم معه ملزما بالقيام بفلاحة الارض المخصصة له وكان عليه على ان يبقى في القرية في اثناء الفصل الزراعي الى ان يوفي ماعليه من التزامات للملك ، وهذا الالتزام كان امرا مسلما به ولاجدال فيه وعندما كان الفلاح يتسلم بذور القمح من الملك او احد موظفيه كان يعترف صراحة بهذا الالتزام ويقسم عليه قسما ملكيا وفي خلال الفصل الزراعي كانت عين الحكومة ترقبه بواسطة عدد من الموظفين من خفر وحراس (phylakes) ورئيس للقرية (komarches) وكاتبها (komogrammateus) ونخص بالذكر من كل هؤلاء الموظفين الحكوميين العديدين طائفة من المندوبين الاقتصاديين عرفوا بالاسم الاتي (oikonomoi) والواحد منهم هو (oikonomos) وهم المثلون لوزير المالية او (dioiketes) كل في محافظته او قسمه الاقليمي يباشر عمله اما شخصيا او بواسطة مندوبين ومراقبين منبثين في ارجاء البلاد ولهذا المدير الاقتصادي اهمية فائقة فهو بمثابة دولاب الاعمال و " دينامو " الحركة في اقليمه ، واختصاصاته منوعة واعماله تتسم بالدقة التامة ومجالات نشاطه كثيرة ، تستأهل منا ان نفرد له دراسة خاصة ونخصه بشيء من العناية لتحديد عمله وتبيين اختصاصاته في الزراعة والصناعة والضرائب وتسوية الحسابات شهريا وسنويا مع الملتزمين المتعاقدين على جباية الضرائب على مختلف انواعها ، وكانت البذور اللازمة للزراعة مختلف الحبوب وبخاصة النباتات الزيتية كان يتسلمها اولئك الفلاحون من الملك ، ومن اولى الاغراض التي كانت تهدف اليها الحكومة من وراء هذه القروض الاجبارية هو الضمان الاكيد بأن رقع الاراضي المؤجرة للفلاحين يتم زراعتها بأفضل البذور وفي المواعيد المقررة لزراعة كل نبات ، بصرف النظر عن الظروف الخاصة التي تحيط بالفلاحين فضلا عن الضمان بأن تلك البذور المقدمة هي من نوع جيد وكان من واجب المدير الاقتصادي ان يحول دون استخدام تلك البذور في اغراض اخرى غير المخصصة لها ، ولدينا في وثيقة بردية مشهورة نشرت في مجموعة

بردى تبتوس (قرية ام البرجات بجنوب الفيوم) رقم ٧٠٣ سلسلة من النصائح التى كان وزير المالية البطلمية يزود بها المديرين الاقتصاديين وحثهم على عدم التواكل فى عملهم وضرورة السهر والاشراف الدقيق على رعاية مصالح الفلاحين والتسرية عنهم اذا يألم بهم كرب وازالة اسباب شكاياتهم ورفع معنوياتهم ثم حتم عليهم المرور على الارض للاطمئنان على ان عملية بذر البذور قد تمت على الوجه الاكمل وان الارض قد انبتت نباتا حسنا وتم ترقيع الاجزاء التى ماتت بذورها فلم تنبت .

الدورة الزراعيـــــة :

ولم يكن الفلاح المصرى او اليونانى حرا فى ان يفلح الارض بحسب هواه وانما كانت هناك دورة زراعية سنوية نابعة من اعمال الريف ثم تقرها الحكومة المركزية وتسهر على تنفيذه وتصدر التعليمات الخاصة بتنظيمها بناءا على اقتصاد ملكى موجه فالاقتصاد البطلمى يخضع لقواعد تضعها الدولة économie dirigée على حد قول العالمة البلجيكية الاستاذة كليربو فى كتابها المشهور عن اقتصاد اللاجيديين او البطالمة وهو الكتاب الذى نشرته عام ١٩٣٩ واصبحت نظرية الاقتصاد الموجه هى القاعدة المسلم بها استنادا الى ماجاء فى القوانين الضريبية (nomoi Telonikoi) التى اصدرها بطليموس فيلادلفوس عام ٢٥٩ — ٢٥٨ ق.م. فهى حاوية لمعلومات واحكام خاصة بالزراعة والبذور والتصرف فى المحاصيل وجنيها ودفع المستحقات من الضرائب عليها بواسطة رهط من الموظفين يأتى على رأسهم الملتزمون والجباة تحت اشراف اولئك المديرين الاقتصاديين (oikonomoi) . وعلى ذلك كان كل مدير اقتصادى يراعى بمنتهى الدقة هذه الدورة الزراعية Hé diagraphé tou sporou وعليه الزام الناس بتنفيذها والعمل بمقتضاها . ولتحقيق ذلك وللتأكد من ان الارض قد افلحت على الوجه الاكمل تعين على هذا الموظف الكبير ان يقوم بجولة تفتيشية يتجول فيها فى انحاء قسمه الادارى وقت ان تكون الارض لاتزال فى دور الانبات ويدون اى اخطاء تكون قد وقعت ويأمر بالترقيع ان لزم الامر ويصلح ذات البين ان وقع خلاف ويسرى عن المكروبين ويرفع من معنويات الناس وهذه لمسة اجتماعية لاينبغى ان يفوتنا التنويه بها كحسنة

من حسنات الشلم للبطلمي والروح الانسانية (philanthropa) التي اتسم بها •

وعند فصل الحصاد كانت توضع رقابة شديدة على الفلاح الذى كان يكلف بجني المحاصيل بوسائله الخاصة ويقوم بحصد القمح ثم بنقله الى الاجران ودرسه بالنورج والمدراة وهذه ادوات عرفها الفلاح المصرى فى عصر البطالمة واستخدمها كما استخدم الطنبور الذى كان اختراعا يونانيا تطبيقا لقاعدة " ارشميديس " ـ كان كل هذا يجرى تحت رقابة الاجهزة الادارية واشرافها وحراسة خفراء معينين خصيصا لهذا الغرض لرقابة المحاصيل وهؤلاء الحراس كانوا يسمون (genémato phylakes

وكانت الحبوب فى الجرن بعد فحصها تقسم بين الملك والفلاح بنسبة ما اما pars quanta او pars quota حسب الاتفاق المبرم مسبقا ثم ان القدر الفائض او المتبقى كان يسمى بالفائض (epigenema) بعد ان يتم الوفاء بجميع الالتزامات التى كان على الفلاح ان يوفيها للملك • ثم يتم الافراج عنه فيحصل الفلاح على اذن بالافراج (aphesis) فيسمح له بنقل هذا الجزء الى مسكنه او الى المقر الذى يقيم فيه • اما عن القمح والحبوب الخاصة بالدولة من فول وشعير وعدس وسمسم وكتان وخلافه ، فكان ينقل على حساب الفلاح الى المستودعات الملكية والشون (Thesauroi) وهى منتشرة فى طول البلاد وعرضها فى اعماق الريف فى القرية وفى الحواضر وفى المواقع الاستراتيجية ويجرى تسليمها فى هذه الشون الى رؤساء هذه الشون وهم الذين كانوا يسمون امناء الشون (sitologoi) ولهم شركاء (metochoi وهم خزنة الغلال الذين يتسلمون المحصول ويعطون ايصالات عما يتسلمونه ويجرى التحفظ على الغلال فى اكوام مائلة وذلك بوضع اختام عليها من الجوانب ، يقوم بذلك جز تلم منها من ... يعرف بـ المختمين (sphragistas) متخصصون لذلك العمل حتى لايعبث بها احد بعد ختمها على هذا النحو البدائى وهى طريقة مألوفة فى الشرق لحفظ الغلال من عبث العابثين بها الى ان يتم تشوينها

ونقلها فهى سفن ، ذلك ان الغلال كانت تنقل من الشون المحليه اما بحرا فى النيل وقنواته العديده او برا على ظهور الجمال والحمير واب النقل الاخرى الى الشون الكبرى الرئيسيه وهنا توسيق فى سفن نيليه ضخمه لها ربابنه يتسلمون عينات من المحاصيل التى تمتلىء بها سفنهم ويذكر فى الايصالات انها غلال مغربله نظيفه خاليه من كذا وكذا فيسلمها بدوره حسب المواصفات عند الوصول الى الاسكندريه • اما عن الاجراء الذى كان متبعا فى تحصيل القمح فكان منصوصا عليه فى امر ملكى خاص بذلك •

اما عن المحاصيل الاخرى بخلاف الحبوب فكان يطبق عليها طرق مماثله لتلك ومن هذه القنب او الكتان ثم العشب او الكلا الذى يستخدم لاطعام الماشيه فكانت تخضع لعقود خاصه بسبب لفصل زراعى واحد كمحصول ثانوى دورى •

الارض المخصصه للمعابد :

كان شق كبير من ارض مصر مما هو صالح للزراعه او القابل للاستصلاح ينتمى فى العصر السابق لعصر البطالمه الى المعابد وكانت هذه الارض تعتبر كانها ضيعه خاصه باحد الالهه مرصد دخلها وايرادها على الاله او الالهه من الالهات العديده فى مصر • ومصر كانت تختلط فى عصر البطالمه بطلقمه من الالهه المصريه والالهه اليونانيه تداخلت بعضها فى بعض بطريق التشرف والمقابله والتماثل • والاراضى الموجوده على كل هذه الالهه كان يقوم بفلاحتها عبيد هذا الاله او ذاك وهولاء كان يطلق عليهم فى الاصطلاح اليونانى العبيد المقدسين على ان بعض هذه الاراضى كان فى حوزه الكهنه انتقل اليهم بطريق التوارث فكان من حقهم بيعه وتاجيره او رهنه كما لو كان ملكا خاصا لهم • اما الانصبه من الاراضى التى كان يفلحها عبيد الالهه فكانت كذلك مخصصه لهم لمدد غير محدوده ومن حق مستاجرها التصرف فيها حسب هواه وهنا يجب ان نضيف ان جميع سكان المعبد كانوا عبيد للالـــــــه بصـــــــرف .

النظر عن مهنتهم ، بل ان الكهنة الذين كانوا يشغلون مراتب دنيا مثل رعاة الاوز (ChenoBoskoi) وحراس الحيوانات المقدسة والقائمين باطعامها كان يطلق على كل هؤلاء العبيد المقدسون . (heirodouloi) .

وهذا النظام الذى الحنا هنا الى هيكله العام وصل الى علمنا شذرات عنه بطريقة مبثورة من وثائق متناثرة من العصر الهلليسنتى وخاصة فى العصر الاخير من هذه الحقبة ومن الوثائق الديموطيقية [1] وربما كان هذا ثمرة تطورتم فى هذا العصر الهلليسنى وربما كان هذا الوضع قد ورثه البطالمة عن الماضى فحرصوا عليه ولم يغيروا شيئا كثيرا فى معالمه الاساسية . وانا لنعرف كيف ان البطالمة كانوا حريصين كل الحرص على عدم المساس بتغيير اى شىء فى العادات والعبادات والنظم المرعية فى المعابد فأبقوا عليها كما توارثوه من اقدم العصور ايثارا منهم لعدم اغضاب الكهنة المصريين وهم الذين كانوا يمثلون المعاقل الوطنية ومراكز المقاومة . والبطالمة كانوا بالتأكيد حريصين على عدم تحويل املاك المعابد او ايراداتها الى الاغراض العلمانية (فيما عدا مايقال عن الانتفاع بايرادات ضريبة الابوميرا المخصصة لعبادة أرسينوى الثانية التى رفعت الى مرتبة الالهات وكان هذا لاغراض علمانية والصرف منها على دفع رواتب وعلى اى حال فلم يصل الى سمعنا شيء عن اى مصادرات على نطاق واسع اوعن تحويل شيئ من الاراضى المرصودة على المعابد الى قطاع الاراضى الملكية كيما يلتهمها الملك بل على العكس حدث ان اسبغت على المعابد انواع كثيرة من المنح والعطايا والحقوق مثل حق الجيرة والايواء الذى توسع فى منحه ملوك البطالمة الاخيرون مثل بطلميوس العاشر الملقب بالاسكندر وكليوباترة الثالثة (١٠٧ — ٩٦ ق.م.) وبطلميوس اوليتيس والد كليوباترة السابعة وكليوباترة السابعة نفسها .

ومع ذلك فقد حدثت بعض التغييرات والتطورات فى العلاقة بين الملكية البطلمية وبين المعابد وقد وصل الى علمنا بعض هذه التغييرات وكان من اولاها مايتعلق

بالمصطلحات ففى التسمية التى اطلقت على ارض المعابد وهى (gé Heira) تطابق مع التسمية التى اطلقت على الارض الملكية وهى gé basilike ، وظهور التسميتين فى الوثائق الخاصة بالعصر البطلمى مقترنة احداهما بالاخرى دليل ايضا دليل على التعاصر والتشابه والتماثل فى المعاملة وفى مصدر الصياغة وهو واحد بالطبع . وانه لمن البين لى انه فى العصر البطلمى كانت الارض الموقوفة على المعابد وكذلك الايراد والدخل المتحصل من هذه الاراضى الشاسعة ، يؤلفان احد الموارد الهامة فى بنود الاقتصاد الملكي ويمثلان شقا فى ميزانية البيت الملكى . وعلى ذلك فهناك ارتباط وثيق بين الملك والمعابد - كل هذا نستشفه من تلك المصطلحات والتشابه فى التسمية . وربما كان هذا الارتباط من صنع البطالمة الذين كانوا اول من ابتدعوه وربما لم يكن له وجود فى العصور السابقة على عصر البطالمة . وقد يجول بالخاطر ان البطالمة كانوا اول من قضى على الاستقلال الاقتصادى الذى كانت تتمتع به المعابد فى اغلب الظن فى العهد الفرعونى المتأخر . ولكن يحتمل كذلك ان البطالمة وجدوا المعابد وقد سلبت من قبل استقلالها على يد الفرس وكان بعض ملوك الفرس وهم دارا الاكبر وقمبيز قد اتخذ بعض الاجراءات التى كانت تهدف الى هذا الاتجاه وهو سلب المعابد استقلالها وانها لحقيقة معروفة ان ارتا . زرسيس اوخوس ودارا الثالث اظهرا عدم الاكتراث وقلة الاحترام للالهة المصرية واستخفوا بالكهنة المصريين ولم يأبهوا بأى حقوق لهم . ولربما ان البطالمة الاولين عند تنظيم علاقاتهم بالمعابد حرصوا على اظهار شئ كثير من الاهتمام والاحترام بالمعابد المصرية ولايجب ان ننسى ان الاسكندر الاكبر لم يفته عند زيارته لمصر ان يقيم حفلا فى منفيس تكريما للاله بتاح والالهه ايزيس وان يؤدى زيارة تقليدية لمعبد امون (تشديد الميم) فى سيوه وان اثر هذه الزيارة كان محسوسا اخذ بالباب الكهنة وفاتحة جديدة بعد معاملة سيئة لقوها على يد الفرس وهكذا اظهر البطالمة انهم كانوا اكثر سخاءا واجزل عطاءا من ملوك الفرس . وهناك ظواهر اخرى فيما يجرى عن تنظيم شئون المعابد ، فيها اشارة واضحة الى وجود علاقات وثيقة بين المعابد وبين ملوك البطالمة وهاهى بعض

هذه المظاهر فالبطالمة هن اول من ابتدع وظيفة

وتلك هى التى عرفت فى الاصطلاح اليونانى بالاسم الاتى (epistates) وكل هذا الموظف فى اغلب الظن هو مرشح الملك والعين من قبله وهو الممثل ايه والمسئوعن كل الالتزامات المالية التى للملك على المعبد • ومن هذه على سبيل المثال ما كان فى نطاق الصداقة والانتاج من نسيج الكتان الرفيع المسمى (byssos) ومن ربيد معتق وخلافه والمثل الاخر الدال على ما كان للدولة من اشراف على شئون المعبد هو التصرف فى الوظائف واختيار الصالحين • والوظائف الكهنوتية على مختلف انواعها لها اهميتها من الناحية الاقتصادية فهذه الوظائف الكهنوتية كانت تمثل مصادر ايراد وموارد رزق لا بد ان يه ولها رواتب تدر على اصحابها دخلا كبيرا مثلما كان عليه الحال فى المعابد الشرقية وقبل البطالمة كانت هذه الرواتب وموارد الدخل العريض الناجم عنها مخصصا فى اغلب الظن بواسطة المعابد للكهنة ولعبيد المعبد بنفس الطريقة التى خصصت بها الاراضى لهم ومعين هذا ان هذه الوظائف وما ارتبط بها من رواتب كانت تباع لمن يدفع اكبر عطاء وقد طبقت هذه الطريقة فى عصر البطالمة ، فاصبحت الحكومة وليس الكهنة هى التى تتولى بيع هذه الوظائف وابرام عقود البيع فى الوظائف غير الوراثية اما الوظائف الوراثية فكان ضمن منها على رسوم تنصيب قبل ان يتولاها الورثة ولدينا فى (gnomon of Idios logos) التى كانت تطبق فى النصف الاخير من الحكم البطلمى وفى مصر الرومانية عدة بنود تنظم هذه القاعدة • فنجد فيها بين المواد ٧١ حتى ٩٨ اشارات الى وظائف كهنوتية تباع واخرى تورث وهذه وتلك كانت الدولة تحصل على مالية كبيرة ومن هذا يتبين ان الحكومة البطلمية والرومانية كانتا تتوليان الاشراف على ما يجرى فى الوظائف الكهنوتية وتداولها بين الشاغلين لها والصالحين لولها •

ويحتمل جدا ان اراضى المعابد كانت تخضع فى ادائها لاسلوب شبيه من ذلك • وما لا ريب فيه انه بالنسبة لاقليم الفيوم فى العصر البطلمى المتأخر كانت الادارة المحلية

تحتفظ فى سج تها ببيان عن اراضى المعابد ، اسوة بما كانت تفعله بالنسبة للاراضى الملكية وانها كانت تتولى اشرافا دقيقا على زراعتها وتراقب القائمين بهذا العمل وتعتبر الدخل الوارد منها وهو الايجار الذى كان يدفع بصورة او بأخرى فى نظير استغلال هذه الاراضى ، كجزء من الايراد الملكى فتحرص على ان الايجار يدفع كاملا وان الاراضى قد تمت زراعتها . وليس هذا النظام من مبتكرات البطالمة الاخيرين الذين اتسم حكمهم بالضعف والاستكانة ولم يكن فى مكنتهم الافتئات على المعابد ، بل على العكس توسعوا فى منح الحقوق والامتيازات لها فأسبغوا عليها حق الايواء والجيرة (Heira asyla) وسمحوا لها باقامة الشواهد فى مداخلها معلنة هذا الحق الملكى مسطرا باللغة اليونانية او باللغة المصرية ومحذرة من يداخله مستخدما القوة الغشوم ونصب اللعنة على كل من ليس له شأن بالا يجتاز هذا الحرم المقدس او يعتدى على من يرتكب شيئا من هذا . وفى اغلب الظن كان ذلك الارتباط الوثيق بين المعابد والحكومة فيما يتصل بالاراضى المقدسة وليد العصر البطلمى الاول ، فالبطالمة الاولون هم الذين وضعوا هذا النظام او اعادوه الى ماكان عليه . وغاية ماكانت الحكومة تصر عليه هو زراعة هذه الاراضى التابعة للمعابد على احسن وجه والوفاء التام بالايجار المستحق مسددا فى موعده لخزانة الدولة . ولربما لم تكن الحكومة تتدخل فى تقاليد المعابد وطقوسها الدينية .

واهم ماكان يعنى به الملك هو الا تتكلف المعابد اكثر من الدخل الناجم من مواردها والا تكون معتمدة على منح او هبات من الحكومة وفضلا عن ذلك فانه كان حريصا على ان يكون هناك فائض وزيادة فى الدخل حتى يصل الى جيب الملك ويصبح جزءا من موارده المنتظمة وليس فى وسعنا معرفة مقدار هذا الفائض . ولماكانت صيانة هذه المعابد تمثل مهمة باهظة التكاليف فمن المحتمل ان الشق الاكبر من هذا الدخل المتحصل من المعابد كان يعود عليها فى صورة عطاء او راتب (syntaxis) تدفعه الحكومة للمعابد . ونجد حالة شبيهة جدا فيما يتصل بما نعرفه عن ضريبة الابومويرا (apomoira) وهى ضريبة تقدر بالسدس او العشر من حصيلة الكرم والبساتين وكانت تجبى قبل عهد

بيلاديلفوس بواسطة المعابد من اصحاب هذه الكروم والبساتين فلما جاء بطلميوس فيلادلفوس اصدر بوصفه المهيمن على الشئون الخاصة بالالهه والمعابد ، امرا يقضى بان هذا الدخل ينبغى تخصيصه منذ السنة ٢٥٨ ق.م. لتلك العبادة الجديدة لاخته وزوجته ارسينوى الثانية التى رفعت الى مرتبة الالهات بعد وفاتها وصدر القانون الخاص بذلك ضمن القوانين الضريبية Nomoi Telonikoi الخاصة بالتزام جباية الضرائب . ومما لا ريب فيه ان جزءا من هذا الدخل المتحصل من تلك الضريبة كان يصرف على الاغراض المخصصة لذلك ١٠ واذا كانت هذه العبادة الخاصة بأرسينوى قد ادخلت فى جميع المعابد فى مصر كما هو المحتمل ، فان كل معبد كان يتسلم نصيبه او قسطه منها واذا لم يكن الامر كذلك ، فان تلك الاموال كانت تصرف على المعابد الجديدة التى انشئت للالهه الجديدة . وعلى اى حال فانه عند وجود وفر وفائض من هذه الاموال فالحكومة كانت بالطبع تتصرف فيه حسبما يروق لها . وهى فى الحق قد فعلت ذلك فصرفته على اغراض علمانية لاتمت للدين بصلة فدفعت منه اجورا لموظفيها ولدينا الدليل على ذلك فى وثيقة بردية منشورة فى مجموعة بردى زينون المحفوظة بجامعة كولومبيا بنيويورك رقم .(P.Columbia Zenon(٥٥) No 55)

ومع ان معلوماتنا طفيفة عن الارض المرصودة على المعابد فالراجح ان هذا النوع من الاراضى كان يدار طبقا لنفس السياسة وتبعا لنفس الاسلوب المرعى فى الارض الملكية وكان الهدف الاساسى من وراء ذلك كله الحرص على تقديم العون للمعابد باعتبارها نظما اساسية هامة تابعة للدولة وهى المسئولة عن وجودها وبقائها سليمة وميسرة لمن يرتادونها فتؤمنهم على حياتهم وعلى المحافظة عليهم من اى شر يقع عليهم وهم فى داخل محاريبها وحرمها المقدس . واذا حدث ان نجم عن الادارة الحكيمة لهذه الاراضى ان وفت الارض المقدسة بفائض من الايراد وفرته للحكومة ، فانه يكون من حقها ان تستخدم هذه الاموال على النحو الذى يروق لها . وفى ضوء كل هذه الاعتبارات ليس من المؤكد ما اذا كانت المعابد قد باءت بخسارة او حققت فائدة من التفسير

في اوضاعها • ومما لاريب فيه ان المعابد لم يرق في نظرها هذا النظام الجديد الذى كانت فيه اصبح الحكومة ظاهرة في كل الخطوات فقد حرمت المعابد من الهيمنة "الابوية" القديمة التى كانت لها على مواردها وقللت من نفوذ الكهنة في شئون المعابد وفتحت ابواب المعابد على مصاريعها لمندوبي الحكومة الذين كان اغلبهم من الاجانب وليسوا من المصريين • وهذا وضع لم يكن محببا للكهنة بحال من الاحوال ولكنهم قبلوه على مضض وفي نفوسهم غصة وسارت الامور على هذا النحو الى ان حانت الفرص كيما يكيد الكهنة للبطالمة ويبثوا في نفوس المصريين روح الوطنية

والثورة على حكم البطالمة الاجنبي فكانت المعابد بمثابة معاقل للقومية المصرية المتأججة •

الاراضي الممنوحة للضباط والجنود في الجيش البطلمي المرابط :

ان الفلاحين الملكيين من ناحية والمعابد والكهنة من ناحية اخرى ارتبط كلاهما ارتباطا وثيقا منذ اقدم العصور بالحياة الزراعية في مصر ونحن نعلم ان البطالمة واجهتهم مشكلة ذات اهمية بالغة بالنسبة للجيش وتعبئته ودفع رواتب الجند واسكانهم بوصفهم جيشا مرابطا شاء البطالمة له ان يكون تحت ايديهم ورهن اشارتهم في اى وقت ولايتحكم فيهم احد من حكام البلاد التى يستوردون منها الذوات المرتزقة التى كان يتألف منها جيشهم هذا • وبالطبع لم يجل بخاطر أى من ملوك البطالمة الاولين الاعتماد على القوات المصرية المحاربة وطبقات المليشيا من العناصر المصرية التى اطلقوا عليها الاصطلاح اليوناني وهو (machimoi) حسب الوصف الذى نعتهم به هيرودوت وحمله من معانى التحقير والازدراء الشيء الكثير من حيث الملبس والمظهر والتدريب والسلاح ، ماجعل اليونان ينفرون منه ولايعولون عليه • وعلى ذلك لم يدر بخلد البطالمة ان يحولوا هذه الفرق العسكرية الوطنية الى جيش قومي دائم • ومن الجانب الآخر هناك ناحية لها خطورتها — تلك هي الارتباط بالصرف على جيش دائم من المرتزقة ودفع رواتب الجند فتلك كانت تكاليف باهظة للغاية وقد لاتقوى عليها موارد مصر المالية وهى اذ ذاك كانت

لاتزال حديثة العهد بالنقد وتعتمد فى كثير من موارد الحياة على اسلوب المقايضة والتبادل العينى ، فأنى لها بالكنوز الهائلة من النقد للصرف على جيش مرتزق ؟ تلك مشكلة عويصة واجهها البطالمة بحرص وشجاعة واستطاعوا حلها فى شيء كثير من الذكاء والفطنة . وكان المعروف منذ اول الامر ان الحاجة الى وجود جيش مرابط هى حاجة ملحة وان بقاء الجيش فى معسكراته معظم الوقت رهن اشارة الحكومة امر مسلم به . ولحل هذا الاشكال عمد البطالمة الى الاهتداء من ناحية بالتقاليد المصرية ومن ناحيــة اخرى الى تطبيق تجربة الاسكندر وخلفائه وما مارسوه فى هذا الشأن من حيــث الاعتماد الى حد ما على الانموذج اليونانى وبخاصة الاثينى وهو اتباع نظام الكليروكيات (Kleruchies) او الاقطاعات العسكرية الممنوحة للجند من الارض يحوزون اياها ويحصلون على الايراد الناجم من محاصيلها فى مقابل اداء الخدمة العسكرية وتلبيــة نداء الواجب العسكرى متى نُفخ فى البوق ودعا الداعى الى ذلك اما فى التدريب السنوى او فى خوض المعارك .

وهكذا احتفظ ملوك البطالمة المتعاقبين بجيش دائم ومرابط يتألف من المقدونيين والمرتزقة على مختلف جنسياتهم من يونان وكريتين واسيوين ومن على شاكلتهم ممن اصطبغوا بالصبغة اليونانية وكانوا يدفعون الجزء الاكبر من اجور رجال الجيش لا نقدا وعينا كما كان يألفه الناس اذ ذاك وانما عينا فقط وكان هذا بالتخصيص عبارة عن رقع من الارض مقسمــة الى انصبة متفاوتة فى المساحة يستحوذ عليها كل واحد من هؤلاء بحسب رتبتــه العسكرية والسلاح الذى ينتمى اليه من فرسان ومشاة وبحارة فى الاسطول وكانت هذه الرقع تبدأ من خمسة آرورات الى خمسة وعشرين وخمسين وستين وسبعين وثمانين وتسعين ومائة ومائة وعشرين وهكذا فمن الـ Pentarouros , صاحب الفدادين الخمسة الى hekatontarouros . صاحب المائة فدان يونانى الخ وكان المفروض ان الدخل السنوى الناجم من محصول هذه الارض يكفى للوفاء بحاجيات الجند واسرهم فيمدهم بما يلزمهم من اقوات وسبل العيش وعلى اى حال فلابد ان هذا كان يسد رمقهم ويدفع عنهم الحاجة

الى مد أيديهم للغير • وكان الافراد الذين تسلموا من الملك مثل هذه الرقع من الارض يطلق عليهم كلمة اصبح لها مدلولها فى التاريخ البطلمى وهى Klerüchoi اى الحائزون لتلك الانصبة ،صغيرها او كبيرها على حد سواء اما النظم نفسه فيطلق عليه كلمة Kleruchia وقد عرض له عالمان فرنسيان مشهوران اولهما " ليسكيه " Lesquier , Institutions Militaires des Lagides والكتاب صدر سنة ١٩١١ ثم جاء عالم فرنسى آخر فى الخمسينات اسمه " لونى " Launey فاصدر كتابا ضخما من جزئين عن الجيوش الهيللينستية والابحاث المتصلة بها وافرد للبطالمة فصولا مستفيضة Recherches sur l'Armée Hell. عام ١٩٥٠ فمن يريد الاستزادة فى هذا المجال فعليه ان يرجع لهذين المؤلفين • فالموضوع شائق وله . وانب طريفه ويمثل ركنا فى الحضارة البطلمية وواجهة مشرقة ،فالجيش البطلمى لم يكن جيشا عاطلا او متوفرا على الجانب العسكرى من كر وفر وحرب وجلاد وانما كان أداة تحضير وتمدين واصلاح فى مجالات عديدة من زراعة وصناعة وتجارة وبناء وتعمير واقتصاد وتعليم وثقافة ورياضة وموسيقى ، فالجندى اليونانى لم يغفل ابدا عن مباشرة أوجه النشاط المحببة الى قلبه والتى الفها فى بلده • والحكومة البطلمية من جانبها كانت تشجع الجند والضباط على ان يعكفوا على هذه النواحى الثقافية حتى يكونوا مرآة لغيرهم يحاكيها من حولهم من المصريين • ومن هذه الزاوية يمكن ان نعتبر الجيش البطلمى المرابط اداة تحضر فعالة ،فالمصريون اختلطوا بهذا الجيش الذى أقام بين ظهرانيهم واحتكوا بأفراده فى الحقل وفى الجرن وفى السكن فتأثر بهم المصريون من حيث لايدرون •

اما عن الكيفية التى نشأ بها هذا النظم وتوطن فى جنبات مصر على عهد كل من بطلميوس الاول (سوتير) وابنه بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) طوال حقبة تربى على الثمانين عاما وعن الاسلوب التمهيدى الذى طبق به ثم مدى التوسع فيه فانا نعترف ان معلوماتنا فى هذا الشأن طفيفة • ولكن مانستطيع قوله هو التأكيد بأن البطالمة

عندما اقتبسوا هذا النظام ، متأثرين بان الاسكندر اتبعه وان احد خلفائه وهو " سلوقوس" طبقه في الشام فاسكن جنده في جميع بنائله في مدن او في مستعمرات خاصه بالجند اطلق عليها لها كيانها وتستمتع بنصيب من الحكم الذاتي — لم ينحوا نحو هذا الاسلوب وتحاشوا عيوبه التي لم تكن لتخفى عليهم فتجميع الجند على هذا النحو ليس من الحكمه في شيء من وجه النظر السياسيه البحته — اما الجند اليوناني في الجيش المصري فقد روعي في توزيعهم ان ينتشروا في جميع ارجاء البلاد بين قاصيها ودانيها وكانت رقع الاراضي الممنوحه لهم تقع في احيان كثيره في نطاق القرى القديمه او العتيقه وفي احيان في نطاق القرى والبلدان المنشأه حديثا على حواف الصحراء باقليم الفيوم فقط . ولنضرب مثلا حيا على ذلك في نطاق بلده او قريه فيلادلفيا وهي المنشأه الحديثه العهد اتاها ابو للونيوس وزير ماليه فيلادلفوس واتخذ منها انموذجا يحتذى في التخطيط فنسقت شوارعها على النحو الذي نسقت عليه مدينه الاسكندريه نفسها من اتباع الاسلوب الحديث الحديث اذ ذاك الذي خطه المهندس اليوناني هيبوداموس وهو ان تكون على شكل رقعه الشطرنج في شوارعها مستقيمه متقاطعه بها بوائك على جانبيها واحياء سكنيه وشوارع مخصصه لبناء المعابد من مصريه صميمه ويونانيه مجلوبه . وفي نطاق فيلادلفيا هذه اسكن عدد ضخم من هؤلاء الجند سواء منهم كانوا حديثي العهد بالتجنيد او كانوا من قدامى الجند المخضرمين بين مشاه وفرسان ولهم سكرتير خاص بالجند يرعى مصالحهم ويشرف عليهم في نطاق فيلادلفيا وما يحيط بها من قرى متجاوره ولربما كانت رقع الاراضي المخصصه لاولئك الجند في هذا الزمام الواسع لا تمثل جزءا من الهبه او الضيعه التي بلغت عشره الاف من الارورات اسبغها بطليموس فيلادلفوس على كبير وزرائه تقديرا له ولنشاطه .

وكانت هذه الحصص او الانصبه العسكريه الممنوحه لطبقات من الضباط والجند على مختلف مراتبهم تتفاوت في مقدارها بحسب منزلة صاحبها ولربما

روعى فى ذلك الاقدمية فى الرتب والاسبقية فى التجنيد والبلاء الحسن فى القتال والعنصر الذى ينتمى إليه الجندى او الضابط وعلى اى حال فقد اختلفت الموازين التى بمقتضاها كان يتم هذا التحديد لرقعة الارض والثابت انه لم تكن هناك قاعدة واحدة متناسقة فى هذا الشأن وأكبر الحصص كانت فى القليل النادر لاتفوق مائة آرورات وبلغت مائة وعشرين من الارورات • والارض سواء ماكان منها منزرعا اوحديث العهد بالاصلاح والتمهيد للاستزراع • يجرى تسليمها لاولئك الجند والضباط وهى فى حالة لابأس بها •يستطيعون معها ان يبدءوا زراعتها أو إعدادها للزراعة فى القريب العاجل • وبها من وسائل الرى والصرف مايكفى على الاقل للشروع فى زراعتها فورًا ثم على هؤلاء الجند ان يعملوا على ادخال التحسينات بأنفسهم وعلى نفقتهم الخاصة وتحت مسئوليتهم وكانت الدولة تقدم لهم العون الذى تمدهم بالقروض نقدا وعينا وتمهلهم الى سعة حتى يردوا مااقترضوه •

ولما كان اولئك الجند معرضين باستمرار للتعبئة العامة او الاستدعاء (epaggelma) بين حين وآخر اذا مادعا داعى الحرب او لأداء الخدمة فى الحصون والاستحكامات فى أماكن نائية فى مصر أو فى الخارج او لأداء الخدمة العسكرية فى الاسكندرية فى حامية الملك وقوات الحرس الملكى او للقيام بالمناورات فى الصحراء وفى ضواحى المدن — لهذا كله أصبح هؤلاء الجند فى حيرة من أمرهم بين الواجب العسكرى وبين طلب الرزق من استثمار هذه الاراضى على الوجه الاكمل والتوفيق بين الحالين امر صعب المنال •

وعلى اى حال فهؤلاء الجند كانوا بالتأكيد مشغولين عن الارض والزراعة وبخاصة فى صدر العصر البطلمى حيث كانت الحروب الخارجية على أشدها وتكاد تكون متواصلة وعلى مدى سنوات متصلة فبطلميوس الثالث نفسه خرج للحرب عبر الفرات فى بابل لبضع سنين وكانت زوجته برنيقة " البرقاوية " قلقة عليه تذهب كل يوم الى معبد فى كانوبوس (ابى قير) وتدعو له بسلامة العودة وقصت خصلة من شعرها ورصدتها قربانا • ومن هنا طلع الفلكى اليونانى بفكرة نجم الشعرة بعد ان رصد السماء فوجد

لها وكبير وكتب الشاعر الهرقاوى او القيريتى كاليماخوس قصيدته التى اسماها

لم يعد الجند والحالة هذه قادرين على الارض من واجبات اعمال موسيه بل يوميه فهذه الحصص من الارض لابد من حصدها وتشوينها وتسويتها الخ من الاعمال الزراعيه المتواليه . ولذلك ابتدأت يعمد اغلب الجند الى تأجير حصصهم للغير فى كثير من الاحوال ووجد المتطلعين الى تحمل هذا العبء بشغف . وكان زينون (   ) وكيل ابولونيوس والمشرف على ضيعة هذا الوزير فى فيلادلفيا من السباقين الى تحمل الاشراف على هذه الرقع من الارض وكان له دور كبير فى اداره هذه الاراضى الواقعه فى زمام فيلادلفيا والقرى المجاوره . وفى بعض الحالات النادره وبخاصه قبل ان تعمد الحكومه البطلميه الى تخصيص هذه الاراضى للجند بصفه نهائيه كانت الحكومه تضطلع بنفسها زراعه هذه الانصبه من الاراضى ثم تقوم بتسليم المحصول الناتج منها الى الجند وادينا مثل على ذلك فى وثيقه برديه مشهوره هى برديه فريبورج .

ولا تزال هناك تفاصيل عديده متعلقه بهذه الانصبه من الاراضى من يشوبها شىء كثير من الغموض وتحتاج الى مزيد من الشرح والتفسير ومن امثله تلك الحالات التى انقسم فيها النصيب من الارض الى شقين   على اعتبار ان كله   او   معناها واحد النصفين وكان يعامل معامله الحصص الاخرى اى الكليرات   وذلك بان يدفع عنه ضرائب وليس ايجار يوفيه الجندى عن اقطاعيته .

اما النصف الاخر فكانما هو جزء من الارض الملكيه استحق ان يدفع عنه ايجار

(انظر الوثيقه البرديه المنشوره فى مجموعه بردى تبتونيس)

رقم ٧٤٦ .

وفضلاً عن هذه الأنصبة من الاراضي المخصصة للجند على سبيل العطاء او الاجر في نظير انضمامهم في سلك الجندية وهي اساساً جندية محترفة للمرتزقة - كانت الدولة تسبغ عنايتها على الجند فتخصص لهم محلات للسكنى إما في ثكنات أو قشلاقات : Skenae ، Katalyseis أو تنزلهم في بيوتات oikemata يحلون فيها على سكانها الاصليين ويخصص لهم فيها اما النصف او بعض الطوابق او في الحوش المحيط بالمسكن Peribôle ويطلق على هذا النظام كلمة Stathmodosia) والمساكن هي Stathmoi والساكن او النزيل Epistathmos اما صاحب البيت فكان يطلق عليه Stathmouchos او Kyrios . وما أكثر الخلافات والمشاحنات بين المالك الاصلي والنزيل وما أكثر الشكايات التي كانت ترفع اما للملك او لاحد كبار موظفيه ، وتجري تسويتها بالطرق السلمية فان تعذر ذلك تعرض القضية على محكمة Chrematistae او المحكمة المختلطة (koinodikion) للفصل فيها . وفي القرى التي انشأها البطالمة مثل قرية فيلادلفيا كان الامر يسيرا اذ كان من السهل بناء وتشييد مساكن جديدة لايواء اولئك الجند دون مساس بأحد وكان هذا التشييد والبناء على حساب الملك أما في البلدان والقرى القديمة مثل ادفو (Apollonopolis) وضاحية أرسينوي الموجودة في كنفها فقد ترامى الى سمع الملك بطلميوس فيلادلفوس أن الجند يتصرفون تصرفات سيئة ويعيثون بحقوق الغير ولا ينتظرون حتى تخصص لهم المساكن بواسطة الموظف المختص وهو مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) وهو المكلف بتوزيع المساكن على الجند ثم يحلون على الاهالي وانما يستخدمون القوة الغشومة (bia) ويقتحمون البيوت ويطردون سكانها الاصليين ويحلون محلهم وقد كتب الملك بهذا المعنى الى سكرتير اولئك الجند وكان يسمى أنطيوخوس (Antiochus) بأن يمنع حدوث مثل هذه التصرفات مستقبلا والا يعطى الجند من السكن الا ماهو ضروري وانه اذا ما طلب الى هؤلاء الجند بأن يذهبوا للتدريبات العسكرية فعليهم ان يعيدوا المساكن الى حالتها الاولى والا يغلقوها ويضعوا

الاختلم عليها كما لو كانت ملكا لهم وحتى يعودوا إليها مرة ثانية وإنما يعيدونها الى حالتها الاولى ، ذلك أن المساكن العسكرية هي ملكية وملك للملك

" hoi gar stathmoi basilikoi oisi "

تلك هي الجملة اليونانية التقليدية التي وردت أكثر من مرة في الاوامر الملكية التي اصدرها بطلميوس فيلادلفوس خاصا بتنظيم موضوع إسكان الجند . ثم " ختم بطليموس خطابه الى انطيوخوس بأن يبعد الجند عن قرية " أرسينوى " بقدر المستطاع واذا لزم الامر فعليهم ان يبنوا لأنفسهم بيوتا oikemata من اللبن كما كان يفعل اسلافهم في مثل هذه الظروف . ولعل السبب في كل هذه المتاعب قلة مواد البناء وفقر البلاد في الاخشاب وضرورة استيراد الاخشاب الصالحة من شجر الأرز من لبنان وسوريا. وزاد الطين بلة كثافة السكان وضيق الرقعة السكنية مما دعا الى احلال الجند في بيوت الاهالي بمقتضى أوامر صادرة من الملك وكان هذا التصرف مدعاة الى الاحتكاك وسببا في الشحناء والبغضاء بين الطرفين ، بل وفي العراك الدموي بين طرفي النزاع . وهكذا شهدنا منذ الايام الاولى في حكم البطالمة نظام إسكان الجند وما جره من مساوئ ، بإحلال الجند على الاهالي دون جريرة أو ذنب اقترفه صاحب المسكن الاصلي وعلى ذلك يمكن القول ان إسكان الجند بهذه الطريقة التعسفية والعشوائية كان يمثل عيبا خطيرا في النظم العسكرية البطلمية ومصدر اثارة للاهالي باستمرار ولعل التشريع الذى اصدره بطلميوس يورجتيس الثاني عام ١١٨ ق.م . وسوى به الخلاف مع زوجته كليوباترة الثانية وانهى الحرب الطاحنة بين الطرفين ، خفف من هذه المشكلة بإعفائه بعض الطبقات من ان يحل عليها نزلاء، وتلك الطبقات هي الجند ثم الكهنة ثم القطارون للجعة والعصارون للزيوت ورعاة الاوز المقدسة والنساجون ورعاة الخنازير. واستثنى أصحاب البيت الواحد من تحمل هذا العبء وجعل نصف البيت الثاني إن وجد، هو الذى يمكن ان يحل فيه أحد من أولئك الجند .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد لم يكن قصد البطالمة أن يجعلوا من الجند ملاكـــا حقيقيين لتلك الانصبة من الاراضى التى أقطعوا اياها وتلك الحلات السكنية التى حلوا عليها او نزلوا فيها كانت كلها عقارات ملكية ، أعطيت على سبيل المنحة القابلة للاسترداد فى أى وقت حسب رغبة الملك فلم يكن للضابط او للجندى الحائز لنصيب من هذه الارض او الساكن فى نصف بيت او طابق منه او الحديقة المحيطة بالمنزل ، إنْ وجدت ، ان يتصرف بالبيع او الرهن او الهبة او التأجير من الباطن او الاستدانة على هذا السكن فهذا كلـه محرم نهائيا ، وهناك عقوبات صارمة بدفع خمسة أمثال او ثلاثة امثالها قـدأ خذه على سبيل الغرامة (prostimon) وفضلا عن ذلك اذا طرد زميله مستخدما فى ذلك القســوة الغشومة (apobiasameno) دفع عن السكن الاصلى ثلاثين درا خمة عن كل شهر وستين دراخمة عن السكن فى الحديقة عن كل شهر طوال المدة التى أُدين فيها بأنه ارتكب هذه الحماقة وطرد زميله . على انه فى واقع الامر اذا سارت الامور على مايرام وساد الوئام بين الطرفين كان الضابط او الجندى يترك وشأنه متمتعا بما حازه من ارض وسكن ، لا يكدر صفوه احد ولا يدفع ايجارا عن هذا السكن فهو منحة من الملك لا أجر عليه ، إلى ان يموت الجندى فينتقل الوضع الى ابنه من بعده والى زوجته فتبقى فى مكانها . وفى الواقع كنا نجد فى بعض الحالات ان الابن يمثل كشريك مع ابيه فى دفع الايجار عن النصيب من الارض ويشار اليه على انه شريك (sygkleros) (انظر بردية منشورة فى مجموعة المتحف المصرى فى مجموعة بردى زينون P.Cairo Zenon NO 59001 هامش على السطرين ٤٦ و ٥٠١

وكان الجنود الحائزون لأنصبة من هذه الاراضى يدفعون العديد من الضرائب المستحقة على هذه الانصبة وكانت بعض هذه الضرائب أشبه بما تكون بتلك التى كان يدفعها الفلاحون الملكيون وهاهى بعض هذه الضرائب : ضريبة التاج (stephanos) وضريبة معتدلة على الارض المنزرعة مقدرة بعدد من الارادب (artabieia) وضريبة لصيانـــة الجسور (chomatikon) واخرى للخفارة والحراسة (phylakitikon) وضريبة فى نظير الخدمة الطبية (iatrikon) ولربما كانت هناك ضرائب اخرى بخلاف

تلك الضرائب المعتادة التى كان يشارك فى دفعها باقى السكان فى مصر . ولم يكن اولئك الجنود الحائزون لأنصبة من الاراضى عرضة للقيام بأعباء وتكاليف اجبارية ولكن الملك كان حرا فى ان يطلب اليهم أداء اى خدمات غير اعتيادية على سبيل السخرة leitour-gia) فى حالات الطوارئ والملمات ، شأنهم فى ذلك شأن باقى السكان فى مصر .

وهذا النظام الخاص بتخصيص رقع متفاوتة فى مساحتها من الاراضى المنزوعة لطوائف من الجند والضباط من اجل توفير سبل العيش والرزق لهم وتزويدهم بمورد محترم يدر عليهم دخلا منتظما ويجعلهم فى غير حاجة لمساعدة الغير ، تطلب قدرا كبيرا من الاشراف الادارى المتواصل فالحائز منهم لحصة او نصيب من هذه الارض (Kleros) كان مسئولا امام الحكومة عن زراعتها وكان بدوره يخضع لرقابة شديدة من رؤسائه وكذلك من الموظفين فى السلك الادارى . وعلى سبيل المثال كانت القاعدة بخصوص التقاوى وبذور القمح (sitos) التى كانت الحكومة تقدمها على سبيل القروض ، يجرى تطبيقها عليه كذلك . ومع ذلك فالجندى الحائز لنصيب من الارض كان اكثر حرية من الفلاح الملكى فى كيفية تصريفه وادارته لهذا النصيب . اما نظام الدورة الزراعية diagraphe tou sporou او التوزيع الرسمى للمحاصيل ، فلم يكن مطبقا على هذه الانصبة العسكرية . وفيما عدا بعض المحاصيل (وهى النباتات الزيتية وربما الحشائش) كان الحائز لنصيب من هذه الاراضى حرا فى فلاحة ارضه على النحو الذى يروق له . وإنا لنعرف أن بعضا من هؤلاء ، بدلا من زراعة الحبوب ، حولوا انصبتهم وحصصهم من تلك الاراضى او جزءا منها على الاقل الى كروم واحراش الزيتون او حدائق . ولعلهم عمدوا الى هذا التصرف بعد الحصول على اذن خاص من الحكومة وبالشروط المألوفة المطبقة بالنسبة لغرس الارض (kataphyt-eusis)

على ان الملك كان مع ذلك يعتبر نفسه صاحب هذه الانصبة من الاراضى وحقه فيما تخرجه هذه الاراضى من بطونها وماتلفظه من انتاج يأتى فى المقام الاول . وكما هو الحال بالنسبة للفلاحين الملكيين ، كانت المحاصيل يتم التحفظ عليها بوضعها تحت اعين الحراس الى ان يتم الوفاء بدفع جميع الضرائب المستحقة على هذا الجندى الحائز

لذلك النصيب • ولايحق له ان ينقل لمسكنه نصيبه من هذه المحاصيل او يزيحه من الحقول او الاجران حتى يحصل على تصريح بالافراج عنها (aphesis) من الموظفين الملكيين •

كان هدف البطالمة من انشاء النظام " الكليروكى " القاضى بتخصيص حصص وانصبة من الاراضى لطائفة الجند كيما ينتفعوا بنصيب مما تنتجه هذه الاراضى على سبيل الاجر العينى عن تلك الخدمات العسكرية يؤدونها للدولة — يرمى الى تحقيق عدة اغراض • بعضها سياسى وبعضها الاخر اقتصادى • وقد المحنا الى بعض منها من قبل • وهناك اعتبارات اخرى منها ان ندرة العملة المسكوكة قد تكون احد الدوافع الى اتخاذ هذا الاجراء • وان لم تكن هى الباعث الاساسى • وهناك امور اخرى ذات اهمية بالغة من اولاها تلك الرغبة الاكيدة فى ربط افراد الجيش بمصر وجعلهم يتخذون من هذا الوطن بلدا امينا لهم ثم هناك الرغبة فى اقامة علاقات وثيقة ووطيدة بين الملك والجيش • ويأتى فى المقام الثانى حرص الحكومة على ادخال اساليب جديدة فى العمل الزراعى وابتداع روح اقتصادية وعلمية مجلوبة من الخارج وبثها فى ارجاء البلاد فتدب فيها روح متطورة • ومن المؤكد ان اولئك الجند الحائزين لأنصبة من الاراضى لم يكونوا ملاكا بعيدين عن اراضيهم غير آبهين باقطاعاتهم هذه • بل على العكس اظهروا رغم بعد الشقة اهتماما بالغا بأراضيهم هذه وهى مصدر رزقهم الاساسى • وفى مكاتبات زينون وأرشيفه المشهور رسائل عديدة دالة على مبلغ الاهتمام الشديد الذى كان يظهره هؤلاء من خلال رسائلهم لزينون ولغيره من الشخصيات فى نطاق فيلادلفيا عما شيدوه واقاموه من مساكن وبيوت ريفية جديدة • زينت ونسقت على احدث الطرز المرعية فى الاسكندرية تحيط بها الحدائق والزرائب وطليت جدرانها بالجص وزينت حجراتها بالارائك • وفضلا عن ذلك فقد كان اولئك الجند يعنون بما كانوا يربونه من ماشية وطيور ودواجن وكانوا يزرعون فى اراضيهم من اشجار • وكان هؤلاء قد الفوا حياة الريف واخذوا يترددون عليه بين حين وآخر • وكان بعض هؤلاء من الخبراء المهرة فى شئون الزراعة وغرس الكروم واشجار الزيتون وتربية الاغنام والماشية • وعلى ذلك رحبوا بأن يصبحوا اصحاب اراضى زراعية فى ريف مصر مرة اخرى والعودة الى العمل الذى الفوه واحبوه ولو على فترات

متقطعة . ولابد أن نذكر ان بلاد اليونان وآسيا الصغرى كانت لاتزال الى حد كبير بلاد لا تقوم فيها الحياة الاقتصادية على الزراعة . واخيرا كان البطالمة يبغون ان تبقى الاموال التى تسلمها جنودهم كأجر او كنصيب لهم من الاسلاب والمغانم او بمعنى آخر تبقى جميع مدخرات هؤلاء الجند فى مصر ولاينبغى ان تتسرب الى الخارج وانما تصبح محبوســــة او مستغلة فى البلاد — وافضل نوع من الاستغلال هو تشغيلها فى الارض التى ربما بقيت رقع فسيحة منها دون زراعة لو لم يتم تنفيذ مثل هذا الاجراء . والعمل الزراعى فى مصر كان دائما عزيز المنال بينما مدى اتساع رقعة الارض الزراعية في البلاد قابل للزيادة باستمرار . فكلما توفر الماء والرجال الاكفاء وانعقدت العزيمة على بذل الجهد ، زادت رقعة الارض المنزرعة واتسع نطاقها .

أراضى الهبات (Doreai)

ان نفس هذه الاعتبارات الآنفة الذكر هى التى حدت بالبطالمة الى ان يسبغـوا اراضى على موظفيهم المدنيين فمنحوا هبات شاسعة من الاراضى على سبيل العطايـــــا (doreai) . وكان البطالمة الاولون وبخاصة بطلميوس فيلادلفوس قد توسعوا فى اسباغ هذه المنح والهبات ، فمنحوا اعوانهم الكبار فى الشئون العسكرية والشئون المدنية . وقد وردت اشارات عديدة الى مثل هذه الهبات فى المصادر التى فى متناولنا ومعرفتنا بواحدة منها وهى ضيعة أبولونيوس فى الفيوم ومركزها فيلادلفيا ، وثيقة بفضل ذلك الارشيف مــن وثائق البردى الذى عرف بأرشيف زينون . وقد جاء حاويا لأكثر من الفين من الوثائـــق البردية فى شتى الموضوعات العامة والخاصة وبذلك القى اضواءا ساطعة على ذلك النشاط المحموم الذى بذل فى استصلاح اراضى هذه الضيعة وغرس الاشجار فى جنباتها حــتى اصبحت جنة فيحاء واصبحت قبلة انظار الزائرين من مصر والخارج . وقد سرد لنا العالم الروسى " رستفتزف " فى كتابه : A Large Estate in Egypt الوانا من الحياة فى هذه الضيعة وفصل لنا تلك الجهود المبذولة فى اصلاح الاراضــى وكان يستقى معلوماته من الوثائق البردية التى كانت تحت تصرفه عام ١٩٢٢ عندما اصدر

كتابه هذا . وبعد هذا التاريخ ظهرت مئات الوثائق التى تحكى لنا الوانا اخرى شائقة من الحياة فى خضم هذا المجتمع الزاخر بالنشاط . وفضلا عن الميل الطبيعى لدى المالك البشرى فى ان يربط اعوانه ومساعديه الاساسيين برباط وثيق عن طريق الهبات السخية ، فان الدافع الاساسى الذى اوحى الى البطالمة فى تقديم مثل هذه الهبات هو الرغبة فى ان يجربوا نظام الضياع الفسيحة عند المقدونيين والفرس ، جنبا الى جنب الطريقة التقليدية عند اليونان وهى توزيع انصبة صغيرة متواضعة (kleroi) كوسيلة لتحسين وسائل استغلال مصر . وكانت مثل هذه الضياع الفسيحة تمنح لأكثر اعوان الملك نشاطا وأشدهم تدبيرا . وكان الملك يتوسم فيهم القدرة على تطبيق نفس الاساليب التى يطبقها الملك فى باقى الاراضى وتشجيعهم على اقتباسها والعمل بمقتضاها فى ضياعهم الكبيرة . وهنا يجب ان ننوه ان هذه الضياع كانت قابلة للاسترداد ، شأنها فى ذلك شأن الكليرات . وكان اصحاب هذه الضياع فى الحق يجمعون بين صفة الملاك و "الخوله" الذين ينوبون عن الملك ويعملون وحى اشارته وينفذون تعليماته . ومما لاريب فيه ان هذه الضياع كانت محاور ارتكاز ومناطق ارشاد ، أفادت منها البلاد كثيرا .

الارض الخاصة والمملوكة : ge idioktetos = ktemata

وهذه الارض تعتبر ملكية فردية او بالاحرى هى بمثابة ذلك فالأصل أن كل شيء في مصر مملوك للملك وهذه تعتبر اذا ، ملكية اعتبارية ، إن صح استعمال هذا القياس . ليس هناك اقل شك فى انه بالاضافة الى مثل تلك الملكيات الواقعة فى نطاق اراضى المعابد ، كان هناك قطع عديدة من الارض متناثرة فى جميع ارجاء مصر ، يملكها الافراد ، فالمساكن والبيوت والكروم والحدائق والبساتين كان يطلق عليها . وازا كلمة ktemata اى املاك وذلك فى صدر العصر البطلمى . وبخلاف ذلك ، كانت هناك رقع من الاراضى المنزرعة حبوبا وبخاصة فى صعيد مصر ، يجرى فيها البيع والشراء والرهن والوصية ويتم هذا كله بمنتهى الحرية . ومعنى هذا انها كانت تعامل ، تحت سمع الحكومة وبصرها ، معاملة الاراضى ذات الملكيات الخاصة . وليس لدينا من الوسائل ماتستطيع به التعرف

على اصل هذا النوع من الاراضى ، ولربما كان أُصلها يرجع الى ايام الفراعنة ثم زاد عددها بالتأكيد فى عهد الحكم الفارسى . وعلى اى حال فعلى قدر علمنا ، لم يعمد البطالمة الى مصادرة هذه الاراضى او اتخاذ اى اجراء من هذا النوع فيما يتعلق بهذا الشق من الارض المملوكة وانما آثروا قبول الاوضاع الراهنة . وفى هذا المجال كما فى غيره من القانون المدنى بوجه عام ، لم يحاول البطالمة على الاطلاق استحداث تغييرات جوهرية او تعديلات اساسية .

وفى الحق انهم منذ البداية كانوا يشجعون على التوسع فى ملكية الارض الخاصة ، فالارض التى كان يكنى لها بالاسم الاتى : gé idioktetos وهى التى قامت الحكومة ببيعها للافراد كانت من مبتكراتهم وكانوا هم الذين اقروا ونظموا ايجار الاراضى بدعوى التوارث فسمحوا بالمضى فى زراعة الارض emphyteuma لورثة المستأجرين باعتبار ان هذا حق مشروع لهم . وكان فى رأى ملوك البطالمة ان فى وجود نفر من الناس ممن يوصفون بانهم ملاك اراضى ، حازوها بنفس ما اوتوه من تدبير ونشاط ، كفيل بأن يسعى هؤلاء الى زيادة رقعة الارض المنزرعة وتحويل اجزاء من البلاد الى كروم وحدائق وبساتين غناء . وهذا من شأنه ان يعود بالخير العميم على ملوك البطالمة ويكون فى صالح مصر والبطالمة كانوا بالطبع فى حاجة الى طبقة من الناس ممن توافر لهم قدر من الغنى والثراء حتى يمكن الاعتماد عليهم او على الاقل على بعض منهم كموظفين وملتزمين وضامنين لهؤلاء الاخيرين وهذا تكفل الدولة الحصول على استحقاقها . على ان وجود هؤلاء " الاعيان " بأعداد كبيرة فيه ضمان لحسن سير العمل وتأديتهم لما يوكل اليهم من خدمات واستعدادهم لتقديم مايملكون من اراضى على سبيل الضمان . وبالطبع لم تكن تلك الارض الخاصة معفاة من الضرائب . وقد حرصت الحكومة على ان ترقب زراعتها وان يتم ذلك على الوجه الاكمل بحسب الخطة الموضوعة ونظام الدورة الزراعية . ومن امثلة ذلك ضمان زراعة المحاصيل الخاصة فى زماماتها اذا لزم الامر ثم ان الحكومة كانت تصر كذلك على الوفاء بتسديد الضرائب

بانتظام . وفى الحالات التى ثبت فيها العجز عن الوفاء بهذه الالتزامات ، كان المالك يتعرض الى المصادرة وبيع هذه الاراضى وفاء لما استحق عليها من ديون . وقصة ديوان " الاديولوجوس" (Idios Logos) وهو الموظف الكبير الذى انفرد بامساك حساب خاص لصالح خزانة الملك منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد . تميز بما ابداه فى القرن الاول قبل الميلاد من نشاط ملحوظ فى اعمال المصادرات وبيع الاراضى على نطاق واسع وظهور ملاك جدد ، سارعوا الى اقتناء مايباع وامنوا على ملكيتهم فى هذه الارض المشتراة من الحكومة — هذا كله يضفى معانى كثيرة على مدى التطور فى ملكية الارض — وقد قيل ان عهد الملك بطليموس (١٢) اوليتيس او الزمار والد كليوباترة (٧) شهد توسعا فى بيع الاراضى فهذا الملك المفتون والمتلاف كان فى حاجة ماسة الى الاموال ليقدمها رشاوى الى زعماء الرومان وقادتهم ليضمنوا له ملكه وعرشه المهتز او ليردوه اليه عندما طرد منه عام ٥٨ ق.م . وردوه بالفعل عام ٥٦ — ٥٥ ق.م .

تلك كانت الاوضاع المختلفة لنظام الاراضى فى مصر البطلمية وهذه هى اساليب استغلالها او اقطاع بعض منها للغير . ويتضح من ذلك ان الحكومة كانت لها الهيمنة التامة والاشراف الدقيق على شئون الزراعة فى جميع انحاء البلاد وليس هذا بعجيب لانه من الارض الزراعية كانت الحكومة تحصل على دخلها الرئيسى . فالايجار (ekphorion) وما كان يضاف الى ذلك من مختلف الضرائب ، بخاصة ضرائب صغيرة . كان يدفعها " الفلاحون الملكيون وبعضها الاخر كان يدفعها الجنود الحائزون للاراضى والملاك الخصوصيون ثم ضريبة $\frac{1}{3}$ ٣٣٪ على الكروم ثم ما كان يضاف الى ذلك من ضريبة الابومويرا (Apomoira) وهى السدس او العشر على الانتاج من الكروم والحدائق والبساتين كل هذه الضرائب مجتمعة كان يؤلف بغير شك موردا فى موارد الدخل المتنوع لاقصى حد عند البطالمة . وكانت جميع الطبقات من اصحاب الاراضى والحائزين لانصبة منها تساهم بنصيب معلوم فى هذا الدخل .

ومع ذلك فليس فى وسعنا ان نقول ان البطالمة الاولين عندما شرعوا فى تنظيم الحياة الزراعية ، كانوا ينفذون خطة موضوعة ومرسومة باحكام فى تاريخ مسبق وان هذه

الخطة كانت تقوم على مقدمات نظرية فى قياس منطقى • لم يكن هناك فى اغلب الظن شيء من هذا والا كانوا يتعثرون فى تنفيذ خططهم الموضوعة مسبقا • وهم يعتبرون ناجحين فيما صح عزمهم عليه فى سياستهم الزراعية •

وواضح انهم عند اعادة تنظيمهم لهذا الفن من الاقتصاد المصرى كان رائدهم عدة اعتبارات مختلفة ، سبق ان المحنا الى بعض منها • إنهم ارادوا مضاعفة الانتاج كيما يزداد دخلهم وحرصوا على الاحتفاظ لانفسهم بأكبر قدر ممكن من الانتاج الزراعى ولكنهم كانوا يرغبون فى الوقت نفسه الا يتورطوا او يبالغوا فى السير فى هذا الاتجاه فالشطط فيه محفوف بالمخاطر وكانوا يخشون دائما اثارة النفوس ويعملون على تجنب معارضة الناس ، سواء أكانت هذه المعارضة سلبية او ايجابية • ولذلك يبدو انهم ادخلوا شيئا كثيرا من التعديلات والتحسينات فى اسلوب جباية الضرائب المستحقة على الاراضى • وفى قوانين الجباية بطريق الالتزام وهى التى اصدرها بطلميوس فيلادلفوس عام ٢٥٩ - ٢٥٨ ق•م• وعرفت بالاسم (Nomoi Telonikoi) فاستحدثوا الشيء الكثير من الضمانات من قبيل الحرص على ألا يفلت احد او يظلم فلاح ، فراقبت الموظفين وكفلت العدالة المطلقة حتى لاتثور ثائرة الشعب • وبالاختصار يمكن القول ان هذه القوانين جعلت نظام جباية الضرائب افضل مما كان عليه واكثر كفاية• على ان البطالمة عرف عنهم انهم كانوا ينفرون من هجر التقاليد القائمة والعادات الصميمة المتوارثة فى البلاد • وقد حاولوا ان يكون للحكومة الاشراف المباشر على اكبر قدر من رقعة الارض المنزرعة ، ولكنهم فى الوقت نفسه ، كانوا حريصين على عدم الاضرار بمصالح طوائف مهمة من السكان وبخاصة رجال الدين وتلك الجموع الهائلة من الملاك الخصوصيين للاراضى وهم سند ودعامة قوية للحكومة • حقيقة ان البطالمة انفسهم كانوا يسترشدون باعتبارات سياسية واقتصادية توخوها عندما اوجدوا فى محيط الارض الزراعية " بذورا " عديدة وجديدة من الملكية الخاصة ، سمحوا باقتطاعها على حساب الارض الواقعة تحت اشرافهم المباشر وفى هذا مافيه من تفتيت للقوى ، وفى هذه

"الجزر " اراضى الهبات والحيازات الخاصة بالجند والاراضى المملوكة ملكية خاصة وهذه كلها تمثل رقعة فسيحة ، وقفت الدولة منها موقفا حذرا وقد ضمن البطالمة لانفسهم دخلا لابأس به من هذه الاراضى " ذات الطابع الخاص " وكانوا دائما يباشرون نوعا من الاشراف على ادارتها ولكنهم تجنبوا بقدر المستطاع الاساءة الى مصالح اصحابها او اثارة نفوسهم • ولا يجب ان تنسى ابدا ان ملوك البطالمة اعتبروا انفسهم اسياد البلاد وحكامها الاوتوقراطيين ذوى الحول والطول وانه ينبغى على جميع سكان البلاد اطاعة اوامرهم طاعة عمياء وقد اسبغوا على الموظفين المدنيين بعضا من تلك السلطات المخولة لهم • ومع هذا كله فقد كانوا فى ادارتهم للارض الخاصة بهم وهى الارض الملكية ، يقفون احيانا مكتوفى الايدى ، صابرين ومتحاملين على انفسهم ازاء ذلك الاجراء التقليدى والاحتجاج السلبى الذى كان المصريون كثيرا مايلجأون اليه اعلانا عن سخطهم واستيائهم وكثيرا ماعمد الفلاحون الملكيون الى هذا الاحتجاج الصامت ضد بعض التصرفات الظالمة من جانب رجال الادارة والمشرفين على شئون الزراعة من " نوماركيين " وغيرهم فيعمدون الى الاعتصام بالمعابد والفرار اليها ويكفون عن العمل وهذا مايعرف بالكلمة اليونانية (anachorésis) اى الذهاب الى فوق او اعلى باعتبار ان المعابد كانت تبنى دائما فى الاماكن العالية حتى لاتصل اليها مياه الفيضان فتغطيها او تغمرها وهناك طريقة اخرى بديلة وهى انكى واشد وتلك يعبر عنها بكلمة (ekchoresis) اى الفرار من قرية لاخرى والاختفاء والتوارى عن ابصار الحكومة اما فرارا من دفع الضرائب او عصيانا عن العمل وبين حين وآخر يتردد فى الوثائق صدى هذه الظاهرة التى كانت تشل حركة العمل وتضيق بها الحكومة ذرعا ولاتجد من سبيل الى استعمال القوة او تعمد الى البطش بهؤلاء الغاضبين ، ذلك ان الحكومة كانت تسوى هذه الاوضاع ، لا بالعنف والاكراه ، وانما بالحسنى والتفاهم الودى • وخلاصة الموقف ان البطالمة اقاموا فى حكمهم لمصر نظاما اشبه مايكون فى كثير من الوجوه بنظام التحكم والسيطرة (étatisme) المتضمن اشراف الدولة وسيطرتها فى العصر

الحديث على وسائل الانتاج ولكن من الانصاف للبطالمة ان نقول إن نظامهم لم يكن صارما او شديد الصرامة ولا متسما بضيق الافق .

أراضي المراعي :

بالاضافة الى الارض الصالحة للزراعة والكروم والبساتين ، كان ملوك البطالمة اصحاب جميع اراضي المراعي (nomai) وادعوا لانفسهم الحق في التصرف في الكلأ الاخضر الذى ينمو فى الاراضي المنزرعة وفي الحقول كمحصول تكميلي بعد انتهاء فصل الحصاد ، وبتوافر مثل هذه الموارد العظيمة فى الكلأ امكن للبطالمة ان يستحوذوا بالطبع على قطعان وأسراب من مختلف الحيوانات المستأنسة ، فمن ابقار وثيران تستخدم في اغلب الاحوال في إعداد الارض وفي الحقول وفي زراعتها ومن حمير ودواب تستخدم كوسيلة سهلة للنقل ومن اغنام وماعز تربى بالالاف من اجل صوفها ولبنها ومن خنازير للأضاحي واوز مقدس وغير مقدس وبالاضافة الى هذه الحيوانات التقليدية المستأنسة فى مصر يمكن ان نضيف أنواعا كثيرة من الدجاج واصطبلات خاصة بالخيول كانت تزود منها فرق الفرسان بما يلزمها من خيول ثم هناك حظائر الفيلة المخصصة للأغراض الحربية والفيلة هي بمثابة دبابات العصر القديم ثم هناك اعداد ضخمة من الجمال التى جلبها البطالمة الى مصر .

الزيوت ونظم الاحتكار فى مصر البطلمية

الزيوت هي افضل مثل معروف لدينا عن كيفية تطبيق نظم الاحتكار فى مصر البطلمية وذلك بفضل ماوصل الينا من معلومات في وثيقة الالتزام فى جباية الضرائب حيث جاء قانون (nomos) منظم لعملية الالتزام في النباتات الزيتية (elaike.Wne) جاء به تنظيم لهذا النوع من الاقتصاد الملكي المطبق فى عصر بطلميوس فيلادلفوس(٢٥٩ــ٢٥٨ ق.م.) ومابعده . والقانون الذى جاء فى هذه الوثيقة ، أفرد لموضوع الزيوت واطلق عليه nomos elaikes ويكاد يكون كاملا بالمقارنة الى القوانين الاخرى فى هذا

النص البردى حيث وردت فقرات مهمة بها بعض التعليمات الخاصة بضريبة النبيذ المخصص للمعابد وتقدر بالسدس او العشر وتسمى ضريبة الابوموار (apomoira) ثم جاءت كذلك قصاصات أخرى مبتورة بها بعض التعليمات الخاصة بصناعة المنسوجات من صوف وكتان رفيع وقنب (eriére , othoniera, styppia) وقصاصات خاصة بالمصارف (trape-zitike) واخرى خاصة بصناعة الجعة والشراب المستخرج من الشعير) ويسمى (Zytera) واخرى خاصة بضريبة المرعى (ennomion) • تلك هى المجالات التى تناولتها قوانين الالتزام فى جباية الضرائب ، المبتور منها وغير المبتور وهى فى مجموعها تمثل سلسلة فريدة من القوانين التى وصلت الى ايدينا مصوبة ومصححة فى ديوان وزير المالية أبوللونيوس ولربما كان القانون الاصلى يرجع وقت اصداره الى الحقبة الاولى من عهد بطلميوس فيلادلفوس او ربما مرده الى عصر بطلميوس سوتير •

والقدر الذى يعنينا هنا هو المتصل بالنباتات الزيتية وقد اطلق عليه كلمة شاملة elaiké اى الضريبة على الزيوت وهو فريد فى بابه من حيث انه ورد كاملا وبذا اتاح لنا فرصة التعرف فى شىء كثير من التمعن والافاضة على سياسة بطلميوس فيلادلفوس والكيفية التى كانت تطبق بها ثم ربما كذلك على سياسة سوتير فى هذا الشأن •

وهذا القانون الخاص بالزيوت nomos elaikés كان ينظم كيفية التصرف فى الناتج او الحصيلة من النباتات الزيتية المختلفة والكيفية التى كان يتم بها عصر هذه النباتات والجهات المسئولة عن عصرها ومدى الرقابة المفروضة على المعاصر وعلى العمال المشتغلين فيها • واكثر النباتات الزيتية انتشارا فى مصر هى السمسم وزيت الخروع (croton) والعصفر او الزعفران الكاذب والقرطم والقرع المسلى وبذر الكتان • والمادة الخام يمكن الحصول عليها من الفلاحين وفى كل عام كانت المساحة المقرر زراعتها من كل صنف يجرى توزيعها بواسطة السلطات الحكومية على مختلف المحافظات

ثم تقوم السلطات المحليه على مختلف القرى وتقوم الاجهزه الاداريه في القريه بتوزيعها على افراد الفلاحين وهذا كله بمقتضى دوره مألوفه فيها تحديد لكل شيء فى ذلك الكميات الواجب زراعتها لكل نبات والجسور التى لصالحها ونمع هذا التخطيط فكان يخصص عدد معين من الاروات ويقدر بالالاف) لزراعه نوع معين من هذه النباتات الزيتيه او صنف اخر مع مراعاه صلاحيه الارض وجودتها وملائمتها لهذا النوع او ذاك • وفى خارج النطاق المخصص لها لم يكن يجوز لاحد ان يزرع شيئا من هذه النباتات • اما كامل المسئوليه عن التنفيذ التى تتسق للنداء الموسومه من حيث بذر البذور طبقا للقاعده الموضوعه فكانت تقع على الجهاز الادارى وكان كل فلاح يتسلم من الحكومه البذور المطلوبه وعليه ان يقوم بردها الى الحكومه عند الحصاد فكانت المحاصيل تجبى تحت عين الحكومه وبصرها ورقابه الموظفين والملتزمين والضامنين لتعهدات اولئك الملتزمين وهم (الذين هم المسئولون فى اخر الامر عن الانتاج من هذا الالتزام ( ) وكان المحصول يتم كيله ويدفع ربعه كضريبه اما ما بقى فكان يسلم الى الملتزم الذى كان عليه ان يدفع للفلاحين ثمن المقادير التى تسلمها منهم وذلك بحسب تسعيرفه مقرره (وضعها الملك واعلنها على الناس من قبل • وكان الملتزم بدوره ملزما بأن يسلم المقادير التى حصل عليها من الفلاحين الى الحكومه بنقلها الى شون الحكومه ومنها الى معاصر الزيوت التابعه الحكومه وكانت هذه المعاصر موجوده فى المدن والقرى ولم تكن الحكومه تسمح بوجود معاصر خاصه فيما عدا الاستثناء الوحيد وهو المعاصر التى تخص المعابد فهذه كانت تحتفظ بمعاصرها الخاصه ولكنها كانت مضطره الى تسجيلها والاستئذان عند تشغيلها لفتره معلومه كل عام تحت اشراف الملتزمين والموظفين فى عصر مقدار معين من زيت السمسم فى معاصرها الخاصه وللاستهلاك المحلى داخل المعابد • ويتم هذا العصر طوال فتره محدوده هى شهران فقط اما باقى العام فكان ينبغى ان تبقى هذه المعاصر معطله وقد وضعت عليها الاختام للحيلوله دون استخدامها اما اذا كانت هذه المعابد فى حاجه الى شيء من زيت الخروع (فعليها ان تقوم بشرائه من الملتزمين •

ولم يكن مسموحا للمعابد بحال من الاحوال القيام ببيع الزيوت •

كانت معاصر الزيوت التى تعمل لحساب الملك ، تخضع لرقابة دقيقة من قبل الحكومة ثم من قبل الملتزم • وكانت جميع المعاصر مسجلة ويجرى وضع الاختام على مالم يكن مستعملا منها ،كما كانت توضع الاختام على جميع الآلات المعطلة فى هذه المعاصر • وكان العمل الذى يتم فى هذه المعاصر يجرى تنظيمه بواسطة الملتزم والموظفين الاداريين • وكان المفروض ان يقوم هؤلاء بتزويد كل معصرة بالقدر الكافى من المواد الخام بلا زيادة ولا نقصان فى القدر الذى يكفى لتشغيل هذه المعاصر فعلا وكانوا مسئولين كذلك عن قدرة كل معصرة ودرجة كفاءتها فى اداء المهمة الموكولة اليها • اما عن مركز العمال فى هذه المعاصر وهم العنصر البشرى المهم وكان يطلق عليهم كلمة (elaiourgoi) فقد كانوا احرارا وليسوا عبيدا أو اقنانا • ولكنهم مع ذلك كانوا خاضعين لا شراف دقيق، انهم كانوا يعملون فى المعاصر فى فترة محددة طوال فصل التشغيل او العمالة • وبينما هم منكبين على العمل فى هذه الحقبة كانوا ملزمين بأداء هذا العمل والبقاء فى الاماكن التى توجد فيها هذه المعاصر ،فلايحق لهم مغادرتها او الخروج عن نطاق مكانهم فى المحافظة التى ينتمون لها • وكان الملتزم والموظفون الاداريون هم اصحاب السيطرة (kyrioi) فى فصل العمالة هذا وهم الذين يتحكمون فى المعاصر وهكذا كان اولئك العمال تحت السيطرة التامة فى فصل العمالة وهم يتسلمون فى مقابل العمل الذى يؤدونه مكافآت تقدر بحسب مايقومون بعصره من الارادب من مختلف البذور واذا حدث فى نهاية فصل العمالة ان وجد فائض (épigenena) فان العمال كانوا يحصلون على هذا الفائض مكافأة لهم على نشاطهم •

والمركز الدقيق الذى كان عليه اولئك المشتغلون فى معاصر الزيوت ليس واضحا ولا جليا ، فهم ينتمون الى طبقة ضخمة من اناس لهم ارتباط وثيق بموارد الدخل العام ويكنون بالاسم الشائع الاتى : " epipeplegmenoi tais prosodois

وهؤلاء يمثلون فئة من الناس لها نصيب من الامتيازات كما حملت ببعض الالتزامات والقيود التى تعوق حركتها ، اسوة بما كان عليه الفنيون الملكيون . ومع ذلك فليس هذا التصنيف بكاف فى تعريف وتحديد المركز القانونى لهؤلاء الصناع . ونظرا لعدم وجود معلومات دقيقة فى هذا الشأن ، فالغالب على الظن انهم كانوا من الحرفيين المهرة ، المدربين على العمل فى هذه الحرفة ، ولربما كانوا ينتظمون فى نقابات او طوائف مهنية ، ترعاها الحكومة البطلمية ، على اعتبار انها مؤلفة من افراد كانوا يؤدون مثل هذا العمل على مدى اجيال ، فحذقوا واصبحوا ممن لا يستغنى عنهم .

والقول بأنه فى صدر العصر البطلمى ، ربما وجدت معاصر وعدد وآلات ، يمتلكها افراد ولكنهم فى استعمالهم لها مقيدون ، بصرف النظر عن ماهية مركزهم القانونى ، يدل على انه فى ماضى ليس بالبعيد كان هناك عصارون للزيوت من اولئك الذين عملوا فى معاصرهم الخاصة ولو لبعض الوقت . وفى زمن ما ، لعله فى عصر البطالمة الاولين ولربما قبل ذلك ، اصبح محرما تماما على الافراد انتاج زيوت من اى نوع كما حرم على الحرفيين من عصارى الزيوت القيام بعصرها لحساب الافراد ، وبذلك اصبح عصر الزيوت امتيازا خاصا ، انفرد به الملك وحده ، ولم يعد امام الصناع المهرة والحرفيين فى هذا المجال الا ان ينضووا فى خدمة الحكومة . اما عن مركزهم القانونى الغريب — وهو المنطوى على حالة اشبه ما تكون بنصف العبودية — فان الشك ليساورنا فى اعتبارها من مبتكرات البطالمة ، والافضل كثيرا ان نقول انها كانت من تراث الماضى ومرجعها الى ذلك الوقت الذى كانت فيه الطوائف الحرفية (guilds) فى المعابد وفى المدن والقرى تعمل ولو جزئيا على اى حال من اجل الالهة والملك فى معاصر كان اغلبها ملكا لهم .

السياسة الخارجية التى انتهجها ملوك البطالمة الاولـــــون

لكى نقدر السياسة الداخلية التى سار عليها ملوك البطالمة الاولين ونتعرف على كنهها بحيث يكون فى تقديرنا هذا توخى ..ادة الصواب ويكون هدفنا الوصول الى تقدير سليم بقدر المستطاع ، ينبغى علينا ان نحاول النظر فى التعرف على حقيقة المنهاج الذى رسموه لهذه السياسة فى شتى ميادينها الادارية والاقتصادية والزراعية والضريبية فهدف البطالمة من وراء هذا الاستغلال الشديد لشتى موارد البلاد كان بعيد المدى . ولعلنا نستطيع ان نجتلى شيئا من الحقيقة اذا ألقينا نظرة ، ولو عابرة ، على حقيقـــة السياسة الخارجية كيما نتعرف على الاهداف التى كان البطالمة يرمون اليها من وراء الزج بانفسهم فى معترك السياسة الخارجية التى كانت فى مد وجزر فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط فى مدى اكثر من ربع قرن عقب وفاة الاسكندر الاكبر فى عام ٣٢٣ ق.م . ان هذه السياسة كانت متأثرة الى حد كبير بالاغراض والاهداف التى داعبت خيـــال الملوك البطالمة الثلاثة الاولين ، فبغيتهم واهدافهم والمركز الذى كانوا يحتلونه فى عالم تسوده الحضارة الهيلينسية حتم عليهم سلوك طرق محفوفة بالمخاطر وكبدهم خــوض حروب عديدة . ولاسف الشديد ليست لدينا اية بينات واضحة او كاشفة عن كنة هذه الاهداف ، وانما نستطيع ان نسترشد ببعض الحقائق والامارات والتصرفات والتحركـــات التى صدرت فى شتى المجالات وذلك على الرغم من اختلاف التفسيرات وتباين الآراء .

أولا : هناك رأى يقول بأن سياسة البطالمة الخارجية كانت عدوانية وهجوميـــة (Offensive) وقد انبرى العالم الالمانى الريخ فلكن (Ubrick Wilcken) فى مطلع هذا القرن للدفاع عن وجهة النظر هذه . وفى رأيه ان غرض الحكم البطلمى فى مصر كان ينطوى على الحصول على أقصى مايمكـــن من ثروات مصر كيما تكون البلاد فى وضع يمكنها بفضل هذا الثراء العريض وهذه المــواد الطائلة وبفضل جيش قوى واسطول ضخم من ان تقوم بدور رئيسى فى معترك السياســـة الخارجية فى حوض البحر المتوسط . ولا ينبغى علينا وسط هذا الخضم ، ان ننوه عنـــا

حقيقة مهمة وهى ان مصر وسط هذه الامبراطورية المترامية الاطراف والممتدة من برقة غربا الى قبرص شمالا والى فلسطين وسوريا الخالية Coele-Syria = سهل البقاع (لبنان) شرقا ثم اجزاء من سواحل آسيا الصغرى وبعض جزر بحر الارخبيل — كانت مصر فى نظر البطالمة هى المورد الرئيسى والمعين الذى لا ينضب وهى مصدر الخصب العميم وحاصلاتها متنوعة جديدة ومتجددة وصناعاتها وحاصلاتها مطلوبة ويخلص العالم الالمانى " ألريخ فلكن " الى حقيقة مهمة وهى ان الهدف من وراء هذا كله والغرض الاسمى من انتهاج هذه السياسة هو العمل لصالح سياسة خارجية بعيدة عن مصر ومعنى هذا ان مصر كانت وسيلة وليست غاية فى حد ذاتها • على ان هذا المبدأ كانت تكتنفه صعاب وقد تكبدت البلاد شططا وغرقت فى حروب واطماع لا طائل من ورائها • وقد تجنى البلاد المصرية بعض الثمار من وراء ملك شاسع وامبراطورية مترامية الاطراف ولكن هذا كله على حساب مواردها • وقد يكون فى هذا تأمين لحدود البلاد وابعاد بعض الاخطار عنها •

ثانيا : هناك رأى آخر يطلع به علينا عالم روسى الاصل • متأمرك اسمه ميخائيل روستفتزف (M.Rostovtzeff) ولهذا العالم باع طويل فى الدراسات فى التاريخ اليونانى الرومانى وله نشاط ضخم فى هذا المجال وله كتب موسعة وخبرة عميقة بالمصادر الاصلية والنصوص البردية والنقوش المختلفة عن هذا العصر ولا سيما مايخص مصر والممالك الهيلينستية • ومن اجل ذلك ينبغى ان نقيم وزنا كبيرا لآرائه على الرغم من انها جاءت متعارضة تماما مع آراء العالم الالمانى فلكن وفى رأى روستفتزف ان الفكرة الاساسية التى كانت رائد ملوك البطالمة الثلاثة الاولين : بطلميوس الاول (سوتير) ٣٠٤ — ٢٨٤ ق•م • وبطلميوس الثانى (فيلادلفوس) ٢٨٤— ٢٤٦ ق•م • وبطلميوس الثالث (يورجتيس الاول) ٢٤٦ — ٢٢١ ق•م • تأرجحت وتراوحت بين المد والجزر والاقدام والادبار وقد خيل الى هؤلاء الملوك الثلاثة امكانية تكوين امبراطورية مترامية الاطراف • قوامها مصر كمحور ارتكاز • والهدف من وراء ذلك مصر المستقلة وهى آمنة مطمئنة من غائلة الاعداء الخارجين ــــ

الشمال او الجنوب • ولكى تضمن سلامتها وتؤمن جانبها ،كان لابد عليها ان تكون سيدة فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ،كيما يتحقق لها الاشراف والسيطرة على الطرق البحرية الموصلة لمصر • وهذه المهمة فى حد ذاتها كانت صعبة المنال ويعتريها شيىء من التعقيد • وفى عهد الفراعنة طوال عهد الاسرات فى الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة كان التطلع الى الاستحواذ على الشاطىء السورى كفيلا بحمل الضمانات اللازمة لتأمين البلاد ولكن فى خلال الالف سنة قبل الميلاد كانت هناك تطلعات نحو آسيا الصغرى وحدث نمو فى القوة البحرية لدى اليونان مما اغرى حكام مصر بمد نطاق نفوذهم السياسى الى حوض البحر المتوسط كله ولم يكن هذا بقصد الغزو والفتح او التحكم فى مصائر اليونانيين فى بلاد اليونان او فى آسيا الصغرى وانما كان بغرض المراقبة الدقيقة للقوات البحرية وكبح جماح اليونانيين حتى لايقطعوا المواصلات البحرية عن مصر ويحولوا بينها وبين شواطئها الشمالية وشواطئها الشرقية فى كل من الشام وآسيا الصغرى • على اى هذه السيطرة كانت تتطلب ايجاد اسطول قوى وهذا يحتاج بدوره الى موارد طبيعية هائلة لاتتوافر فى مصر ومن ذلك الاخشاب من اشجار الارز بلبنان والمعادن من قبرص • ولما كانت الاخشاب والمعادن هى الشرط الاساسى لبناء اسطول قوى وينبغى استيرادها او الحصول عليها من الخارج فان خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى التحكم والسيطرة فى مصير البلاد المنتجة لهذه السلع وفيها الغابات والمناجم • ولعل هذا هو السبب فى ان مصر احتفظت وينبغى ان تحتفظ دائما بسيناء وتطلعت فى وقت ما الى سوريا الخالية وقبرص وبعض اجزاء من سواحل آسيا الصغرى والاناضول كاريا وليكيا (Lycia) • وهناك سبب آخر لايقل اهمية عما سبق وهو ان قوة مصر وثروتها تعتمد على التجارة الخارجية ورواجها وانتظامها • ولكى تستطيع مصر الحصول على مايلزمها من الجنود المرتزقة وهم عدة الجيش فى ذلك الحين ،ثم تحتفظ بأسطول قوى ،كانت فى حاجة ماسة الى خزائن مليئة بالاموال للصرف على هذا الاسطول ، وهذا لايتأتى الا برواج تجارة خارجية ،تحصل منها على الذهب والفضة ثم ان هذه التجارة نفسها كانت تتطلب توفر السيطرة البحرية لتأمين الطرق التجارية•

وعلى ذلك كان فلكن يرى ان هجومى وعدوانى طابعه مقدونى وهيلينى ورجع اصله ونشأته الى مواطن بعيده كل البعد عن مصر فالامبراطوريه هى الغايه القصوى ومصاصر الا الوسيلـــه الى تحقيق هذه الغايه وتتلخص هذه السياسه فى كلمه السانيه راحده ذكرها فلكن وهى ومعناها السياسه التى هدفها تكوين امبرا اوريه عالميه اما بحسب ما ذكره رستفنزف فـــان تلك السياسه الامبرايا ليه كانت سياسته فاعليه بحته ذات طابع اقتصادى وكان يتعين بمقتضـــاها ان تكون سلامه مصر ورواج تجارتها هما الهدف من وراء هذه الامبراطوريه التى كانت مجـــرد وسيله لتحقيق غايه .

وبالاضافه الى هذه الاراء المتعارضه والنظريات المطروحه بساط البحث هناك فكره ثالثـه قوامها ان الملوك البطالمه الثلاثه الاولين كان ينسب اليهم توفر اطماع توسعيه بقصد ازديـاد رقعه املاكهم الى حدود العالم المأهول بالسكان وانهم كانوا يتشبهون احيانا بالاسكندر الاكبر فى طموحه الى تكوين امبراطوريه عالميه . وصاحب هذه النظريه هو عالم المانى يسمـــى كورنمان (   ) .

على ان مبلغ علمنا عن الاجراءات والتصرفات التى قام بها بطلميوس الاول بن لاجوس وهـــو الملقب فيما بعد بلقب المخلص (   ) تكاد لا تبرر ماقد ينسب اليه من هذا الحلم العريـض فهو رجل حصيف عرف عنه انه جالت بخاطره بعض الاطماع ولكنه كان حريصا ، يتلمس الخطى قبـل الاقدام على شئ وكان يعرف جيدا من اين توكل الكتف فكان يقدم احيانا ثم يدبر احيانا اخـرى وكان اذا ما المت به كارثه ، ياوى الى مصر وهى القوقعه التى كان يحتمى فيها حتى يزول الخطـر . رجل من هذا الطراز لا يمكن ان تنسب اليه اطماع بعيده المدى . قد تكلفه غاليا وهو الشخـــص الذى اختار مصر بمحض ارادته لتكون نصيبه فى ملك الاسكندر باعتباره احد هؤلاء الخلفـــاء (   ) وكان على راسهم برديكاس (   ) وفيهـــــم

سيلوقوس (Seleucus) وانتيجونس (Antigonus) وانتيباتـــر (Antipater) وكاسانذر (Cassander) وليسيماخوس (Lysimachus) وغيرهم . ومن بين كل هؤلاء القواد وقع اختيار بطليموس على مصر وآثر ان يفوز بها دون غيرها من دولة الاسكندر وقد حكمها اولا بالنيابـــة ، لا بالاصالة ، فكان الوالي عليها بوصفه ساترابا (Satrap) اى مرزبان من قبل صاحب الحق الشرعي وهو ابن الاسكندر الرضيع من روكسانا (Roxane) الزوجة الفارسية التي كان الاسكندر قد تزوجها في آخر حياته وكان هذا الطفل هو الاسكندر الرابع ويشترك معه في هذا الملك المريض كوصي ، اخ غير شقيق للاسكندر اسمه فيليب اريدايوس (Philip Arrhidaeus) ولكن بطليموس مالبث ان تنكر لمبادئ الحكم وتخلص البرمي من ابن الاسكندر ومن اخيه وخلا الجو لبطليموس بعد عام ٣٠٥ ق.م . فاعلن بطليموس نفسه ملكا على مصر منذ عام ٣٠٤ وبقى متربعا على هذا العرش حتى وافته المنية عام ٢٨٤ ق.م . وفي خلال هذه الفترة التي امتدت عشرين عاما ، نهض فيها بأعباء جسيمة منها اتمام بناء مدينة الاسكندرية ومتابعة شن حروب في مختلف الميادين ، فضم برقة الى مصر وضم قبرص الى حكمه وكذلك بعض جزر بحر الارخبيل . ومن خلال كل هذه التصرفات والاعمال العمرانية التي اضطلع بها ، يمكننا ان نجتلي حقيقة الطبيعة التـــى كان عليها هذا القائد المغوار وماكان يتحلى به من صفات الرجل الذى أوتى قدراً عظيما من الكفاية والمقدرة الهائلة . انه كان يغلب السياسة على حمل السلاح وكان يؤثر استخدام اللين واستعمال الدهاء والتصنع حتى يحقق آماله وكان يعرف الممكن وغير الممكن . حقيقة انه جالت بخاطره المطامع ملكية ، مثله في ذلك مثل باقي زملائــه واقرانه . وفي سبيل ذلك عمد الى استخدام العزيمة التي لاتكل ولاتفل ـ كل هـــذا في هدوء وأناة وصبر ، لايعرف الكلل ولا الملل . انه بطليموس بن لاجوس وامه ارسينوى ومنبته يرجع الى اصل مقدوني نبيل فهو اذاً كريم المحتد ، تربى وسط الغلمان الملكيين في بلاط مقدونيا ، وكان رفيقا للاسكندر في جولاته وصولاته وابدى قدرا عظيما مـــن الاخلاص والوفاء للاسكندر عندما اختلف مع ابيه فيليب الثاني . وكان يبدو عليه الثبـــات

والهدوء في تصريف الامور التي كانت توكل اليه . وقد اظهر شجاعة منقطعة النظير في شتى المناسبات في صدر شبابه . فلم تبهره عظمة بلاد الشرق ولا ابهته . وقد بقى طوال حكمه في مصر محتفظا بطابع الرجل المقدوني المتسم بالبساطة . حقيقة انه كان مخلصا وفيا للاسكندر في حياته ولكنه لم يكن شيئا من الاخلاص على الاطلاق لاخ للاسكندر هو فيليب اريدايوس الذي عرف بالعته ولا يؤمن بابن للاسكندر من ام فارسية فتنكر له . وكان اول من قلب ظهر المجن لفكرة وحدة الامبراطورية والمحافظة على كيانها ولذلك قضى فترة حكمه في مصر في حروب طاحنة وكفاح مرير مع كل من كانوا يودون المحافظة على هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وكان هذا من المبادئ الاولى التي كان يؤمن بها في سياسته . ولكنه بعد ان ضمن لنفسه الاستقلال بمصر والاستئثار بها ووطد مركزه فيها ، بل وفي اثناء اشتغاله بالدفاع عن هذا الاستقلال لوادي النيل ضد برديكاس وغيره من زملائه ونظرائه ، وجدناه ، يحاول بسط نفوذه على البلدان المجاورة وهي البلدان التي تعتبر امتدادا طبيعيا لوادي النيل مثل ، فلسطين وبرقة وسوريا الخالية وتم له بالفعل الاستيلاء على برقة بمجرد ان جاء الى مصر واليا عليها ثم لما ثبت اقدامه في مصر ، اتجهت كل جهوده الى تحقيق السيطرة على فلسطين وسوريا الخالية وفينيقيا ثم تحققت له السيطرة على قبرص . وهذا البرنامج المريض هو الحلم الذي جال بخاطر الجالس على عرش مصر ولا يخرج عن المنهاج الذي ارتآه العالم الروسي رستفتزف . اما السيطرة على جزر السكلاديس (Cyclades) او الجزر الدائرية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط ثم فرض الاشراف على شواطئ آسيا الصغرى عن طريق اخضاع كيليكيا او الاناضول وكذلك شواطئ كاريا (Caria :) فهذا كله من الامور التي يمكن ان نجد لها تفسيرا ومبررا في ضوء ذلك البرنامج الذي وضعه بطلميوس الاول واختطه لنفسه ولم يحد عنه ولكن الامر الذي لا نجد له اي مبرر ولا نستطيع ان نجد له تفسيرا مقنعا ، ذلك هو اقدامه ومغامرته في ٣٠٩ — ٣٠٨ ق . م . بالتدخل في شئون حرية اليونان والعبث بها ومحاولته فرض سيطرته في شئون شبه جزيرة البلوبونيز وكورنثه وسيكيون — من ان هذا كله مما يدخل قطعا في مجال

المغامرات المحفوفة بالمخاطر من اجل تكوين امبراطورية عالمية والرغبة الاكيدة فى فرض السيطرة على عالم بحر ايجه • ولكن هذا الحلم كان مجرد حدث عارض داعب خيال بطلميوس فى تاريخ حياته الطويل • فلما بدأت السحاب وقامت العراقيل وتلبدت السحب امام ناظره فى بلاد اليونان كف عن ذلك وتعلق فى وادى النيل الى حين وما لبث ان عدل عن الاهتمام بمثل هذه المشروعات ذات الافاق البعيدة وعاد ادراجه الى الاسكندرية فلم يغب عن خاطره لحظة أن مصر هى القلب النابض ، والدرة التى ينبغى ان يفتديها بكل شيء ويركز كل اهتمامه عليها ومع ذلك فلم يشأ ان يؤسس فيها غير مدينة واحدة هى بطلمية فى جنوبها لتكون منارة فى الصعيد •

وسياسة مؤسس دولة البطالمة ، تقدم لنا صورة عامة وغير متكاملة او رسما تخطيطيا لما ينبغى ان يكون عليه الامبراطورية البطلمية فى مستقبل ايامها على عهد ابنه وخلفه بطليموس الثانى ، اذ تحقق بالفعل له حكم هذه الامبراطورية لاول مرة بعد الاسكندر • فماذا كان طابع هذه الامبراطورية وما مداها ؟ هذه اسئلة قد تعرض للباحث• ونحن لا نعرف شيئا كثيرا عن شخصية بطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس (Philadelphus) اى المحب لاخته وزوجته الثانية أرسينوى الثانية ولذا لا يمكننا التعرف على حقيقة مآربه ومقاصده ومدى الخطط التى كان يضعها البلاط السكندرى فى عهده • ذلك ان الكتب التى دبجها المؤرخون القدامى عنه وعن تاريخ حياته وفترة حكمه قد ضاعت ثم ان شعراء بلاطه وهما ثيوقراطى (Theocritus) وكاليماخوس (Callimachus) كانا حريصين على تقريظه ونشر القريض عنه والتغنى بأعماله • وتوخى كل منهما المبالغة والافراط فى المديح له ، ولذلك لا يمكن التعويل على احد منهما والاعتماد عليهما فى اعطائنا صورة حقيقية عن اعماله ومآربه ، بله مدى امبراطوريته والبلاد التى دانت له وهو يحكم مولده واحقيته فى وراثة العرش ، لم يكن مؤهلا لتولى الملك فى مصر ، لانه كان ابنا لامه برنيقه وهى الزوجة الثانية لبطليموس سوتر وكانت الزوجة الاولى هى يوريديكى (Eurydice) ابنة انتيباتر قد ولدت لسوتر ثلاثة ابناء آخرين اكبرهم

بطلميوس الصاعقة (Ceraunos _) ولكن الملك العجوز مالبث ان اصبح عطفه على ابن الزوجة المفضلة لديه وهو برنيقه وكان هذا الطفل قد ولد فى جزيرة صغيرة تسمى قوص (Cos) احدى جزر مجموعة الجزر المتفرقة (Sporades) وقوص هذه جزيرة مستعرضة واقعة على مقربة من ساحل آسيا الصغرى صوب الجنوب وكان مولد هذا الطفل فى هذه الجزيرة فى عام ٣٠٩ ق٠م٠ عندما كان والده يعد العدة لحملة يعتزم شنها على بلاد اليونان واضطر ان ينقل بلاطه الى هذه الجزيرة ليكون على مقربة من ساحة العمليات العسكرية فى بلاد اليونان فكان مركز قيادته واركان حربه فى هذه الجزيرة ٠ وكان من حسن الطالع ان هذا الامير الصغير حظى بأحسن قسط من التعليم وتلقى تعليمه على يد خير المربين والمعلمين وهم الشاعر فيليتاس (Philetas) من اهل جزيرة قوص ثم النحوى زينودوتس (Zenodotus) والرواقى استراتون (Straton) من اهل لامساكوس على الشاطئ الجنوبى من البسفور ٠ لقد نشأ هذا الشاب فى وسط كله ملق ومداهنة ولذلك ليس بعجيب انه كان تواقا الى الاعتداد بالنفس مليئا بشيء كثير من الغرور انه ان يحق ٠ رجلا مثقفا ٠ حريصا على صداقاته مع رجالات الادب والفكر حتى اصبح يلقب بكلمة دالة على كل هذه المعانى وهى (mousikotatos) اى اكثر الناس تعشقا لربات الفنون (Musae) ونحن نعلم من ثنايا وثائق البردى التى ترجع لعصره وهى كثيرة جدا ومن اهمها ذلك الارشيف الهائل المعروف بأرشيف زينون ٠ ان هذا الملك كان محبا للعلوم الطبيعية حريصا على اقتناء الحيوانات الاليفة وبخاصة الغريب منها ٠ فكان الاوراء وشيوخ القبائل فى فلسطين وبلاد ماوراء الاردن وبخاصة الشيخ المشهور ويسمى " طوبيا " يقدمون له الهدايا فى شتى المناسبات من هذه الاصناف الغريبة ٠ ثم انه كان من جانبه لايتوانى عن ان يبعث رسلا لاصطياد الفيلة والغزلان وشتى انواع الحيوانات الغريبة من وسط افريقيا ومن اثيوبيا واعالى نهر النيل وكان يحتفظ بهذا الصيد النادر فى حديقة الحيوانات بالاسكندرية ٠ ثم ان هذه النزعة فى حب الاحتفاظ بهذه الطيور والحيوانات الغريبة صاحبتها رغبة ملحة فى اقامة المهرجانات والاحتفالات

والمواكب ذات المبهجة والروعة في شتى المناسبات بالاسكندرية وكان لايضن بشيء ، بـل يصرف بسخاء ليكسب هذه المهرجانات طابعا من الابهة • ولدينا الشيء الكثير مـن المعلومات عن هذه الاحتفالات ففي وصف رائع خلده كاليكسنوس (Callixenos) وذكره أثينايوس (Athenaeus) وردده كتاب عديدون من قبيل التدليل والاشارة بحكم هذا الملك ومبلغ ماكان له من عظمة الشيء الكثير ، فاذا ماطالعنا هذا الوصـف الرائع في كتاب أثينايوس وجدنا موكبا فخما حرص هذا الملك على اقامته في حلبة الالعاب (الاستاديوم) بالاسكندرية في المناسبة الثانية من عيد الاسرة البطلمية (Ptolemaeia) وهو عيد يحتفي به كل خمس سنوات ويطلق عليه كلمة دالة على فترة الخمس سنوات هـذه وهي (Pentaeteris) وهذا العيد الخمسي الثاني اقيم في عام ٢٧٩ ق•م• تخليدا لذكرى الالهين المخلصين (Theoi Soteres) • وهناك وصف رائع آخـر ذكره ثيوقريتوس في قصيدة راعوية هي القصيدة الخامسة عشرة من سلسلة قصائده التـي كان يتغنى بها الرعاة • وذلك في مناسبة عيد أدونيس Adonis وهو شاب جميل كان ابنا لملك قبرص ثم أحبته الالهة افروديتي الهه الجمال وكان من سوء حظه انه وهـو يصطاد، قتله دب بري. وفي الاسكندرية كان يحتفى به في مهرجان رائع بمناسبة زواجه من افروديتي ثم في اليوم التالي كان النسوة يحملن صورته متوجهات او ميممن صوب ساحـل البحر وسط نواح وصراخ وعويل، بكاءا على فقده وحظه العاثر وفي آخر المطاف يسـوق لنا نصوص البردى العديد من الشواهد والادلة على مدى اهتمام هذا الملك بتلك المواكب وهذه المهرجانات وماكان يشاهد فيها من مناظر خلابة تستهوى ايضا الناظرين وتبهرهم بما كانت تنطوى عليه من عظمة هذا الملك واتساع ملكه وسلطانه • وقد اتحفنا مؤخرا عالم بريطاني هو فريزر (P.Fraser) بشروح مستفيضة في كتاب صدر له منذ بضع سنوات عنوانه " الاسكندرية في عصر البطالمة " (Ptolemaic Alexandria) اوضح فيه ماكان يجري في هذه المهرجانات من مواكب وماكان يراعى فيها من طقوس ومراسم لمختلف العبادات واخصها عبادة الاله ديونيسوس (Bionysus) • ولدينا في أرشيف زينون

وثيقة بردية تحمل خطابا موجها من وزير المالية ابوللونيوس الى عاملة المقيم بفيلادلفيا مركز ضيعته باقليم الفيوم وفيه طلب عاجل بأن يوافيه بالهدايا المقدمة الى الملك في مناسبة عيد ميلاده او في احد الاعياد والمواسم الاخرى التي كانت تتكرر على مدار السنة وكان يحاكي هذا الوزير آخرون من اعيان البلاد في تقديم الهدايا في مناسبة عيد التاج وغيره • ولاينبغي علينا ان ننظر الى هذه الوقائع على انها كانت حالات فردية ، لايؤبه بها وانما ينبغي ان نأخذها في الاعتبار لما تكشف عنه من ادلة على عظمة هذا العصر وعلى نوعية المجالات والاهتمامات التي كان الملك يعني بها ويوليها اهمية خاصة •

ان هذا الملك الشاب كان على النقيض من والده من حيث الجسارة والاقدام والمسارعة الى امتشاق السلاح والسير على رأس جيشه في المعارك وميادين القتال ، ففي القليل النادر كان ظهوره في ساحة القتال وكان غالبا مايعول على قواده فيكل اليهم تلك المهام • اما هو فكان يؤثر الاهتمام بشئون الدبلوماسية والسعي الى تحقيق اغراضه واهدافه عن هذا الطريق ، بدلا من حمل السلاح • على ان السياسة التي انتهجها في اول الامر كانت موحى بها من قبل اخته وزوجته الثانية وهي ارسينوي الثانية وكانت تلقب بحبيبة اخيها اي انها فيلادلفوس (Philadelphus) ثم اسبغ هذا اللقب على اخيها وزوجها فيما بعد فأصبح يعرف بطلميوس فيلادلفوس وكانت ارسينوي هذه امرأة قديرة ترتعد لها فرائص الاخرين من شدتها وجبروتها وما اتصفت به من القدرة على الحزم والصرامة • انها كانت تكبر اخاها بسبع سنوات وكان لها نشاط جم وان كان في كثير من الاحيان غير مستحب اما اخوها وزوجها فكان بالنسبة لها كالحمل الوديع وكثيرا مايوصف بأنه مثل ابوللو له خصائل من الشعر الاشقر ، الذهبي اللون وكان يمثل بأنه الشخص المنهمك في الملذات ، ذو الصحة المعتلة والحريص باستمرار على ان يحيط نفسه بالملذات والمباهج — تلك هي الصورة التي ابرزها لنا استرابون في موسوعته التاريخية — الجغرافية عنه (٧٨٩) وقد يكون في وصف استرابون هذا شيء كثير من الصدق ولكن هذه الصورة برمتها لاتمثل الحقيقة ، فبطلميوس الثاني كان اعظم ملوك البطالمة على الاطلاق وسياسته التي اتبعها ازاء روما

عندما وقع الخلاف بينها وبين جارة مصر من الغرب وهى قرطاجة (Carthago) (تونس حاليا) فى الحرب الاولى بين روما وقرطاجة (٢٦٤ ـ ٢٤٢ ق٠م٠) تدل على حصافة وبعد نظر وكانت تربطه بروما اذ ذاك صلة صداقة وبينهما معاهدة منذ علم ٢٧٣ تؤكد هذه المودة والصداقة (Amicitia) فلما وقع هذا الخلاف وتمخض عن حرب سافرة ، أثر ان يكون واسطة صلح بين الطرفين وان يقوم بدور الوسيط الذى يود اصلاح ذات البين بين الطرفين ولم يشأ ان ينحاز لاحدهما ٠ وهذا دليل على منتهى الحيطة والحذر من جانب هذا الملك الشاب ٠

ولما توفيت اخته وزوجته فى شهر يوليو من علم ٢٧٠ ق٠م٠ حزن عليها حزنـا كثيرا ، افتقد فيها ذلك العقل الرزين وتلك اليد القوية البارعة ٠ وقد حكم بعد ذلك منفردا ، مكتفيا بأن يحيط نفسه بالخليلات والمحظيات من مثيلات بيليستيشة (Belistiche) التى حصلت على جائزة فى علم ٢٦٨ ق٠م٠ فى سباق جر العربات الذى عقد فى اوليمبيـا ببلاد اليونان وليس فى وسعنا ان نتعرف على سبيل اليقين ماذا كانت فئة من هـــؤلاء النسوة الخليلات او بعض وزرائه المقربين من امثال ابوللونيوس (Apollonios) وزير ماليته (dioecetes) المشهور الذى بقى فى منصبه طول الخمسة عشر سنة الأخيرة من حكم هذا الملك من ٢٥٩ حتى ٢٤٦ ق٠م٠ كان لهم نصيب معلوم فى توجيه السياسة وتسيير دولاب الاعمال ودفة الحكم الداخلى ٠ وهناك امر نعرفه عن بطلميوس فيلادلفوس على سبيل اليقين وهو ان هذا الملك العظيم لم تكن عينة تغفل عن اى شئ ولم يعرف عنه انه اهمل شيئا من صغائر الامور مما قد يؤثر فى تحريك دولاب اعمال ديوانه وانــه كان قابضا على ناصية الحكم بيد قوية وان عهده شهد بيروقراطية اصبحت مضرب الامثـال فى سياسة الحكم البيروقراطى ، تسير دفتها بمنتهى الدقة حتى قيل ان هذا الملك كـان يدرى عما يجرى فى انحاء مصر وانه لم تكن تفوته لا شاردة ولا واردة ، فكان يعرف مايجـول بخواطر الناس وماتجيش به نفوسهم من اقصى البلاد فى الجنوب حتى اطرافها النائية شرقا وغربا ٠ فهو اذا كان الملك القدير والادارى العظيم ، ولايمكن ان يجاريه احد من ملوك

البطالمة في هذا المجال ، ولدينا مثل رائع على مدى اهتمامه بموضوعات جانبية منها موضوع اسكان الجند (Stathmodosia) وتوطينهم بمنحهم رقعا من الارض تزيد وتنقص بحسب الرتب العسكرية وهو النظام الذي عرف بالاسم الاتي (Kleruchia) وهذا النظام له شقان : مسكن وقطعة من الارض توفر له القوت كبديل عن الراتب والاجر ، فكان نظاما ابتدع لهذه الافواج الهائلة من الجنود المرتزقة ليوفر عليهم وعلى الحكومة عناء البحث عن سكن ومورد للرزق وهم جنود مجلوبون من الخارج من كريت ومن مقدونيا ومن آسيا الصغرى ومن شتى جزر بحر الارخبيل حضروا لينضووا في خدمة هذا الملك السخي في معاملة الجند ودفع رواتبهم واغداق شتى المزايا عليهم وكان هدف الملك ان يحتفظ بهذا الجيش المرابط تحت تصرفه وتحت طلبه في اى وقت ، فدبر لهم الاقوات والبدائل عن الرواتب وعين لهم المساكن والثكنات وكان اسلوبه هذا فريدا في نوعه ، وعمليا واقعيا في حقيقته ، افاد به مصر ونهض باقتصادياتها عن طريق الاستعانة بطائفة من اليونان والاغريقين المثقفين ، في فلاحة الارض والاعمال الهندسية والعمرانية التي ترتبط بالزراعة ثم في تحضير وتمدين الجمهرة الغفيرة من السكان المصريين الذين كان يعيش بين ظهرانيهم اولئك الجنود والضباط في حياة ريفية رتيبة فاستفادوا وافادوا . ولدينا خطاب موجه من الملك الى احد هؤلاء القادة العسكريين والمسئول عن فرقة من الجند هو انطيوخس (Antiochus) وكان يحوز نفسه قطعة كبيرة من الارض ويلقب بصفة دالة على ذلك فهو myriarouros اى صاحب الف اروارت عشرة ، والارورا فدان يوناني يساوى ٦/١٠ من الفدان المصري وكان eponymous commager — اى ينسب اليه الجند ويتبعونه باعتبار انه هو الذي جلبهم (جندهم) ، كتب اليه الملك خطابا منشورا ضمن مجموعة من اوراق البردي التي نشرتها جامعة المانية هي هالي (Halle) وتسمى (Papyrus Halensis (166 - 185)) وفي هذا الخطاب تحدث الملك بصراحة وكشف عن تبرمه مما سمعه عن تصرفات الجند والضباط في منطقة ادفو او (apollonopolis magna) وار تكابهم مخالفات جسيمة وعدم التزامهم بما جرى عليه العرف عن توزيع ثكنات عليهم ليقيموا

فيها بواسطة الموظفين المختصين وهم مندوبو وزير المالية فى الاقسام الادارية وكانوا يعرفون باسم oikonomoi بل يرفضون مايعطى او يخصص لهم ويعمدون الى التصرف العشوائى واستخدام العنف واقتحام مساكن الاهالى وطرد اصحابها واحتلالها بالقسوة الغشومة ،وقد طلب الملك ايقاف مثل هذه التصرفات فورا ومنع حدوثها وعدم التصرف فى هذه المساكن عندما يغادرونها لا بالتأجير من الباطن او بتغيير معالمها ولا بوضع الاختام عليها حتى يعودوا اليها ،كما لو كانت ملكا خاصا لهم ،مع انها اساسا ملك للملك وحده . وهذا الخطاب وغيره من الاوامر الملكية التى اصدرها الملك فى هذا الصدد وهى واردة فى مجموعة بردى مشهورة — تحمل اسم فلندرز بيترى(Flinders Petrie) يقدم الدليل الواضح على مدى عناية الملك بشئون الجند وعلى مدى سخطه وتبرمه مما كان يجرى من مخالفات تحت سمع الحكومة وبصرها من طبقة الجند والضباط وهى الطبقة التى خصها بجل عنايته .

ثم ان الوثائق البردية قد كشفت لنا عن جوانب اخرى من حياة هذا الملك ، فصورته وهو يقوم برحلات تفتيشية وزيارات لاقليم الفيوم وهو الاقليم الذى كان يطلق عليه اولا اقليم البحيرة lommander نسبة لبحيرة قارون ثم تغير الاسم الى الاقليم الارسينوى نسبة لاخته المتوفاة ،فنرى الملك وهو يتفقد اعمال الرى والصرف والاعمال الهندسية والانشاءات العمرانية التى كانت تتم فى هذا الاقليم وبخاصة فى بلدة فيلادلفيا الواقعة فى شرقى هذا الاقليم على حافة الصحراء وهذه كلها اعمال كانت تجرى بسرعة فائقة . وكانت هذه الاعمال الاصلاحية وبخاصة استصلاح الاراضى والتوسع الافقى على حدود اقليم الفيوم يسير على قدم وساق وبطريقة اقل مايقال فيها انها كانت تتسم بحمى السرعة ،فالملك ووزراؤه وكبار موظفيه كانوا لايتوانون ولايفرطون فى شئ من هذا المنهاج الاصلاحى الواسع المدى . ونجد صدى هذا فى خطاب منشور ضمن اوراق بردى " بيترى " موجه من ابن مهندس مقيم باقليم الفيوم اسمه كليون (Cleon.) الى ابيه وفى هذا الخطاب اشارة الى غضب الملك على هذا المهندس الكبير وصاحب المشروعات الضخمة فى اقليم الفيوم . وعلى الرغم من

هذه الجهود الجبارة لم ينج من توبيخ الملك الذى انحى عليه باللائمة لتفريطه .

والمعروف عن بطلميوس الثانى انه كان اغنى ملوك عصره ، بل وربما كان اقواهم . وكانت عظمة مصر وماتحقق لها من تطور سريع ونجاح وفلاح ، بفضل مساهمة الظروف المواتية ، فلم يصادفه شئ من الصعوبات التى عاقت نظراءه من الملوك المعاصرين ، وانما كان الطريق ممهدا ، فانطلق يدعم حدود البلاد فى الجنوب صوب النوبة ويفرض سلطانه فى الشرق الجنوبى من سوريا وفى بعض المدائن فى فينيقيا مثل صور وصيدا ثم استطاع آخر الامر ان يفرض سيطرته على حلف الجزر فى مياه بحر الارخبيل .

انه بعد الحرب السورية الاولى بين كل من بطلميوس الثانى وانطيوخوس الاول (٢٧٤ – ٢٧٢ ق.م.) تم عقد السلم بين الطرفين فى عام ٢٧٢ ق.م. وبمقتضاه توطدت الامبراطورية البطلمية وعلت مطالعها . وفى ذلك الحين او قرابة هذا التاريخ ، دبج شاعر البلاط السكندرى ثيوقريطس قصيدة كال فيها المديح لبطلميوس وكان تاريخ هذه القصيدة قبل عام ٢٧٠ ق.م. لانه جاء بها تنويه واشارة الى الملكة الاخت ارسينوى الثانية فقيل عنها ان الملك هو " الاخ والزوج العزيز " لارسينوى الثانية بالطبع ومعنى هذا انها كانت اذ ذاك لاتزال على قيد الحياة . وفى شهر بشنس (يوليه) من عام ٢٧٠ ق.م. توفيت وجاءت اشارة الى هذا الحدث الاليم فى حجر منديس (Stele of Mendes) فقيل انها رفعت الى المقام العالى عند " رع " او هارماخيس (Harmachis) تنابه عن وفاتها وقد مضى هذا الشاعر فعدد اسماء البلدان والشعوب التى كانت تدين بالولاء والخضوع لبطلميوس فذكر بالاضافة الى فينيقيا وسوريا ، شعوبا اخرى كثيرة منها الاثيوبيون ذوو البشرة " الداكنة " وجزر السكلاديس (او الجزر الدائرية حول جزيرة ديلوس) ثم تجاوز هذا الشاعر فى امعانه وخوضه فى تعداد الشعوب فذكر بلاد العرب وليبيا وبامفيليا واهل كيليكيا واهل كاريا ، وكان فيلادلفوس قد استطاع ان يسترد نفوذه فى منطقة الاناضول فى اثناء الحرب السورية الاولى .

على ان هذه الرقعة الواسعة لم تبق فى حوزة مصر وانما فقدت مصر جزءا كبيرا من هذه الامبراطورية ، ومن السيطرة والسيادة التى كانت لمصر على البحار بعد ان كانت شواطىء آسيا الصغرى كلها تخرج من ايدى فيلادلفوس عقب معركتى قوص (Cos) ٢٦٢ ق٠م٠ وافسوس٠ وقد توفى الملك فى يناير سنة ٢٤٦ ٠

بطلميوس الثالـــــث :

تولى بطلميوس الثالث الحكم فى عام ٢٤٦ ق٠م٠ واستمر فى الحكم حتى ٢٢١ ق٠م٠ وكان ابنا لفيلادلفوس من زوجته الاولى ارسينوى الاولى التى طلقت ونفيت الى قفط قبل زواجه من اخته ارسينوى الثانية وشاءت هذه الملكة القديرة ان تتبنى هذا الابن وتحتضنه واصبح يطلق عليه فى الوثائق الرسمية على انه ابنها ثم اسبغ عليه الشعراء كنية مؤداها انه كان يتصف بدماثة الخلق ورقة الطبع وتأكد هذا المعنى فى اللقب الذى اطلق عليه واشتهر به وهو " يورجتيس " (Euergetes) ومعناه فاعل الخير ويمكن ان نفسر ذلك فنوى فى هذه الصفة الالهية التى اضفت عليه مايفيد انه كان محبا لخير شعبه وفى هذا تعبير عن تلك الملكية المثالية التى كان ينادى بها الفلاسفـــة الرواقيون والكلبيون ٠ على ان المؤرخين الحديثين تسرب اليهم بعض الشك فى انه هـــو الذى امر باعدام ابوللنيوس آخر وزير مالية لدى والده بطلميوس فيلادلفوس ، ان صح انـــه اعدم والثابت انه توارى فجأة عن الابصار عقب تولى بطلميوس الثالث وصودرت ضيعتـــه وبيعت فى المزاد املاكه وعقاره ومقتنياته ولدينا فى وثائـق البردى الدلائل القاطعـة على صحة هذا المصير الاليم ٠ ثم انه هو الذى اباح او امر بأن يقتل اخوه ليسيماخوس الذى كان قد تولى لفترة ما وظيفة الحاكم (أبستراتيجوس) فى قفط ثم مالبث ان توارى بعد ذلك من التاريخ بطريقة تشوبها الشكوك والظنون ٠

وبطلميوس الثالث هذا كان ملكا على قسط وافر من الثقافة ، تتلمذ على يـــد ابوللونيوس الرودى (من اهل جزيرة رودس) وهذا هو الذى خلف كاليماخوس فى وظيفة

مرموقة هى رئيس الاكاديمية فى الاسكندرية • وصداقة الملك لاراتوسثنيس (Eratosthenes) الجغرافى دليل على ميوله العلمية والثقافية ثم اصلاحه التقويم المصرى بواسطة جمع من الكهنة المصريين دعاهم للحضور للاجتماع فى كانوب (ابى قير بظاهر الاسكندرية) فى عام ٢٣٧ ق•م• دليل آخر على اهتماماته وبعد نظره وحبه للتنظيم والادارة • وقد اصدر الكهنة قرارهم المشهور والمسطر على حجر يسمى بحجر كانوبوس • باللغة الهيروغليفية والخط الديموطيقى وباللغة اليونانية •يشيدون فيه باعمال الملك وعفوه عن المسجونين وتنازله عن المتأخرات من الديون الخ من اعمال المديح بالملك وكل هذه التصرفات تكشف عن ميله الطبيعى الى الاهتمام بالعلوم الانسانية وحبه فى مساعدة المصريين والضعفاء •والظاهر انه كان ملكا متذوقا للآداب والفنون • وليست لدينا أية اوامر باقية مما كان يمليه على كبار موظفيه ومستشاريه •اسوة بما حفظته لنا اوراق البردى من املاء ابيه فيلادلفوس •على نحو ماذكرناه ولذلك لانستطيع التعرف على ذوقه ولا على صوته المدوى • وفى اغلب الظن كان التقرير عن تلك العمليات العسكرية التى قام بها فى سوريا فى مستهل حكمه • هو الشيء الوحيد الذى كان من بنات افكاره وربما من صنع يده • وكان قد ذهب على عجل الى سوريا لانقاذ اخته برنيقة ابنة فيلادلفوس الذى كان قد زوجها من انطيوخوس الثانى ملك سوريا فى عام ٢٥٢ ق•م• وودعها والدها حتى الفرما وصحبها وزير ماليته ابوللونيوس حتى اوصلها الى انطاكية فى سوريا ثم تنكر لها زوجها واعتصمت بافسوس مستنجدة باخيها بطلميوس الثالث فسارع الى نجدتها ولكنها ماتت قبل ان ينقذها من ورطتها •وقد تابع بعد ذلك حملته فى بلاد مابين النهرين وابلى فيها بلاءا حسنا وبذلك اصبح الملك المحارب المغوار واستحق بجدارة ان يلقب بأنه اعظم فاتح غزوى فى الاسرة البطلمية • على انه بعد ان تحققت الغايات البعيدة المدى من فتوحه فى قلب آسيا •مالبث ان تخلى عنها لاسباب استراتيجية • ومع ذلك بقى الحكم له فى امبراطورية واسعة ولكنها متناثرة • فبرقة كانت تحت حكمه المباشر بفضل زواجه من برنيقة ابنة " ماجاس" • اما فى سوريا وفينيقيا فظلت حدود مصر كما هى من قبل •ممتدة على الساحل فى شمال صيدا صوب طرابلس• وفى كيليكيا وبامفيليا توسعت مصر فى املاكها وكذلك كان الحال فى كاريا بآسيا الصغرى • وليس

هنا مجال لذكر التفصيلات المسهبة عن المدائن والبلدان التى كانت تدين بالولاء لمصر فى الهلسبونت (البسفور والدردنيل) ثم فى تراقيا وفى نطاق جزر بحر الارخبيل ، فهـــذه كلها جزئيات ليس من وراء سردها طائل . والخلاصة ان مصر كانت لها امبراطورية متناثرة اجزاؤها هنا وهناك ومشتملة على بعض جزر فى نطاق الجزر الدائرية (Cyclades) تدين بالولاء لمصر فهى اذا امبراطورية منبعجة .

هذا هو الوضع فى الامبراطورية اللاجيدية او البطلمية وهى فى اوج عظمتهـــا وهذا الانبعاج فى شكلها راجع الى انها تعدت النطاق وخرجت عن الحدود التى وصلت اليها الامبراطورية المصرية فى ظروفها العادية ، على ايام الفراعنة العظام . واذا صح ان الاصل فى نشأة هذه الامبراطورية البطلمية هو ان مصر كانت ترغب فى ان تزود نفسهـــــا بجميع الضمانات التى تكفل لها الامان والتفوق والسيطرة الاقتصادية على نظراء مصـــــر والمنافسين لها من جيرانها ، فان تطور هذه الامبراطورية واتساع رقعتها شيئا فشيئـــا جعلها تنبعج وتفوق كل المقاييس على غير انتظار . ولا يمكن ان نقبل الرأى الذى نادى به العالم الالمانى " الريخ فلكن " والقائل بأن مصر عندما وطدت اقدامها على شواطئ آسيا الصغرى ابتداءا من كيليكيا فى الاناضول حتى الهلســيونت ثم امتدت الى الخرسونيز (Chersonese) (الدردنيل) والى تراقيا (البلغار حاليا) ، كان ملوك البطالمة يبغون تحقيق اهداف ابعد من مجرد الرغبة فى الاشراف على الطرق التجارية المؤديـــة الى الاسكندرية — وهذه الامنية التى ينسبها " فلكن " الى ملوك البطالمة الاولين ، كانت ترمى الى السيطرة على جميع انحاء بحر ايجه بقصد الحصول على السيادة (hegemonia) على العالم فى هذا المحيط . ولعل هذه الرغبة كانت فى الحقيقة هى الدافع الى كل هذه المنافسات والمشاحنات التى وقعت من القوات التى اقتسمت دولة الاسكندر وبقيت فى صراعات ومؤامرات ودسائس ابتداءا من اوائل القرن الثالث قبل الميلاد . وبالتأكيد كانت هذه الرغبة او بالاحرى هذا المطمع الذى داعب خيال ملوك البطالمة الاولين ، غير خاف على الملكيـــين البطلميين الاولين ، بما اوتياه من بعد النظر والحصافة . ومن اجل تحقيق هذا الهدف

استطاعا استخدام جميع موارد البلاد احسن استخدام • ولكن نظره عابره الى خريطه هذه الامبراطوريه المصريه المترامية الاطراف ، يتبين منها ان بعض هذه المواقع كان مرتبطا بمحور الارتكاز وهو مصر التى كانت تمثل المركز الرئيسى ، بينما بعض المواقع الاخرى كان نائيا وبعيدا عن مركز الدائرة ويمثل نوعا من الانبعاج ، وعلى اى حال فان هم البطالمه الاولين انصب على ضروره الاحتفاظ بمواقع ثلاثه لاغنى عنها وهى برقه وسوريا الخاليه (سهل البقاع او لبنان) ثم قبرص • وفى الوقت نفسه كانت مصر مستعده للتفريط والتخلى عن غيره هذه المواقع الثلاثه وذلك عن طيب خاطر • ومنذ عام ٢٥٣ ق•م• لم يكن قد بقى لبطليموس فيلادلفوس شىء من املاكه فى صميم بحرايجه • ومع ذلك فان بطليموس الثانى قبل هذا الوضع على مضض قضى نهايه حكمه فى عهد شهد سلاما نخيما دون ان يعكر صفوه شىء ادرك بطليموس الثالث كيف ان الخلافات والنزاع الاسرى قد مزق الامبراطوريه السلوقيه شر ممزق وكيف تفككت اواصر هذه الامبراطوريه قبل ان يحاول انطيوخوس الثالث لم شملها ، بل والتوسع على حساب جيرانها عن طريق الاغاره على مصر فى عهد بطليموس الرابع (فيلوباتور) ولكن اطماع انطيوخوس الثالث باءت بالفشل الذريع فى معركه مشهوره هى معركه رفح ٢١٧ ق•م• وارتد عن مصر ونجت الامبراطوريه البطلميه من خطر محقق بفضل جهود الفيلق المصرى الذى دربه سوسبيوس (Sosibius) وزير الحربيه المصريه على عهد فيلوبتور• ان بطليموس الثالث كان مدركا لهذا الخطر من قبل وقوعه بفتره طويله وكان يعلم ان الدوله السلوقيه فى الشام كانت لمصر بالمرصاد وانها كانت منافسه ومناهضه لمصر ، تتطلع الى الاغاره عليها بين حين واخر ولكن حكمه بورجتيس الاول اقتضت عدم استغلال الخلافات الاسريه فى داخل تلك البلاد الواقعه على تخوم مصر من الشمال واثر البعد عن التورط فى عمل عدوانى ولم يفكر فى توسيع رقعه بلاده فى الخارج بعد فتره الخمس سنوات الاولى من حكمه والتى قضاها فى حروب طاحنه فى هذه البلاد • وبقيت الحقيقه الاساسيه ماثله للعيان وهى ان مصر قبل كل شىء هى القاعده الاساسيه فى سلطان البطالمه ومحور الارتكاز فى ملكهم العريض ولا ينبغى والحاله هذه ، تعريضها لاى خطر او المغامره بها فى عمليات

عسكرية خاسرة وكان الملك بطلميوس الثالث يرى بثاقب نظره ان فى وسعه استخدام موارد البلاد فى تحقيق اهدافه ولكن لاينبغى عليه ان يرهق مصر بتكاليف هذه الحروب من مصاريف باهظة واعباء لاقبل لها بها ، خاصة وان مصر قد قدمت له فى حروبه فى السنين الاولى من حكمه بسخاء ولم تضن مواردها عن تزويده بكل ماكان يلزمه فى هذه الحروب التى كان فيها ينتقم لشرف اخته برنيقة زوجة انطيوخوس الثانى . ولكن لم يكن قد غاب عن باله ابدا ان مثل هذه الفتوح لابد ان تعود على مصر بالمغانم والا تكون غرما او سببا فى ارهاق موارد البلاد . ان مصر هى المورد الرئيسى الذى يغذى الخزانة العامة فى مصر البطلمية وهى فى الوقت نفسه تمثل العنصر الاساسى فى هذه الامبراطورية ولاينبغى التفريط فى اى شئ يضر بمصلحة البلاد . وهذا هو السبب فى ان البطالمة او بالاحرى الملوك الثلاثة الاولين ، اذ صح ان كان قد عن لهم التفكير فى تكوين امبراطورية لهم فى وقت ما فان هذا التفكير كان مجرد خاطر مالبث ان تبخر واعرضت عنه مصر كلية — الى ان جاءت كليوباترة السابعة وهى الملكة الاخيرة فى هذه الاسرة فعاودت التفكير فى امكان تحقيق شئ من هذا البرنامج الذى داعب خيال فيلادلفوس فى وقت ما . ولاينبغى ان ننسى ان الموارد العسكرية والعنصر البشرى القادر على خوض هذه الحروب بكفاية ومقدرة ، كان غير متوفر فى مصر وانما كانت موارده مقصورة على بلاد اليونان ومقدونيا وآسيا الصغرى وهذه كلها كانت من البلاد التى احجم حكامها وملوكها عن السماح لمصر باستيراد تلك السلعة البشرية وهى الجنود المرتزقة من قبيل الكيد لمصر وكان حجبهم لهذا العنصر عملا عدائيا ، قصدوا من ورائه التنكيل بمصر وبحكام مصر ، وعندئذ لم يبق امام الملوك البطالمة . والمقصود هنا عصر بطلميوس الرابع فيلوباتور — سوى الاعتماد على اولئك الجنود المرتزقة الذين كان فيلادلفوس قد وطنهم فى ريف مصر وحرص على اسكانهم وتوزيعهم فى ارجاء البلاد ليكونوا عدتها فى وقت الازمات والملمات وقد نجحت هذه السياسة فى المحافظة على هذا العنصر البشرى المجلوب من الخارج والمدرب على اساليب حرب الفيالق ونظامها . عمدت حكومة بطلميوس فيلوباتور ووزيره سوسيبوس الى تجنيد العنصر المحارب المصرى وهم الذين اطلق عليهم هيرودوت من قبل اسما مذريا اى الماخيمى (Machimoi)

أو المحاربين على القتال وتكون منهم فيلقا مصريا وقد نجحت الفكرة واثبت أولئك الفلاحون المصريون انهم اكفاء وكسبوا النصر لبطليموس الرابع •

ولما كانت مصر مدينة فى تقدمها وفيما حققته من نجاح لا الى تربتها الخصبة فحسب بل الى تجارتها سواء منها العابرة (transit) أو لتجارتها الخارجية ولذلك آثرت مصر أن تركن الى توخى السلم وهو شرط أساسى لرواج التجارة الداخلية والخارجية على السواء • وموقع مصر الفريد جعلها لا تستطيع الاتصال بآسيا الا عن طريق الممر السورى الذى يعتبر بمثابة دهليز (Corridor) وكذلك لا تستطيع الاتصال باوربا الا عن طريق البحر ، فهى لذلك وبحكم هذا الموقع ، لا يمكن أن تكون مركزا لامبراطورية عالمية ، لان اتصالها باطراف هذه الامبراطورية ، سوف يكون خاضعا لجيرانها وواقعا تحت رحمتهم • وفضلا عن ذلك فلكى تكون لمصر امبراطورية عالمية فان هذا يتطلب بدوره وجود جيش قوى مرابط ، تتجدد عناصره فى يسر وسهولة ، وانى لمصر بذلك • والجيش القوى البطلمى كانت عناصره اجنبية مجلوبة من الخارج كما قلنا ولكنها كانت باستمرار عرضة لان ينضب معينها اذ ماتراءى لجيرانها وخصومها أن يحبسوا عنها هذا المورد البشرى ويمنعوها من أن تتزود منه بخير زاد فأغلب القوات المحاربية يأتى من بلاد اليونان ومن جزر بحر الارخبيل وكريت وهذا الاحتمال واقع لا مناص منه متى شم خصوم مصر أن اطماعها زادت عن الحد وأنها اخذت تتطلع الى تكوين ملك عريض وامبراطورية طابعها الاساسى تكوين امبراطورية بحرية (thalassocracy) • وكانت مثل هذه الامبراطورية لا تزال فى حوزة مصر على عهد فيلوباتور ، على الرغم من أن سيلوقيا الواقعة على نهر العاصى (Orontes) فى سوريا ارتدت الى دولة السلوقيين وأن اجزاء من باميفليا فى آسيا الصغرى ضاعت من مصر ، ولكن الوضع بوجه عام هو أن امبراطورية مصر بقت لها بشكل ما حتى بداية عصر ابيفانيس وهو بطليموس الخامس ٢٠٣ ق • م ثم بدأ الانهيار بعد ذلك مباشرة • وكانت الخلافات الداخلية والانقسامات الاسرية هى أحد العوامل التى أضعفت مصر وافقدتها القدرة على الدفاع عن نفسها ضد خصومها ونظرائها •

وفى عام ٢٠٠ ق م استطاع فيليب الخامس ملك مقدونيا ان يستولى على املاك مصر فى تراقيا (Thrace) وهى مجاورة لبلاد من الشرق وكذلك على ضفاف البسفور والدردنيل • وبذلك اقصى مصر عن هذه المناطق النائية شمالا اما انطيوخوس ملك الشام فقد استولى على سوريا الخالية او سهل البقاع • كذا استولى على فلسطين وعلى جميع المواقع التى كانت فى حوزة مصر فى آسيا الصغرى • وهكذا تقلصت الامبراطورية المصرية فى مستهل القرن الثانى قبل الميلاد ولم يبق لملك البطالمة فى ذلك الحين من امبراطوريتهم والولايات الخارجية التى كانت تتبعهم سوى برقة وقبرص وهما جدهما اللتان حرصت مصر على الاحتفاظ بهما الى اطول مدة ممكنة • وهكذا انكمشت مصر وضاعت امبراطوريتها •

مصر تنطوى على نفسها بلا امبراطورية

هذه صفحة غير مشرقة من تاريخ مصر البطلمية ، تردت فيها البلاد فى سلسلة من المؤامرات والخلافات الاسرية ونجم عن هذا من الشرور الشىء الكثير وضاعت مصالح مصر وانتهى الامر بارتمائها فى احضان روما التى وجدت الفرصة متاحة لها لتقف موقف الحكم بين الاخوة والاخوات وهم يتنابذون بالالقاب ويتقاتلون ويكيد بعضهم للآخر • وقد سبق ان ذكرنا ان مستهل القرن الثانى شهد مصر وقد تجردت من امبراطوريتها او كادت • ولكنها على الرغم من كل ذلك كانت لاتزال دولة قوية وثرية وبقيت محتفظة بهذا الثراء العريض حتى بداء عهد الملك البطلمى المفتون وهو بطلميوس "اوليتيس" اى الزمار • والد كليوباترة السابعة آخر ملكات البطالمة فكان دخل هذا الملك بحسب تقدير ذكره شيشرون الخطيب الرومانى فى احدى خطبه دفاعا عن شخص يدعى رابيريوس (Pro Rabirio) يقدر بمبلغ ١٢٫٥٠٠ تالنتوم من الفضة (التالنتوم الواحد يساوى ٢٤٠ جنيه تقريبا) فما هو السبب الذى حال دون ان تسعى مصر فى سبيل استرداد اهميتها ونفوذها القديم ؟ هذا سؤال ينبغى ان نجيب عليه فى صراحة تامة فنقول انها قوة روما التى كانت تقف لمصر بالمرصاد • وتعمل جاهدة على تقطيع اوصالها

وعلى عزلها عن جيرانها والحيلولة دون حدوث أى تكتل بين مصر وسوريا مثلا أو بين مصر واحدى جاراتها ايا كانت هذه الجارة •

وهنا ينبغى علينا أن نستعرض بوجه عام صفحة من تلك العلاقات بين مصر وروما منذ أول الامر أى منذ ٢٧٣ ق • م عندما عقد بطليموس الثانى فيلادلفوس معاهدة صداقة مع روما (Amicitia..) وتبادل معها السفراء وأوفد بعثة مصرية الى السناتو الرومانى لاعلان هذه الصداقة وتوكيدها فكانت هذه السفارة بمثابة حركة بارعة تنم عن بعد النظر الثاقب من جانب مصر ومركزها فى معترك السياسة العالمية • وبأن أثر هذا بشكل جلى عندما قامت الحرب البونية الاولى ٢٦٤ — ٢٤١ ق • م بين كل من روما وقرطاجة والاخيرة جارة افريقية ، محلها الآن تونس وقد وقفت مصر موقفا محايدا تماما وعرضت أن تقوم بدور الوسيط لاصلاح ذات البين بين الطرفين المتقاتلين ، لو شاءتا ولكن للاسف لم يتحقق شىء من ذلك وانتهت الحرب بهزيمة قرطاجة واملاء شروط مهينة عليها وعلى أن هذه العلاقات الديلوماسية لم ينجم عنها أية نتائج سياسية حتى نهاية القرن الثالث ، مع أن بدء هذه العلاقات الدبلوماسية كان مرجعه الى البلاط السكندرى الذى اتخذ الخطوة الاولى فى هذا السبيل • وعلى الرغم من أمارات الود والاحترام المتبادل والاتصالات التى كانت تتم بين الطرفين من حين لآخر فى صورة بعثات تكريمية متبادلة فى شتى المناسبات ، فلم تكن تلك كما ذكرنا دائما عدم اعتداء أو نحو ذلك بين روما ومصر وانما هى صداقة جوفاء لاتغنى ولاتسمن • وعلى أى حال فالسياسة التى انتهجتها ملوك البطالمة كانت سياسة استقلالية ، بل أنها فى واقع الامر كانت تسفر احيانا عن أنها ليست فى صالح مصر ، ومن ذلك مثلا قيام بطليموس فيلوباتور بالتداخل كوسيط فى الحرب التى شنها بعض الحلفاء ضد فيليب الخامس ثم تدخله فى الحرب المقدونية الاولى • وكان هذا التدخل لخدمة مصالح فيليب وليس من أجل روما • وحتى فى صدر عهد الملك بطليموس الخامس (ابرغانيس) عمد وزيره اجاتوكليس الى ايفاد رسول لروما من أجل طلب العون والمساعدة من قبل مجلس السناتو الرومانى ضد انطيوخوس الثالث وفى الوقت نفسه

كان هذا الوزير بمينه يوجه جل همه واهتمامه الى التحالف مع ملك مقدونيا مع ان الاخير كان اذ ذاك العدو اللدود لروما ، بل انه كان يتفاوض دون طائل من اجل عقد زواج بين الملك الشاب ابيفانيس وابنة لفليب الخامس ملك مقدونيا ، واثبت بذلك انه كان يتخبط فلا يعرف الصديق من العدو ، وفي عام ١٩٦ ق٠م٠ كان لروما موقف ازاء مصر فكانت النصيرة والمدافعة عن مصر ضد الملك السلوقي وتقمصت دور المدافع عن الحرية اليونانية والحامي لملك مصر المسلوب الارادة٠ (١)

على ان كل شيء مالبث ان تغير بعد ان عقدت روما معاهدة مع انطيوخوس الثالث سميت بمعاهدة اباميا (Apamea) في عام ١٨٨ ق٠م٠ واستولت برجامة (Pergamum) بمقتضاها على معظم الاملاك السلوقية في آسيا الصغرى وانكمشت بذلك دولة السلوقيين في الشام واصبحت روما بعد ذلك قوة مهابة في الشرق ومن حقها ان تملي ارادتها بحد السيف ، حقيقة ان روما لم تقوض اجزاء من بلاد الشرق التي ملكها في ذلك الحين ولكنها عندما انتصف القرن الثاني ضمت بلاد اليونان ومقدونيا عام ١٤٦ ق٠م٠ وضمت برجامة في الفترة مابين ١٣٣ — ١٢٩ ق٠م٠ وضمت كيليكيا عام ١٠٢ ق٠م٠ وسوف تنقضي فترة طويلة قبل ان تقدم روما على ان تضم اليها مملكتين عظيمتين اخريين هما دولة السلوقيين ثم دولة البطالمة مع انهما كانتا في حالة ضعف ، ومع ذلك فقد بقيت كل من هاتين الدولتين محتفظة بظل من الحياة الاستقلالية ، تنعم به تحت سيطرة روما او خوفا من تهديداتها ، الى ان يحين الوقت المناسب لدخول كل منهما في الحظيرة الرومانية بشكل سافر٠

وحتى بداية القرن الاول قبل الميلاد ،كانت روما مشغولة وايديها مغلولة بسبب حروبها الكثيرة والمغامرات العديدة التي تورطت فيها في المياه الغربية من البحر المتوسط ثم بسبب تلك الازمات الداخلية والخلافات بين الطبقات (البطارقة او الاشراف والبلبز او العامة) ثم زاد الطين بلة ان ظهرت طائفة من القواد في الجيش اخذت تهدد روما وتملي على مجلس السناتو شروطها ، وعندئذ كان ملوك البطالمة لايزالون قابضين على

(١) هذا هو تاريخ حجر رشيد المشهور وفيه اشادة ببطليموس الخامس (ابيفانيس)

ناصيه الحكم ولكن المؤامرات كانت على اشدها بين الاخوه والاخوات وكان بالبغض منهم متى غلب على امره لجأ الى روما متوسلا وطالبا التدخل لصالحه ورده الى عرضه المسلوب منه وهناك فريق اخر كانت فرائصه ترتعد وترتجف خوفا ووجلا من روما وبطشها ٠ وهكذا كانت السياسه الخارجيه ماصر لنطوى على جميع الاحوال على عمل الحساب كل الحساب لروما واحتمال تدخلها بطريقه سافره متى شاءت ٠ ثم اقتصرت هذه السياسه الخارجيه على نطاق ضيق فانحصرت عمليا على مجرد تناقش يقبض الاحدوى من ورائه بين من والد والد السلوقيه في الشام وكانت قد اصبحت اذ ذاك عباره عن مملكه سوريا فقط ٠ وتاريخ مصر في الداخل اصبح في هذه الحقيقه عباره عن مناقشات بين افراد الاسره البطلميه ملوكا وملكات على تولى العرش وكانت هذه المساجلات مصحوبه بحروب دمويه وانقامات واتحرافات مما اضعف البلاد وساعد على تفكك اوصالها فالصعيد في ناحيه والوجه البحرى في ايدى منافسه والاسكندريه تطرد الملوك ثم تستفيدهم وهكذا دواليك ٠ وبالطبع كانت اصابع الرومان وراء هذا كله تحت هذا وتوءليه على ذاك من الاخوه والاخوات وكان زعماء الرومان ورجال الاحزاب في روما بل واعضاء السناتو انفسهم يمدون ايديهم ويقبلون الرشاوى من اجل نصره ملك معزول ورده الى عرشه المسلوب او من اجل صد ملك سوريا ورده من مصر ٠ ويذكر التاريخ واقعه مشهوره في سنه ١٦٨ ق٠م٠ عندما انتصرت روما على مقدونيا وهزمت ملكها برسيوس ٠٠٠٠ Perseus في موقعه بيدنا ٠٠٠٠٠٠٠ ٠ Pydna وصادف في ذلك الحين ان كان ملك سوريا انطيوخوس الرابع قد غزا مصر ودخل الاسكندريه بالفعل وعندئذ لاحقه السفير الروماني جايوس بوبيليوس لايناس (٠٠٠٠٠٠٠٠٠ G. Popilius Laenas) ووجه اليه انذارا سيئا وخيره من الرحيل فورا من مصر بين صداقه الرومان وطلب اليه امير تجيب على هذا السوءال في الحال قبل مغادرته دائره كان قد رسمتها من حوله في الرمل بعصاه كانت تحت ابط هذا السفير الروماني ٠ وقد استجاب انطيوخوس الرابع لنداء هذا السفير مستسلما لمطلب روما ورحل عن مصر وبذا تم انقاذ العرش المصرى بفضل تدخل روما ٠

واصبح ملك البلاد اذ ذاك وهو بطلميوس فليومتو مدينا لروما بعرشه وصارت مصر في الحقيقـــه تحت الحمايه الرومانيه المقنعه ٠

على انه لا ينبغي علينا ان نطيل في شرح المؤامرات والدسائس التي كان يحيكها الامراء في الاسره البطلميه وتشارك فيها بنصيب وافر الملكات والاميرات البطلمويات من برنيقات وارسينوات وكلبوباترات وقد اشتهرن كلهن في التاريخ بانهن مستأسدات ومتوحلات وقويات الشكومه ولعــــل من اشهر الامثله على ذلك الملكه كليوباترا الثانيه زوجه فيلومتور ثم ترملت بعد زوجها ان مـــات ١٤٥ ق ٠ م ٠ اصبحت زوجه لاخيه يورمتيس الثاني ثم هناك كليوباتره الثالثه ابنه كليوباتره الثانيـــه والزوجه الثانيه لبطلميوس يورجتيس الثاني ثم هناك مثلهن اخران من طراز اخر احدهما ارسينـــو الثانيه الزوجه الثانيه لبطلميوس الثاني وحامله لقب فيلادلفوس حبيبه اخيها وكانت امراه بارعـــه وسندا قويا لاخيها وزوجها وتعتبر مثالا على الملكه البطلميه القديره اما المثل الاخير فهو كليوباتره السابعه ذات التاريخ المشهور واليد الطولى في نهضه مصر والتطلع الى استعاده مجدهـــا القديـــــم (١)

ولعل التزاوج بين الاخ واخته على مدى اجيال وعلى النحو الذي كان يتم به في الاســـر البطلميه كن بين اسباب ضعف هذه الاسره وضعف ملوكها الذين افسدهم الانغماس في الملـــذا واقعدهم عن العمل الجاد اقدام زوجاتهم ونسائهم على المشاركه في الحكم بطريقه منفرده ثـــم ان الملل والاستسلام من قبل الشعب المصري جعلهم يرخون الحبل على الغارب ويتمادى الملـــو في غلوائهم – كل هذا اخرج لنا صورا بشعه من وحوش كاسره لا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيـــلا فالاخ يقتل اخيه والام تقتل ابنها وهكذا من الاعمال التي تقشعر لها الابدان وتتفتت من هولهـــا الاكباد ٠ ولو اتيح لكاتب مثل المؤرخ الروماني تاكيتوس (   ) الفرصه لصور لنا هذه الاحداث بصوره دائمه مثلما فعل بالنسبه لحياه امبراطوريه رومانيين هما تيبريوس ونيرون ٠

(١) انظر كتاب العالمه الامريكيه ماكردي عن الملكات الهيلينستيات
ثم كتاب كليوباتره السابعه لزكي علي ثم كتاب تارون وتشالزورث عن اكتافيان وانطونيوس وكليوباتره وقد صدر في كيبردج بانجلترا في عام ١٩٦٥ وفيه اشاده بالملكه كليوباتره السابعه وتنويه ببرنامج سياسي لها من اجل رفعة شأن مصر ٠

ومنذ تولى بطليموس السادس (فيلومبتور) وهو ابن الملك ابيفانوس وكان قد ال اليه الملك وهو لا يزال فى مقتبل العمر وكان ذلك فى عام ١٨٠ ق٠م٠ ثم انه بلغ سن الرشد فى عام ١٧٣ ق٠م٠ وعندئذ بدأت المناورات والفتن ٠ حقيقه ان روما استطاعت فى وقت لاحق ان تمنع الملك السلوقى انحيوخوس الرابع من ان يجنى ثمار انتصاراته وغزوه لمدينه الاسكندريه فى عام ١٦٨ ق٠م٠ وذلك على اساس ان روما لم تشأ ان ترى العرشين المصرى والسورى فى تيسواحده خشيه ان يصعب عليها فيما بعد اخضاع هذا العرش المتحد ولكنها لم تكن تبتئس او تشعر باى ضير او غضاضه فى ان ترى الانقسام يدب بين افراد البيت البطلمى المالك ٠ فلما خلع الكسندريون بطلموس فيلومبتور عن عرشه ، بتحريض من اخيه الاصغر بطلميوس يورجتيس الثانى ومجالاه له ، يم الملك المخلوع وجهه شطر روما ومثل امام السناتو متوسلا وراجيا وطالبا العون فى ذله وامتهان وعندئذ استطاعت روما ان تصلح ذات البين بين الاخوين ٠ وكان هذا الصلح يتضمن اعاده فيلومبتور الى عرشه فى الاسكندريه بناء على استدعاء شعبه له ، بينما يحصل يورجتيس الثانى على حكم برقه ومنذ الحين اصبح يورجتيس الثانى يستمع حياته يوما وسوف تثير الاحراج انه لم يكن جديرا بهذه الحمايه فهو يمثل صوره بشعه لملوك هذا البيت واستحق بجداره ذلك اللقب الذى اسبغه عليه شعب الاسكندريه وهو (Kakergetes) اى الشرير بدلا من فاعل الخير وهو اللقب الذى كان يتشدق به وهو منه براء ٠ وقد سجل التاريخ العديد من الجرائم التى ارتكبها ، فمن قتل دماء وتشريد والتورط فى حروب طاحنه بينه وبين زوجته كليوباتره الثانيه وهذا كله سوأ سمعته وجعله ينزل الى الحضيض٠ انه كان يبغى

ان تعاونه روما فى ضم قبرص لبرقة تحت لواء حكمه المشترك ولم يكف عن الدس لاخيه لدى روما والتشنيع عليه وتصويره بصورة بشعة على انه قاتل ومجرم اثيم ينصب الشباك ويدبر الخطط لقتل اخيه وعلى ان فيلوميتور صادفه التوفيق فى ازالة الجفوة بينه وبين السناتو الرومانى واستطاع ان يكسب لجانبه الزعيم الرومانى المشهور كاتو (Cato) الـذى انبرى للدفاع عنه امام السناتو واخيرا تحقق له النصر فى عام (١٥٣) وقضى بعد ذلك ثمانى سنوات فى اخذ ورد ومفاوضات بينه وبين اخيه وسط مكائد تدبر له من قبل اخيه هذا .

عقب موت فيلوميتور سنة ١٤٥ ق.م . الذى خر صريعا فى ساحة القتال فى سوريا ، اتحدت برقة مع مصر تحت حكم يورجتيس الثانى وكانت المملكة السلوقية يحكمها اذ ذاك ملك سلوقى نشيط ، استطاع ان يلم شملها ، ولذلك رأت روما الا تكون مصر ، وهى جارة لسوريا ، مفككة الاوصال فتكون مطمعا لسوريا ولذلك عملت على اصلاح ذات البين بين يورجتيس الثانى وارملة فيلوميتور وهى كليوباترة الثانية وكانت قد اصبحت زوجة ليورجتيس الثانى وهى اخته كذلك .

على ان روما استفادت كثيرا ، لا من الولاء والاستسلام الذى كان يبديه الحكام واولو الامر فى كل من مصر وسوريا فحسب ، بل افادت كذلك من ذلك الانقسام الذى كان يفت فى عضد هاتين الدولتين العظيمتين وهما : المملكة البطلمية والمملكة السلوقية وساعـد على تحقيق هذه البغية التصرفات التى تردى فيها يورجتيس الثانى الذى كان يلقـب كذلك بالبطين (Physkon) وكان السكندريون قد اسبغوا عليه كنية فيهـا اساءة اليه ولكنها نابعة من تصرفاته فلقبوه بالشرير (Kakergetes) بدلا من فاعل الخير وهو اللقب الرسمى الذى كان يتشدق به . وصفحة اعماله فى مصر ابعـد عن ان تكون صفحة فخار ، فاعمال القسوة التى تردى فيها ازاء علماء الاسكندرية ورجال القلم والفكر فى اكاديميتها ثم ازاء شعب الاسكندرية نفسه والرجال الاحرار المستمتعين

بالمواطنية في تلك المدينة الخالدة ـ كل ذلك جلب عليه كره السكندريين له وكان حقا عليه ان يحظى بالسخط العام الذى لقيه في كل مكان من جراء اعمال القمع التى ارتكبها عقب تنصيبه على عرش الاسكندرية عام ١٤٥ ق.م. وصحب ذلك الوان من التعذيب والتقتيل في الشخصيات البارزة وفى من اليهود الذين انحازوا فيما بعد لزوجته كليوباترة الثانية وناصروها وتلى ذلك اقدامه على طرد علماء الاسكندرية واعضاء الاكاديمية بها وتشريدهم وتشتيتهم وكان من بين هؤلاء استاذه السابق والعالم المشهور " اريستارخوس " (Aristarchos) . وزاد الطين بلة وقوع تلك الجفوة المسلحة بينه وبين زوجته الاولى كليوباترة الثانية فنشب بسببها حرب ضروس قسمت البلاد الى معسكرين . وكانت ابنة هذه الملكة وهى المساة كليوباترة الثالثة امرأة بشعة فضحت الى الملك الذى هتك عرضها ثم تزوجها مع انها ابنة زوجته من فيلوميتور . ادى كل هذا الى سلسلة من المؤامرات والاعتصاب المسلح وثورة جامحة قامت بها مدينة الاسكندرية انتهت بفرار الملك من المدينة في عام ١٣١ ق.م. وانفراد زوجته كليوباترة الثانية بتولى الملك ولكن هذا لم يدم سوى فترة قصيرة استطاع بعدها بقليل ان يعود الملك الى الاسكندرية وبلغ من امعانه في الغضب وتهوره ان قتل ابنه الذى كان قد انجبه من كليوباترة الثانية بقصد التنكيل بزوجته وام هذا الطفل وعندئذ فرت الملكة الى زوج ابنتها وهو ديمتريوس الثانى ملك سوريا واستمرت هذه الحرب الضروس بين يورجتيس الثانى وكليوباترة الثانية عدة سنوات والبلاد منقسمة على نفسها واعمال التخريب والتدمير فى كل مكان وانتهى الامر باتمام الصلح بين الطرفين في عام ١١٨ ق.م. وتمت تسوية وتراض اطلق عليه " فيلنثروبا (Philanthropa)

ولدينا وثيقة بردية مشهورة نشرت في مجموعة بردى تبتونس تحت رقم (٥) وفيها بنود هذه التسوية الشاملة واقرار كل طرف من الطرفين بعموم التصرفات والاجراءات التى اتمها كل جانب كما تضمنت تسامحات وترضيات عديدة لاقرار السلم ولم يعمر الملك طويلا بعد ذلك اذ مات فى عام ١١٦ ق.م. وكانت تصرفاته الهوجاء قد ساهمت الى حد كبير فى تفتيت المملكة البطلمية اذ انه كان قد اوصى بعرش برقة الى ابن غير شرعى

له اسمه بطليموس ابيون (Apion) ثم جاء هذا الابن بدوره بعد عشرين عاما فأوصى بجزيرته الى روما • ثم ان يورجيتيس الثانى كان قد اوصى زوجته الثانية وهى كليوباترة الثالثة بأن يكون لها حق الاختيار لاحد ابنيها كيما يكون ملكا على عرش مصر • وكانت كليوباترة الثالثة هذه يلقبها السكندريون بالشقراء ذات الوجه الاحمر ، اضطرتها الظروف ان تختار ابنها الاكبر وهو بطلميوس الملقب لاثيروس (Lathyros) . اى الحمصانى (= ذو الوجه المبقع بحبات اشبه بالحمص) وكانت فى الحقيقة تمقت هذا الابن ولكنها اكرهت على الموافقة على تنصيبه ملكا على البلاد وقد تحكمت فيه وجعلته يطلق اخته كليوباترة الرابعة التى كان يكن لها محبة واخلاصا شديدا ولكن الملكة الام كانت تشك فى اخلاصها وولائها ومن اجل ذلك اطاحت بها وجعلته يتزوج من اخت اخرى له اسمها كليوباترة القمر (Cleopatre Selene) ومانظن ان موقفا شائكا كهذا يمر بسلام فى بيت بطلمى كله دسائس ومؤامرات ولذلك خلق هذا الموقف جوا مريبا مليئا بالمتاعب واستمرت الاضطرابات حتى توارت الملكة الام كليوباترة الثالثة عن الميدان وتوفيت فى العام ١٠١ — ١٠٠ ق•م• ثم هدأت الاحوال بعد موت الاخ الاصغر للملك وهو الاسكندر الاول فأزيح من وجه اخيه الاكبر بطليموس لاثيروس وبذا خلا الجو له فأخذ " يبيض فيه وينقر " •

وكان السكندريون قد طردوه من المدينة فى اثناء حياة اخيه الاصغر فذهب الى قبرص يتولى الحكم فيها ولكن الى حين بينما كان الاسكندر الاول يحكم فى الوقت نفسه فى الاسكندرية • وبعد حروب مستمرة بين هذين الاخوين ، استطاع الاخ الاكبر بطليموس لاثيروس ان يدبر العودة الى عرشه فى مصر حيث تولى الحكم مدة تقرب من ثمانى سنوات من ٨٨ حتى ٨٠ ق•م واغلب هذه الحروب كانت تتخذ من سوريا ساحة لها يشن فيها الملكان البطلميان التنان احدهما ضد الاخر ولكل منهما بالطبع مناصرون فى سوريا وفضلا عن ذلك فالملوك البطالمة تورطوا فى حروب ومنازعات من نوع آخر كانت تجرى فى الساحة السورية • ويبدو ان مصر حتى وهى فى النزع الاخير فى فترة عصيبة من

تاريخها سلسلة مستمرة من الانقسامات والمشاحنات بين الاخوة والاخوات الاشقاء ، لم تتخل مطلقا عن احقية ادعتها لنفسها فى تملك الشق الجنوبى من سوريا ،وكانت المسألة السورية لاتزال تداعب خيال هؤلاء الملوك البطالمة الضعاف ،حتى بهم وسط هذه المحن والويلات والنكبات الاسرية التى المت بعروشهم فى مصر .

ومن قبل ذلك بكثير رأينا كيف ان البلاط السكندرى كان يأمل خيرا فى اتمام تسوية بهذا الشأن تنجم عن زواج الملك بطليموس الخامس بابنة (لانطيوخوس العظيم ولكن مصر باءت بالفشل ولم يتحقق شئ من ذلك الحلم العريض وقد اثبتت الظروف فيما بعد ان انطيوخوس الرابع نفسه كانت له نوايا سيئة ازاء مصر وانه كان يتطلع الى ضمها اليه بطريقة سافرة ولكن ربما خلصت مصر من انيابه ،على نحو ماوصفناه من قبل . ولعله كان يتخذ مما فعله ابوه انطيوخوس الثالث من قبل مثلا يقتدى له . وكان انطيوخوس الثالث قد غامر بنفسه فى حروب ضد فيلوباتور (معركة رفح سنة ٢١٧ التى هزم فيها وكتب النصر لفيلوباتور) ثم مرة اخرى ضد ابيفانيس منتهزا فرصة ان الاخير كان لايزال فى سن قاصرة وان هذه السن القاصرة يمكن ان تكون فرصة ينبغى استغلالها ولكن هذا التصرف لم يكن له اى جدوى . وهكذا كان اسلوب انطيوخوس الرابع يسير على نفس النهج فهاجم المملكة البطلمية واستطاع ان يستولى على الفرما وان يأسر الملك الشاب فيلومتور الذى ضلل به من قبل ناصحين شريرين هما الوزيران لينايوس (Lenaeos) والخصى يولايوس (Eulaeos) وبعد ان استولى انطيوخوس الرابع على الفرما زحف صوب الاسكندرية واصبح على ابواب المدينة . ولكن هذه المدينة الباسلة اعلنت يورجتيس الثانى ملكا عليها وسرعان ماتم تحصين المدينة وجعلها فى حالة دفاع قوى ضد العدو الذى لم تكن لديه ادوات حصار يضربها من حول المدينة ولذلك ارتد انطيوخوس الرابع عن الاسكندرية مكتفيا بأن وضع الاخوين فيلومتور ويورجتيس الثانى فى حالة مواجهة والب احدهما ضد الاخر، أخذا يتنافسان ويقوض كل منهما اركان الاخر ويحط من قدره وبذا ظن الملك السورى انه قد فاز فى تحقيق بغيته وانه قد وجه ضربة

صائبة تهدم من كيان الاسرة البطلمية . وقد تحقق له ما أراد ، اذ حدث بالفعل ان تضارب
الاخوان وعاد الملك السورى الى بلاده ولكن خاب فأله اذ تصالح الاخوان وتمت تسوية
العلاقة بينهما بفضل تدخل روما ووساطتها . وعندئذ عاود انطيوخوس الرابع الكرة فجدد
الهجوم على مصر ووصل بالفعل الى ظاهر الاسكندرية واخذ يعد العدة لكي يضرب ضربته
القاصمة وعندئذ انبرى له السفير الرومانى جايوس بوبيليوس لايناس بوصفه مبعوثا من قبل
مجلس السناتو الرومانى وحال بينه وبين ان ينفذ بغيته . ولم تكن روما بغافلة عما كان يجرى
فى هذه المناطق وانما كانت عيونها مسلطة على الحوض الشرقى من البحر المتوسط . وروما
بالامس لم تخضع انطيوخوس الثالث عبثا ولم تكن مستعدة بحال من الاحوال لكي يسمح لاحد
من خلفائه بأن يستولى على مصر ويضمها لاملاكه فتصبح له دولة سائدة ويكون مصير ذلك ان تصبح
الدولتان : سوريا ومصر قوة مهابة ، قد يستعصى على روما اخضاعها بعد حين ، طال او
قصر . واذا كانت روما لم تسمح لها ظروفها بالتدخل من قبل فى هذا النزاع ، فان السبب
فى ذلك معروف وهو انشغالها فى الحرب المقدونية الثالثة . فلما تمكنت من هزيمة برسيوس
ملك مقدونيا فى موقعة بيدنا عام ١٦٨ ق.م . على يد القائد الرومانى ايميليوس باولوس .
(Aemilius Paullus) ، خلا الجو لروما فرمت القفاز فى وجه ملك سوريا
وهو انطيوخوس الرابع وجعلته " يكس الملك " ولقنه السفير الرومانى " لايناس " درسا
قاسيا ، تناولناه من قبل بالشرح وبينا مدى البشاعة والامتهان فى معاملة روما لهذا
المعتدى وطرده من مصر بطريقة فيها شيء كثير من السخرية والاحتقار لشأنه . تلك
حادثة مشهورة ذكرها المؤرخ الرومانى ليفى (Livy) ورددتها كتب التاريخ
من بعده عندما تعرضت لهذه الحقبة من تاريخ مصر على عهد البطالمة وعلاقة مصر بروما .
وكانت هذه الحادثة بمثابة اعلان سافر لنوعية العلاقة بين مصر وروما وفيها تحذير مكشوف
لاى من جاورت مصر من الشمال حتى لايفكر احد من ملوك هذه البلدان فى شن عدوان
على مصر التى اصبحت منذ ذلك الحين تحت الحماية الرومانية المقنعة . وهذه حقيقة
واقعة لاريب فيها ، فمنذ عام ١٦٨ ق.م . عرف العالم الهيلينستى على سبيل اليقين ان
مصر تحميها روما . اما لماذا لم تعلن روما تلك الحماية رسميا ولماذا لم تشأ روما ان تضم

مصر الى املاكها ثم الحاقها كما فعلت مع كثير من مدن اليونان ومقدونيا ، فهذا موضوع آخر له اسبابه . ولكن روما شاءت ان تتوخى التريث والا تستعجل الحوادث ، وان تترك الظروف تمهد السبيل للوصول لهذه النتيجة فى حينها ثم ربما كانت سياسة الاحزاب فى روما هى احد الاسباب الجوهرية فى تأخير ضم مصر الى ملك روما وفى اطالة هـــذه الفترة مدة تقرب من ١٣٨ عاما اى من ١٦٨ ق.م. حتى ٣١ - ٣٠ ق.م.

وهكذا كانت الحروب التى شنها انطيوخوس الرابع على مصر تمثل المحاولة الاخيرة التى تورط فيها الملك السلوقى ضد مصر بطريقة عشوائية لا مبرر لها سوى ذلك الطمـــع الشخصى . وتعين على مصر ان تنتظر وترد الصاع صاعين ، فتتدخل فى الخلافات والنزاعات التى سوف تؤدى بالملكية السورية الى الدمار . وعلى ذلك عندما تورط ملك سوريا المسمى ديمتريوس الاول (Demetrius I) فى شئون جارة شمالية واقعة فى وسط آسيا الصغرى وهى ولاية كاباد وكيا (Cappadocia) شمالى الفرات وجنوبى انقره ، مثيرا بذلك الكثير من الشكوك فى نفوس الرومان وكشفا للنقاب عن بعض التطلعات والاطماع فى شئون آسيا الصغرى بتدخله فى النزاعات الاسرية حول عرش كاباد وكيا ، انبرت لــــه روما كما انبرى له الملك اتاللوس الثانى (Attalos II) ملك برجامة ، ارضاء للرومـان وكسبا لودهم ، فقدم احد الادعياء فى عرش سوريا واسمه الاسكندر بالاس (Balas) مناهضا لديمتريوس الاول فى عرش سوريا وعندئذ لم يتردد فيلوميتور فى نصرة هذا الداعية وهذا المغامر المسمى الاسكندر بالاس وتوكيدا لهذه الخطوة وتوثيقا لهذه العلاقـــة اعطى ابنته المسماة ثيا (Thea)اوكليوباترة ثيا (Thea) اى كليوباترة الآلهه لتكون زوجة له ، فكان بتزويجه ابنته له ايذانا من جانب مصر فى انها تؤيد دعـــوى " الاسكندر بالاس " ودليلا ضمنيا على ان مصر لم تطرح ظهريا نواياها القديمـــة وتطلعاتها فى عرش سوريا . ولما قتل ديمتريوس الاول فى ساحة المعركة واثبت بالاس عدم صلاحيته للاضطلاع بالمهمة الموكولة اليه ، لابد انه كان قد اغضب فيلوميتور الذى قلب له ظهر المجن وانضم الى جانب ابن ديمتريوس الاول وهو ديمتريوس الثانى الذى

زف الى ابنته كليوباترة ثيا • وفى ساحة المعركة ذبح بالاس وتخلصت سوريا من هـذا المغامر ولكن بطلميوس فيلومتور الذى كان النصر حليفه فى المعركة نقل منها جريحا ومالبث ان لفظ انفاسه الاخيرة عام ١٤٥ ق٠م٠ وهكذا لم تجن مصر شيئا من هذه الحرب السورية ، سوى انها افصحت بطريقة عملية عن نواياها البعيدة المدى • وانها لم تكن بعد قد تخلت عن أطماعها السابقة او انها وعت ذلك الدرس القاسى الـذى تلقته فى عام ١٦٨ ق٠م٠ ولم يخلصها من هذه الورطة سوى السفير الرومانـــى " بوبيليوس لايناس "•

وكان الحال لايزال على ماهو عليه فى نهاية حكم كل من يورجتيس الثانى (عام ١١٦ ق٠م٠) فى مصر وديمتريوس الثانى فى سوريا من حيث التواطوء وعمل الدسائس والتى بمدعين فى عرش سوريا ، تساندهم مصر وتشد من ازرهم • وتلبية لدعوة موجهـة من قبل السوريين الذين كانوا يمقتون ديمتريوس ، بعث اليهم يورجتيس الثانى بابن غير شرعى لبالاس (Balas) كيما يكون ملكا عليهم وكان هذا الابن اسمه الاسكندر زابيناس (Alexander Zabinas) وبعد حرب شعواء استمرت ثلاث سنـوات قتل ديمتريوس واعتلى زابيناس عرش سوريا فى انطاكيـاه • ولكن سرعان مادب الخـلاف بينه باعتباره صنيعة ، وبين يورجتيس الثانى الذى تخلى عن تقديم العون له ، فكان هذا التخلى عنه سببا فى ضعف مركزه ومالبث هذا المغامر ان خلع عن عرش سوريا عقب ثورة قامت ضده وانتهت بقتله والتخلص منه • وجاء بعده امير سلوقى اصيل اسمه انطيوخوس الثامن Antiochus VIII الملقب جريبوس (grypos) فخلف زابيناس على عرش سوريا وتزوج من ابنة للملك البطلمى واسمها كليوباترة تريفاينــا (Cleopatra Tryphaena) •

على ان مصر لم تستطع ان تجنى اى ثمار من وراء هذه الحروب التى كانت تمولها ولا من الاشتراك فى الدسائس التى كانت تحيكها وتدس انفها فى شئون البلاط السورى وقضت الظروف بأن تورط نفسها بتقديم العون والسلاح لعديد من مدعى العرش السورى • ان

روما كانت دائما تقف بالمرصاد لمصر وتحول دون ان تزداد قوتها او يتدعم مركزها فى هذه المنطقة الحساسة • ولربما كان الخوف من روما هو الذى جعل كلا من فيلوميتور ويورجتيس الثانى يختار اسماءا تحوم الشكوك حول احقيتها فى عرش سوريا • ولما جاء الملك بطلميوس لاثيروس " الحمصانى " وجد نفسه يتصدر الى سوريا سلسلة من النزاعات التى كانت تعترى مقدمتها من قبل ولكن لم ينجم عن هذا الاسلوب اى توطيد لمركز مصر فى سوريا فان " لاثيروس " بوصفه ملكا اذ ذاك على البلاد قد اراد ان يوطد مركز انطيوخوس التاسع ضد اليهود فى فلسطين وهم الذين كانوا باستمرار فى حالة ثورة وغليان ويكونون دولة داخل دولة سوريا ، وعلى ذلك تخاصم مع كليوباترة الثالثة التى كانت تعتمد على تأييد الحزب اليهودى فى الاسكندرية • ولما عزل لاثيروس عن العرش وحل محله اخوه الاصغر "الاسكندر الاول " ، وطد مركزه فى قبرص ، على الرغم من الجهود التى بذلتها امه كليوباترة الثالثة من اجل اقصاء لاثيروس عن قبرص • وكان جميع القواد العسكريين التابعين لها قد تخلوا عنها وخانوها فيما عدا قائدين يهوديين هما خلكياس (Chelcias) وأنانياس (Ananias) • ومن قبرص استدعى " لاثيروس " بواسطة مدينة بطلمية بالصعيد كيما يعاونها ضد اليهود وقد كانت هذه فرصة متاحة كيما يعود مظفرا الى مصر عن طريق سوريا بفضل اعوانه فى سوريا • ولكن كليوباترة الثالثة ذهبت الى ساحة القتال فى بطلمية بالصعيد لمنازلته ومطاردته وعندئذ آثر لاثيروس " ان يعود ادراجه الى قبرص ومنها حاول مرة اخرى التدخل فى شئون سوريا والاشتراك فيما يجرى فى ساحتها من نزاعات اسرية وخلافات فرقت ذات البين بين افراد الاسرة المالكة هناك • ولكن جميع الجهود باءت بالفشل ولم تجن مصر من ورائها اى طائل وانطوت على مشروعات غير مجدية اما ماكان يجرى فى ساحة الاسكندرية فانها اعمال فى غاية البشاعة ، تردى فيها الملك الاسكندر الاول ونجم عنها تحطيم كل آماله ، بل والقضاء على نفسه آخر الامر • اذ مالبث السكندريون ان ثاروا عليه وعزلوه عن عرشه فى عام ٨٩ ق•م• ثم قطعوه اربا اربا جزاء فعلته الشنيعة وهى قتل امه البغيضة كليوباترة الثالثة عام (١٠١ ق•م•) وهى التى جوزيت ازاء سنمار ونسى لها مافعلته من اجله

وماارتكبته من جرائم وموبقات من اجل توليته وهو الذى سمح لروما ان تستولى على برقة باعتبارها ارثا اوصى به ابيون لها."

استدعت الاسكندرية لاثيروس فحضر فى عام ٨٨ ق.م. وتولى الحكم لمدة ثمانى سنوات حتى ٨٠ ق.م. قضاها فى سلام وطمأنينة بعد موت اخيه وقضائه على ثورة نشبت فى الاقليم الطيبى. وبعد ذلك تخلت مصر عن اطماعها السياسية فى سوريا ولم تعد تنادى بعد ذلك بأن لها سياسة سورية تبغى تحقيقها.

حكم الملك بطلميوس اوليتيس (٨٠ — ٥١ ق.م.)

الاستقلال المصرى فى خطر :

منذ ذلك الحين لم يعد من حق مصر ان تدعى ان لها سياسة خارجية معينة على الاطلاق، اذ لايمكن بحال ان يطلق على تلك الدسائس الدنيئة التى كانت مصر تحيكها لجارتها فى الشمال، انها تنطوى على سياسة مرسومة وذات تخطيط معلوم. وكان من الاولى بمصر ان تعنى ببعض خطط تصون بها استقلالها ضد روما. وعقب فترة الحكم القصيرة جدا التى حكمتها ابنة " لاثيروس " وهى برنيقة الثالثة التى قتلها زوجها الاسكندر الثانى بن الاسكندر الاول وبعد موت الاسكندر الثانى نفسه فى اثناء ثورة جامحة شنتها عليه الاسكندرية، غضبا منه وبغضا لسياسته، كان النسل الشرعى لبيت البطالمة قد انقرض تماما فى عام ٨٠ ق.م. وكان الاسكندر الثانى نفسه مدينـــا لروما بعرشه الذى حصل عليه بفضل تأييد الدكتاتور الرومانى سلا (Sulla) عام ٨٢ ق.م. وكان اذ ذاك سلا صاحب الحول والطول فى العالم الرومانى. وهنـــا نقف حيارى ازاء المصير المحتوم لبلد اصبح عرشه خاليا من المطالبين الشرعيين به، بينما دولة روما متطلعة الى هذا البلد الذى فرضت حمايتها عليه منذ امد طويل اى منذ عصر فيلوميتور وعام ١٦٨ ق.م. بالذات. وازاء هذه الحيرة وخشية سوء العاقبة لو طال الامد على هذا الشغور (interregnum) ، سارع السكندريــون

بتنصيب ابن غير شرعى للملك الراحل " لاثيروس " وذلك الابن هو بطليموس الزمار (Auletes) الذى عرف بهذا اللقب غير الالهى بسبب موهبة تميز بها ، بل وكان يفاخر بهذا الفن فى اللعب على الارغون او المزمار ، مع ان هذه موهبة غير خليقة بأى ملك ، وقد عرف عنه انه كان يلقب نفسه بديونيسوس الجديـــد (Neos Dionysus) امعانا منه فى التشبه بألة الخمر والفن .

وعندئذ اخذ الحديث فى روما يتواتر عن وجود وصية مزعومة من مخلفات ذلك الملك الاسكندر الثانى الذى قيل أنه اقتدى بما فعله من قبل ملوك غيره وهـــم ملك برجامة (اتالوس الثالث) (Attalos III) وبطليموس ابيون (Apion) فى برقة وملك بيثينيا (Bithynia) المسمى نيقوميديس (Nicomedes) فيما بعد ذلك بقليل وكأنما الاسكندر الثانى تشبه بهؤلاء ووهب بلاده ارثـــا خالصا لروما . وسواء اصحت هذه الرواية ام لا ، فان روما كانت قد الفت هـــذا الاسلوب وهو النص على ذكرها بصورة او بأخرى فى وصايا ملوك ذلك العصر مـــن قبيل الملق او التودد او من سخرية القدر ومع ان القصة التى كانت تحوم حول هذه الوصية المنسوبة الى الاسكندر الثانى ، ربما كانت فرية ومحض اختلاق ، فان الموضوع برمته اصبح مطروحا بالفعل على بساط البحث فى الدوائر السياسية بروما . وكانت الاحزاب الرومانية المتنازعة على السلطة فى الجمهورية الرومانية ، مؤيدة بالقـــواد من امثال يوليوس قيصر وبومبى ، تتسابق فى الاضطلاع بهذه المهمة وهى ضم مصـــر الى روما . ولكن هذه الاحزاب السياسية اختلفت فيما بينها على من يكون صاحـــب الفضل فى الاستيلاء على هذا الارث العظيم .

وضم هذه الدرة وهى مصر الى سلطان الحكم الرومانى فى اواخر العصر الجمهورى . وهكذا اصبح تاريخ مصر مرتبطا ايما ارتباط بتاريخ روما وتطور الاحداث الداخلية فيهـــا فى هذه الحقبة الحرجة من تاريخ الجمهورية الرومانية وهى اذ ذاك فى سبيل الاختصار ،

يتنازعها القادة والزعماء العسكريون ويملون شروطهم على مجلس الشيوخ او السناتـــــو الروماني العتيد .

وكان قادة الحزب الديمقراطي وهم من نعرفهم باسم الاحرار (populares) يجبذون بشدة ضم مصر ، نظرا لان هذه السياسة وماتنطوى عليه ، راقت فى نظر العامة او جماهير البليز (plebs) فى روما وكانوا يعرفون باسم البروليتاريا proletarii وقد استهوتهم الثروة الطائلة التى كانت لدى مصر والغلال التى كانت تنتجها ارض مصر ، املا فى ان يجرى توزيع هذا وذاك عليهم وقد يصحب هذا توزيع رقع من الاراضى كأنصبة يحظى بها عامة الشعب الرومانى . ثم ان هذه الموارد الوفيرة قد تيسر السبيل امام زعماء حزب الاحرار للوصول الى تولى السلطة فى روما ، وهذا امر لايروق لزعماء حـــزب الاشراف (Optimates) وناضلوا من اجل تعطيله وعدم تحقيقه بأى حال مــن الاحوال . وكان من رأيهم انه اذا ترك هذا الموضوع معلقا الى حين ، فقد ينجـــم عن ذلك ميزة اخرى وهى ان يجزل الملك المصرى العطاء ويسخو فى تقديم الرشـــاوى كيما يضمن كسب الاشراف له فى سياسته . وقد كان من اليسير استبعاد مطلبين تقدمت بهما كليوباترة القمر (Cleopatra Selene) وهى اخت لاثيروس وارملته وكانـــت قد تزوجت ثلاثة من السلوقيين على التوالى ، فطالبت بعرش سوريا لاحد ابنائها وكانت سوريا اذ ذاك فى ايدى تيجرانيس (Tigranes) ملك ارمينيا وصهر ميثريداتيس (Mithradates) احد اقطاب ملوك الشرق القديم ، كما طالبت بعـرش مصر لابن آخر لها . ولكن لم يحظ احد المطلبين بالرضا وصرف النظر عن هذا وذاك .
وفى عام ٦٥ ق.م. عندما كان الزعيم الرومانى ماجنوس بومبى يطارد القرصان ويضيق عليهم الخناق فى عرض البحر ويطهر المياه الشرقية منه من شرهم وكان مشغولا كذلك بالحاق الهزيمة بعدو روما اللدود "ميثريداتيس" انبرى احد زعماء الحزب الديمقراطى واحد رجال الحكم الثلاثى الاول وهو ليسينيوس كراسوس Licinius Crassus) وتقدم باقتراح مقتضاه اكراه مصر على دفع اتاوة (Tributum) باعتبارها ولاية

(Provincia) تابعة للشعب الرومانى ، على ان يوكل تنفيذ هذه المهمة ليوليوس قيصر . وفى العام التالى (٦٤ ق.م.) بان فى الافق خطر مماثل ، جاء من ناحية اخرى فمن ثنايا لائحة خاصة بتوزيع الاراضى تقدم بها سرفيليوس رولوس (Servilius Rullus) اقترح فيها ان يجرى توزيع من اراضى الدومين والاملاك العامة الواقعة فى خارج ايطاليا ، على المواطنين الرومان الفقراء ولكن النبلاء او الاشراف فى روما هزموا كلا من الاقتراحين السالفى الذكر وانبرى شيشرون فى خطبة عصماء عنوانها (De lege Agraria) يندد بالاقتراح الاخير ويدعو الى رفضه وبذلك فشلت الجهود فى ادماج مصر فى برامج اصلاحية .

وعلى هذا النحو اصبحت المسألة المصرية احد الموضوعات الرئيسية فى برامج الاحزاب الرومانية ، يسيل لها لعاب العامة وتستهوى القادة والزعماء فى الجمهورية الرومانية بما تثيره من خلافات فى الرأى وماتوقظه من اطماع وآمال . كانت سنة ٦٣ ق.م. فى روما تعرف بسنة كاتيلينا (Catilina) عضو السناتو الفوضوى وهو الذى انبرى له شيشرون وكان يشغل وظيفة القنصل فى ذلك العام فندد به وبأساليبه فى عدة خطب مشهورة عرفت بهذا الاسم " ضد كاتيلينا (In Catilinam) كشف فيها امام مجلس السناتو مبلغ ماتردى فيه هذا العضو من جرائم واعمال تخريبية . وصحب هذا عودة بومبى من حملته المظفرة فى الشرق بعد ان تم له النصر على " ميثريداتيس " وقيامه عقب ذلك بتنظيم الولايات الجديدة التى دانت لروما فى الشرق او فى آسيا ، وكان من جراء هذا التنظيم ان احكم الخناق من حول مصر بوقوع كل هذه البلاد فى حوزة روما فالسلوقيون كانوا قد سقطوا فى يد روما واصبحت سوريا ولاية رومانية خالصة (provincia) وبجانب ولاية آسيا التى كانت فى وقت ما تمثل مملكة برجامة ، نجد كلا من بيثينيا وبنطس جنوبى البحر الاسود يشتركان فى حكومة واحدة ، كما نجد غير ذلك سلسلة اخرى من الولايات التى وقعت تحت الحماية الرومانية ومن هذه مملكة كبادوكيا وجالاتيا ومملكة البسفور على ضفاف القرم . اما الاحداث الجارية فى روما فقد كان لها تأثيرها المباشر على مستقبل

مصر ، ذلك انه فى عام ٦٠ ق٠م٠ تألفت الحكومة الثلاثية الاولى (Truimvirate) من ثلاث رجال عظام (Truimviri) هم يوليوس قيصر وبومبى وكراسوس وثالثهم مليونير ٠ وكان امرا طبيعيا ان يثير قيصر موضوع تلك المشروعات التى سبق ان اقترحها " روللوس " وان يحاول اقرارها ، ولكن عيون الملك بطلميوس اوليتيس لم تكن غافلة عما يجرى فى روما وانما كانت مسلطة باستمرار على خبايا هذه السياسة الرومانية وكان يتوجس خيفة من نتائجها على مستقبله ومستقبل مصر وقد استطاع بأساليبه الخاصة ان يشترى ذمة يوليوس قيصر ودفع له رشوة قدرها ستة آلاف من التالنتات وبذلك استثنيت مصر واخرجت من نطاق المشروعات الخاصة بتوزيع الاراضى وصدر قانون مشهور يعرف بقانون الملك السكندرى (De Rege Alexandrino) وبمقتضى هذا القانون اصبح بطلميوس اوليتيس هو الصديق والحليف للشعب الرومانى (amicus et socius populi Romani)

وهكذا استطاع بطلميوس اوليتيس ان يحقق بغيته ، ولكنه اغفل شيئا مهما ، لم يكن قد عمل له اى حساب ــ ذلك هو شعب الاسكندرية ومع ان هذا الشعب كان يتألف على حد قول المؤرخ اليونانى بوليبيوس (Polybius) من جماعة من الغوغاء الذين ندد بهم هذا الكاتب ، فان فيهم حمية القومية والوطنية الجامحة وفيهم اعتزاز بالنفس باعتبارهم من سكان مدينة الاسكندرية وهى اذ ذاك اعظم مدينة فى حوض البحر المتوسط ، بل وفى العالم المأهول بالسكان ٠ وكان هذا الشعب السكندرى بطوائفه العديدة يكن البغضاء والكراهية الشديدة لروما ويخشى الاثار الناجمة عما حققته من انتصارات فى الشرق ٠

وفى عام ٥٨ ق٠م٠ جاء احد الترابنة المأجورين وهو كلوديوس (Clodius) وهو صنيعة من رجال يوليوس قيصر ، اشتهر بالافك والبهتان ، وتقدم باقتراح يفيض بمس سمعة مصر فى الصميم ويحط من كرامتها وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح وهو يقضى بأن تلحق جزيرة قبرص بالجمهورية الرومانية وتسلخ عن مصر وتصبح تابعة لروما اى (annex) ٠ وماكان فى وسع هذا الملك الصديق والحليف للشعب الرومانى

وهو اوليتيس ان يحرك ساكنا او يعترض على مثل هذا الاجراء التعسفي والقاضي بتقطيع اوصال المملكة المصرية على هذا النحو المشين . على ان الاسكندرية ضاقت ذرعا بهذا الاذلال وانحت باللائمة على الملك اوليتيس لتفريطه وطردته من مصر في نفس العام ٥٨ ق.م. وقد لاذ بالفرار بأقصى سرعة ، ميمما وجهه شطر روما ، طالبا منها العون والتأييد في هذه المحنة التي حلت به ولم يكن هو السبب المباشر فيها .

وهنا قد يعرض لنا ان نتساءل عن موقف روما ازاء هذا الملك الطريد . وهل هناك احتمال بأن يستجيب الرومان لدعوته ويسارعوا بنجدته ورده الى عرشه المسلوب ؟ ام ماذا يكون حل هذا المشكل ؟ وكانت هذه المهمة مربحة للغاية ، يتسابق عليها عظماء الرومان اما علانية او في السر وكانوا يفكرون في الاضطلاع بها لما تنطوي عليه من مكاسب مادية ومعنوية لامحيص عنها ، مآلها الفخار بالاشتراك في عمل مجيد كهذا . وصادف في ذلك الحين ان كانت الجمهورية الرومانية تسودها الدسائس والمؤامرات وتتنازع فيها اهواء القادة وتشتد الكراهية بين مختلف الاحزاب . وكانت ساحات الفوروم (Forum) . او سوق المدينة في روما مسرحا لمعارك شتى تنشب كل يوم بين الخطباء وذوي المآرب والغايات . وكان يوليوس قيصر قد ذهب الى بلاد الغال (فرنسا حاليا) املا في ان يكسب من وراء غزو هذه البلاد نفوذا وموارد كان يحلم بالحصول عليها من قبل من مصر . ثم في الوقت نفسه ترك محسوبه وهو التريبون المهرج كلوديوس ليراقب ما يجري من الاحداث في سوق الفوروم ويتصرف فيها بما يتفق ومصلحة سيده يوليوس قيصر . ولما عرض موضوع المسألة المصرية في هذا الجو المكهرب ، كان ذلك بمثابة وضع الزيت فوق النار فازدادت لهيبا وسط تلك المشاعر المتأججة والملتهبة . وتسبب عن هذا سفك الكثير من الدماء وارتكاب اعمال العنف . وقد استخدم بطلميوس اوليتيس بعض السفاحين والقتلة المأجورين من اجل التخلص من مائة من السفراء الموفدين من قبل اهل الاسكندرية للدفاع عن قضيتهم في روما ضد هذا الملك الطريد . وكان رئيس هذه البعثة وهو ديون (Dion) عضو الاكاديمية السكندرية قد لقي نفس المصير فقتل الجميع وتسبب عن هذه الجرائم خلق

جو من الخزى والعار حتى ان الموضوع برمته اثير امام الحاكم فى روما ونوه عنه شيشرون فى احدى خطبه (Pro Caelio,10) ومع ذلك ففى عام ٥٧ ق.م. قرر السناتــــو بفضل الذهب الذى اسبغه بطلميوس على زعمائه ، ان يعاد الملك الى عرشه بواسطة كورنيليوس (P.Cornelius Spinther) حاكم كيليكيا (الاناضول) ولكن حزب الاستقراطية الذى كان ضد هذا المشروع مؤيدا من قبل الزعيم بومبى الذى كان يطمع فى ان يوكل اليه مثل هذه المهمة — شل قرار السناتو هذا حتى اصبح هذا القـــرار حبرا على ورق . وعندئذ اوى بطلميوس الى الاعتصام بمعبد افسوس فى آسيا الصغـــرى حيث وجد هناك مصرفا يستطيع ان يقرضه المال اللازم لتنفيذ بغيته وعندئذ استطـاع ان يؤثر على الحاكم الرومانى فى الشام واسمه اولوس جابينيوس (Aulus Gabinius) وهو معروف بصداقته لبومبى . وقد اغراه طمعه فى ان يحصل على عشرة آلاف مـــن التالنتات كان قد وعده بها هذا الملك ، اذا مارده الى عرشه المسلوب . وكان السكندريون فى هذه الاثناء قد نصبوا ابنته الكبرى برنيقه ملكة عليهم وكانوا فى واقع الامر يشعرون بالخطر الداهم عليهم ، فأخذوا يبحثون عن زوج لهذه الملكة واتجه تفكيرهم بالطبع الى احد افراد سلالة السلوقيين باعتبارهم اصهارا سابقين وكان هذا الشخص الذى وقع عليه اختيارهم يعيش فى سوريا ولكن جابينيوس منعه من مغادرة سوريا وبذلك حطم آمال السكندريين ثم هداهم البحث الى العثور على شخص آخر من سلالة السلوقيين كان يلقبه السكندريون بالسماك او الفسخانى (Cybiosactes) وهذا اللقب الذى اسبغ عليه ، دليل على نوعية هذا الشخص والطباع التى كان يتحلى بها . وقد ضاقت الملكة بسلوكه وهالها ماكان يتطبع به ، فدبرت قتله والتخلص منه . وعندئذ اتجهت وجهة السكندريين نحو شخص آخر يدعى اركيلاوس (Archelaos) وهو ابن احد قواد ميثريداتيس وقد تمت الموافقة على قبوله زوجا للملكة ولكنه اظهر عجزا عــن التصدى لجحافل الرومان والدفاع عن مصر ورد الفرق الرومانية الزاحفة من سوريـــا بقيادة جابينيوس . وقد تم رد بطلميوس الى عرشه ولكنه لم يعمر طويلا فمات فى عام ٥١ ق.م. تاركا ولدين وبنتين احداهما كليوباترة السابعة وكانت كليوباترة هذه ذات

شهرة واطماع بعيدة المدى • وقد حكمت مصر بالاشتراك مع احد اخويها وهو اصغر منها ببضع سنوات وكان هذا بناءا على وصية والدها الذى وكل الى روما تنفيذ هذه الوصيـــة • وبذلك دخل تاريخ مصر فى ا ا ار تاريخ روما •

كليوباترة السابعـــة (٥١ — ٣٠ ق•م•)

يقظة مصر ومحاولة احياء الامبراطورية المصرية الاخيرة

هذه صفحة فى تاريخ دولة البطالمة ،تربعت فيها على دست الحكم الملكة المشهورة كليوباترة السابعة ،وكانت فيها هى البطلة والمحركة لدفة الشئون وقد مثلت دورها بعناية وتفكير جاد وكادت الاخطار ترفعها بين حين وآخر ولكنها استطاعت النجاة فى هـــــذا البحر المتلاطم الامواج الى ان عصفت بها الاحداث الوافدة من الخارج وقد استعانـــت فى تحقيق مآربها بفضل قائدين رومانيين عظيمين هما يوليوس قيصر وماركوس انطونيـــوس وهما اللذان آوت اليهما وجذبتهما اليها واستخدمتهما الواحد تلو الآخر فى تحقيق مآربها وكادت تنجح فى تحقيق برنامج سياسى واسع المدى • ولكن الحظ خانها آخر الامر• والظروف التى احاطت بالسياسة الرومانية الهوجاء لم تكن مواتية لها ، فلما انجبت ابنـا من يوليوس قيصر وسمته قيصر الصغير او قيصرون (Caesarion) ،كشفت عن نواياهـــا البعيدة بهذه التسمية وعن استعدادها فى الوقت المناسب لكشف النقاب عن احقيـــة ابنها فى ارث ابيه وتجلى هذا بصورة سافرة بعد اغتيال يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق•م• فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس وهو يوم مشهود ومشهور كان يطلق عليه (Ides of Mars = March) فى التقويم الرومانى •

حقيقة ان مصر منذ عهد فيلوميتور كانت قد خرت على اقدامها وكانت تستجدى بين حين وآخر شيئا من العطف والعون من روما وكانت روما تستجيب لمطالب ملوك البطالمـــة المستضعفين فى مختلف الازمان • ولكن الانسان المنصف لايسعه الا ان يعجب لهـــذه الحيوية التى اظهرتها مصر فى عصر الملكة كليوباترة • ومصر كانت اذ ذاك هى البلـــــد

الوحيد الباقي في حوض البحر المتوسط بشقيه الغربي والشرقي دون ان تخضعه روما وتضمه الى املاكها • بل اننا نستطيع ان نقول ان مصر عادت تتطلع الى استعادة امبراطوريتها وتتحسس السبل التي تمكنها من تحقيق هذا الهدف • وكان في هذا التطلع بادرة خطر داهم على الجمهورية الرومانية في فترة دقيقة كانت فيها الجمهورية الرومانية في محنة كلها خلافات وانقسامات بين القواد الرومان والاحزاب واشتدت ازمة الجمهورية بظهور نفر من الجمهوريين المطالبين بالعودة الى الاسس والقواعد السليمة التي بنيت عليها الجمهورية (Res Publica) وادى هذا الى مقتل يوليوس قيصر وقيام الحزب الجمهوري برياسة بروتس (Brutus) وكاسيوس (Cassius) وآخرين بحملة مؤداها الانشقاق والخلاف بين هؤلاء الزعماء الجمهوريين من ناحيـــة وبين اكتافيوس (Octavius) وماركوس انطونيوس (Marcus Antonius) من ناحية اخرى • والزعيمان الاخيران هما الممثلان لارث يوليوس قيصر والمطالبان بالانتقام لدمه من القتلة • وسوف نرى كيف يحسم هذا الخلاف في معركة برية في شمال بـــلاد اليونان هي فيليباى (Philippi) في سبتمبر من عام ٤٢ ق•م• ثم ان سكستوس (Sextus) بن بومبى كان يقود حربا قرصانية في مياه البحر المتوسط وهي حرب كانت تقض مضجع اكتافيوس وانطونيوس وهكذا كانت الاخطار تهدد الجمهورية من كل مكان • ولكن الامر الغريب حقا هو ان تلك الامبراطورية التي داعبت خيال كليوباترة كان الاعتماد فيها على الاسلحة الرومانية وعلى سواعد الجند الرومان والفرق الرومانية (legiones) وهذا وضع شاذ وامر غير مستقيم ولا يمكن الاطمئنان الى سلامته • ومما زاد الطين بلـــة ان رومانيا هو القائد والبطل ماركوس انطونيوس كان يمثل الداعية لقيام هذه الامبراطورية المصرية والسند القوى لها بعد عام ٣٧ ق•م• على ان مجرد التفكير والرغبة في احيـــاء هذه الامبراطورية المصرية • اظهر حقيقة واضحة • هي مبلغ ما في وسع اى زعيم قدير ان يفعله متى توافرت لديه كل تلك الموارد المصرية والاموال المكدسة في خزائن مصر بوفرة • لا يمكن ان ينضب لها معين • ولا ينبغي ان ننسى انه عندما احتدم الخلاف بين اكتافيوس وانطونيوس واخذا يتنازعان على السلطة في الجمهورية الرومانية وعلى من تكون له الغلبة

منهما ، كان هذا الخلاف ماثلا فى الاذهان • ونراه كذلك مجسدا ومتمثلا فى فريقين هما روما ويمثلها اكتافيوس والاسكندرية ويمثلها انطونيوس وكليوباترة • وهكذا تبلور الوضع واحتدم الخلاف فى معسكرين هما روما ضد الاسكندرية او الغرب ضد الشرق •

وها نحن نستعرض بعض الاحداث الجارية ونحاول سرد اهمها لنرى كيف تطورت الامور وكيف زج بمصر فى معارك عسكرية وسياسية هى فى الحقيقة من صميم تاريخ الجمهورية الرومانية • بعد موت بطلميوس اوليتيس بسنتين اقدم يوليوس قيصر على عمل خطير وهو تنكره للنظم الرومانية السليمة ورمية القفاز فى وجه مجلس السناتو او الشيخ الرومانى بأن عبر من بلاد الغال الى شمال نهر بواليو (Cisalpine gaul) كما كانت تسمى اذ ذاك ثم اجتاز نهيرا صغيرا فى شمال ايطاليا اسمه الروبيكون (Rubicon) بجيشه مندفعا صوب روما وكان فى هذا العمل منتهكا لحرمة الدستور الرومانى • ويعتبر هذا العبور فى عام ٤٩ ق٠م• ايذانا ببدء مرحلة جديدة وخطيرة فى تاريخ الجمهورية الرومانية وشد لاسلكه القادة والزعماء الذين استهانوا بالنظم الدستورية المرعية فى روما • وكان هذا العبور فاتحة عصر مرير من الحروب الاهلية (CivilWars) التى شهدها العالم الرومانى بين قائدين عظيمين هما يوليوس قيصر وماجنوس بومبيوس • وقد كان من سوء حظ مصر ان انساقت الى مجال هذه الحروب الاهلية ، مع انه لم يكن لها فى هذه الحرب لا ناقة ولا جمل ، ولكنها كانت ضالعة مع جانب يوليوس قيصر بالتبعية • وكان اولى بها ان تناصر جانب بومبى فهو الذى كان قد اسدى للملك بطلميوس اوليتيس جميلا بأن اوحى الى جابينيوس الوالى على الشام وهو احد صنائعه ، ان يرد الملك المخلوع الى عرشه وتم هذا بالفعل منذ بضع سنوات وسوف نرى ان ابن بطلميوس اوليتيس وهو وهو بطلميوس الرابع عشر وزوج كليوباترة وكان يصغرها سنا تنكر لهذه العلاقة وكان السبب والمحرض فى اغتيال بومبى فى المياة المصرية عند مرفأ الفرما (بيلوزيوم) وكان بمبى قد فر من المعركة بعد هزيمته على يد يوليوس قيصر فى فارساليا (Pharsalus) فى بلاد اليونان عام ٤٨ ق٠م• فظن ان مصر هى المكان الآمن الذى يأوى اليه ولكن هذا

الملك المصرى الشاب كان اذ ذاك فى خلاف مع زوجته واخته كليوباترة والاثنان يقفان وجها لوجه على راس جيوش متناحرة ، ظنا منه ان اغتيال بومبى هو خير قربان يقدمه ليوليوس قيصر المظفر . وكان اقحام مصر فى حرب اهلية رومانية قد جاء بطريقة غير مشرفة وغير خليقة بمصر ولا بملكتها العربية على عرش البلاد وهى كليوباترة السابعة التى ساقها طمعها الى الزج بنفسها فى نزاع رومانى لحما ودما . وقبل معركة فارسالوس اوفارساليا كما كانت تسمى احيانا وهى التى حسمت ذلك الخلاف والنزاع المحتدم بين القائدين الرومانيين العظيمين : يوليوس قيصر وماجنوس بومبيوس ، كانت كليوباترة قد تورطت وقدمت سفنا لسكستوس بن بومبيوس العظيم صاحب اليد الطولى على البيت البطلمى ، وكان سكستوس هذا يقوم بحروب قرصانية فى المياه الغربية والشرقية من البحر المتوسط ، وماكان فى وسع كليوباترة ان ترفض طلبا كهذا . ولما منى بومبيوس بالهزيمة فى فارساليا واصبحت كفة يوليوس قيصر هى الراجحة ، صار موقف كليوباترة وزوجها وهو اخوها الاصغر حرجا للغاية بعد هذه الهزيمة ، على ان العلاقة بين كليوباترة وبين زوجها هذا كانت على غير مايرام فهى فى سن السابعة عشر بينما هو يصغرها بسبع سنوات والخلاف بينهما على اشده ، فتركت كليوباترة الاسكندرية ولجأت الى القبائل العربية المرابطة على تخوم الحدود الشرقية من مصر ، ومن اجل محاربة كليوباترة حشد اخوها وزوجها قواته عند الفرما (بيلوزيوم) حيث اعد العدة لاستقبال بومبى بعد فراره من معركة فارسالوس مهزوما مدحورا ولكن هذا الاستقبال قدر له ان يكون فيه نهاية غير كريمة برجل اسدى للبيت البطلمى جميلا فجوزى جزاء سنمار واغتيل بومبى بتحريض من الملك وهو يتأهب للرسو بسفينته فى ميناء الفرما عام ٤٨ ق.م . ولو وصل يوليوس قيصر وهو يتعقب خصمه ، تعرف على جثمانه وعلى خاتمه وبكاه بكاء مرا وكم تمنى لو مات كرومانى فى ساحة المعركة ميتة شريفة وخليقة بقائد عظيم مثله ، ولكنها الخيانة وقصر النظر تؤدى بالانسان الى مواقع التهلكة . اما يوليوس قيصر فقد الف بين الاخ واخته واصلح ذات البين وطلب اليهما ان يتوليا الحكم بالاشتراك سويا وذلك تنفيذا لوصية ابيهما المودعة لدى روما .

ومنذ ذلك الحين اى منذ عام ٤٨ ق.م. اخذ نجم كليوباترة فى الصعود واصبحت تتقدم الصفوف وكلمتها هى المسموعة التى يتردد صداها فى كل مكان ، فهى المؤيدة والمؤزرة من قبل يوليوس قيصر ، البطل المغوار . وهنا قد يتساءل الانسان هل كان فى وسع الملكة كليوباترة ان تختار طريقا غير الذى سلكته ، وان تقتدى باخيها وباختهـا الكبرى وبما فعله الشعب الابى فى مدينة الاسكندرية ، فتعلن حربا شعواء على يوليوس قيصر فى الاسكندرية ، وهى الحرب التى عرفت فى التاريخ الرومانى بحرب الاسكندريـة (Bellum Alexandrinum) وصنفت احداثها ووقائعها واستراتيجيتها باللاتينية ونسبت الى كاتبها المسمى هرتيوس (Hirtius) وقد انتهت هـذه الحرب بعد مقاومة عنيفة من جانب السكندريين وملكهم بهزيمتهم وموت ملكهم وانتصار يوليوس قيصر عليهم . انها لو فعلت شيئا من هذا ، لكان مسلكها محفوفا بالمخاطر ، ولربما كان فى ذلك خسارة محققة لكل شيء ، بل فيه خسارة لحياتها نفسها ولكنهـا بعقلها الراجح وبعد نظرها ، آثرت طريق الامان وغلبت الحكمة على العاطفة وتقديـر الواقع الملموس بدلا من السير وراء الخيال متأثرة بروح الوطنية الجوفاء . ولذلك انطوت كل سياستها على ان تجذب الى جانبها ذلك الرجل الذى ابتسم له الدهر واصبـح المستقبل بين يديه ، مبشرا اياه بأنه سيكون سيد العالم . وقد تحقق هذا بالفعـل ولكن الى حين .

وبعد انتهاء حرب الاسكندرية التى استمرت سنتين او نحو ذلك من ٤٨ حتى ٤٧ ق.م. وكان السبب فيها شعلة من الوطنية المتأججة ، انتابت اهل الاسكندريـة وجرفتهم نحو التورط فى ثورة جامحة ضد يوليوس قيصر الذى كان قد اتصل بكليوباترة وعاشرها معاشرة الازواج ونما هذا الى زوجها وهو ملك البلاد ، فغلى التاج من فـوق رأسه وقاد هذه الحرب فكانت ثورة عارمة وسمم الآبار واقام المتاريس فى الشوارع والطرقات الضيقة وبذلك وضع اخته وزوجته وعشيقها فى مراكز حرجة للغاية . ولكن يوليوس قيصر استطاع بما اوتى من براعة فى وضع الخطط والاستراتيجية ومعرفة بالاوضاع الطبيعية ،

ان ينجو من هذه المحنة وان يتحقق له النصر • وقد حكمت كليوباترة بالاشتراك مع اخيها الاصغر وتزوجته بعد مقتل زوجها الاول فى ميدان الحرب وكانت الجيوش الرومانيـــة بالطبع تؤيد عرشهما فى مصر • وقد بلغت كليوباترة قمة مجدها واوج عظمتها بعد ان كللت هاماتها تلك الانتصارات التى كسبها يوليوس قيصر • وعقب الحرب التى شنهـــا يوليوس قيصر فى شمال افريقيا وعرفت بالحرب الافريقية • دعاها يوليوس قيصر للحضـــور الى روما لتقيم فى قصر اعده لها على ضفاف نهر التيبر (Tiber) وقد استجابت لهذه الدعوة وعاشت فى روما فترة طويلة كانت معززة مكرمة حتى انها ظنت انها اصبحت ملكة العالم • ولكن المفكرين من الرومان من امثال الخطيب شيشرون كانوا يضيقون بها ذرعا وينظرون اليها كما لو كانت قذى فى عيونهم ويتمنون رحيلها عن روما حتى يتنفسوا الصعداء ولكنهم لم يكونوا يملكون لها نفعا ولا ضرا • فيوليوس قيصر هو سيدها ووالـد ابنها قيصرون وهذا الابن شبيه بأبيه فى سحنته ومشيته • وشاء القدر ان يكون فى هذا الابن سر عظمتها وسر نكبتها فى الوقت نفسه وفيه تكمن المتاعب وبسببه تشتعل حروب اهلية اخرى بين زعماء الرومان بعد ان يتوارى يوليوس قيصر عن الميدان ويغتال فى يوم مشئوم فى شهر مارس من عام ٤٤ ق٠م • نتيجة المؤامرة التى دبرها له جماعة من المؤمنين بالتقاليد الجمهورية فخر صريعا فى احد دهاليز مجلس السناتو الرومانى عند اقدام تمثال مقام لبومبى فى هذا الدهليز • ولا ريب ان مصرع يوليوس قيصر وهو فى قمة مجده يعتبر كارثة محققة بالنسبة لكليوباترة • إنه كان من الصعب عليها بل ومـــن المستحيل الا تتعاطف مع القيصريين وهم الحزب المنادى بضرورة اخذ الثأر مـــن الجمهوريين وهم حفنة من السفاحين والقتلة • ولكنها حاولت الا تورط نفسها فاتخـذت موقفا وسطا يتسم بالحذر والتأنى • انها ارسلت بالفعل جيوشا كانت معسكرة بمصـــر وهى اصلا جيوش رومانية جلبها جابينيوس معه عندما قدم لرد والدها الى عرشه منذ علم ٥٥ ق٠م • ثم تركها لتؤيد عرش هذا الملك • فذهبت هذه الجيوش الى القائد الرومانى المسمى دولابلا (Dolabella) وهو من دعاة الانتقام لدم قيصر • وكان القصد من وراء ذلك تقديم العون لهذا القائد فى محاولة فاشلة • اريد بها الاستيلاء على

سوريا وانتزاعها من كراسوس الجمهوري ٠ ولربما هداها تفكيرها ان تؤثر التريث في هذا الجو العاصف الملئ بالاحداث الجسام حتى قيل انها هي التي دبرت تعطيل خروج السفن التي طلبها منها كل من انطونيوس واكتافيوس كيلا تصل في موعدها ويكون تأخير وصولها فيه الضمان لها والنجاة من اللوم اذا ماتذرعت بشتى الاسباب والمعاذير كقيام عاصفة ، أخرت ابحار هذه السفن او نحو ذلك ٠ وهكذا ارادت انتظار المصير الحتم وقد جاء هذا في سبتمبر من عام ٤٢ ق٠م٠ اذ حسم الموقف في معركة فيليباى (Philippi) التي قررت مصير العالم وانتصر حزب يوليوس قيصر على هؤلاء القتلة من الجمهوريين ٠ وكان الشرق كله فيما وراء بحر الادرياتيك من نصيب انطونيوس بينما الغرب بما في ذلك ايطاليا وبلاد الغال واسبانيا وبلجيكا وغيرها من نصيب اكتافيوس وهو الوريث ليوليوس قيصر بحكم وصيته ٠

على ان مهمة انطونيوس في الشرق هي التي تعنينا في الصميم لارتباطها ارتباطا وثيقا بمستقبل مصر وخاصة بعد ان توثقت صلات كليوباترة بهذا الزعيم الروماني وهو ماركوس انطونيوس الذي وكلت اليه روما تنظيم شئون الشرق كله وذلك بمقتضى اتفاق تم بينه وبين اكتافيوس ولبيدوس وهو الاتفاق الثلاثي (Triumvirate) الرسمي والذي قدر له ان يعمر خمس سنوات ثم جدد لخمس اخرى وانتهى في عام ٣٣ ق٠م٠ وهذا الاتفاق كان في حقيقة امره اتفاقا ثنائيا (Duumvirate) اكثر منه ثلاثيا فانطونيوس هو رجل الشرق واكتافيوس هو رجل الغرب وهما بطلا العالم وليس لهما ثالث يقف في سبيل ايهما ٠ وكانت مهمة انطونيوس في الشرق تنطوي على تهدئة الاحوال ووضع حد للثورات المشتعلة في الشرق وتصفية المشاكل التي تجمعت في ارجائه ثم الاخذ بالثأر لمقتل الزعيم الروماني كراسوس (Crassus) الذي لقى مصرعه بعد معركة كاري (Carrhae) عام ٥٣ ق٠م٠ في العراق بواسطة الاشغانيين الذين كان الرومان يطلقون عليهم اسم البارثيين (Parthians) وكان الخطر يتهدد املاك روما في الشرق من جانب هؤلاء البارثيين ٠ وفي طارسوس (Tarsus) بآسيا الصغرى حدث لقاء

تاريخى ومسرحى فى الوقت نفسه • وكان انطونيوس قد بعث فى طلب كليوباترة لسؤالها عن اسباب تقاعسها فى تقديم العون والمساعدة لمن تصدوا للمضى بالثأر من قتلة يوليوس قيصر •ولكن الملكة آثرت الذهاب لملاقاة انطونيوس لا كمتهمة وانما فى صورة الالهة افروديتى الجديدة •تحف بها مظاهر العظمة والأبهة التى تخلب اللب وتفتن بها العقول • ولم تجد الملكة اية صعوبة فى تبرير موقفها •اذ مالبث انطونيوس ان تحول من قاضى الى محب متيم فى الغرام بها وقد صحبها فيما بعد الى الاسكندرية حيث نعم بمباهج المدينة العظيمة وبحياة كلها مغامرات • لم يسبق لها مثيل •وهى حياة ليس فى مقدور احد ان يقلدها او يحاكيها وكان هذا كله فى عام ٤١ ق•م• ولابد ان الملكة جال بخاطرها حينذاك انها تستطيع بواسطة هذا الجندى العظيم ان تحقق مآربها وان تتخذ منه عونا على تحقيق الامبراطورية التى كانت تحلم بها هى واسرتها فى سالف الزمان •

ولكن انطونيوس لم يترك لنفسه العنان حتى يغرق فى مباهج الاسكندرية •فبعد ان قضى فيها فترة من الزمان • شدته المتاعب التى سببتها له زوجته فولفيا (Fubvia) عقب فشلها فى حرب عرفت بحرب بيروسيا (Perusia) كانت هى المحرضة على اشعالها ضد اكتافيوس،وعندئذ يممت وجهها شطر الشرق كيما تنتزع زوجها من احضان كليوباترة وترده الى ايطاليا • بعيدا عن مباهج الشرق ومفاتنه • ولكن القدر خلص انطونيوس من زوجته انطونيوس واكتافيوس •وتوثق هذا الصلح بزواج انطونيوس من اخت اكتافيوس واسمها اكتافيا وعقدت بذلك معاهدات فى برنديزى وميسينو وهما ميناءان فى جنوب ايطاليا عام ٤٠ ق•م• وكان انطونيوس لا يزال حتى ذلك الحين محافظا على طابعه الرومانى الاصيل بوصفه قائد الجيش الرومانى المعتز بولاء جنده له • وبعد ان اقام فى اثينا فترة مع زوجته الشابة • اخذ يتأهب ويستعد لخوض حرب آل على نفسه ان يشنها ضد البارثيين وكانوا قد غزوا آسيا الصغرى واجتاحوا سوريا ولكن فنتيديوس (L.Ventidius) صدهم وانقذ تلك البلاد من شرهم (عام ٤٨ ق•م•) على ان سياسة الدفاع هذه ليست بكافية واصبح من المتعين على انطونيوس ان يشن

هجوم يتوغل به فى ارض العدو لردعه والتنكيل به ولذا اخذ يستعد لهذه الخطـــة المرتقبة ،فطلب الى زوجته اكتافيا ان تعود ادراجها الى روما وان تتركه وشأنه ثـم ذهب هو الى انطاكيا فى الشام حيث كانت الملكة كليوباترة فى انتظار مقدمه وفى صحبتها اولادها منه ومن يوليوس قيصر .

وابتداءا من هذا اللقاء ،طرأ تغيير واضح على انطونيوس بفضل تأثير كليوباترة عليه بالطبع ،فأخذ يتحلل من الافكار والمبادئ الرومانية الصميمة وينحاز الى الملكـــة كليوباترة بطريقة سافرة ،غير آبه ولا مبال بما يتقول به الرومان عليه من اقاويل ، والبعض منها مبالغ فيه بالطبع . ولكن الحقيقة لم تكن خافية على احد . فلقد حاولت الملكـــة كليوباترة فى اول الامر ان تستعين به فى استرداد اجزاء من الامبراطورية البطلميـــة القديمة فجعلته يمنحها بعض اجزاء من سوريا الخالية او سهل البقاع فى لبنان ثم يقدم لها كذلك جزيرة قبرص والبلدان التى كانت لمصر فى اقليم كيليكيا بآسيا الصغرى وفـــى جزيرة كريت ثم اقتطعت من املاك الملك هيرود فى بلاد اليهودية (Judaea) اقليما غنيا بأشجار البلسم هو المعروف باقليم (Jericho) . على ان الخطط التى وضعتها هذه الملكة بالاشتراك مع حبيبها ،اتخذت صورة مختلفة ،جاءت اكثـــر تحديدا عندما عقد العزم على غزو بلاد الشرق ومحاربة البارثيين . حقيقة ان هذا البرنامج ربما اعتبر فى حد ذاته جزءا من المهمة الاصلية التى وكلت اليه باعتباره احد الرجلين العظيمين فى العالم اذ ذاك (duumvir) ،ولكن سرعان ما اتضح ان هذا الحاكم الرومانى لم يكن يفعل هذا من اجل روما وان افكاره قد تطورت واصبحت بعيدة كل البعد عن هذا المجال ،فمصلحة روما لم تعد هى الرائد والمحرك الاساسى فـــى خاطره .

انه لم يكن يبغى تحقيق اهداف واطماع قوامها تكوين ولايات رومانية او محميات تسبغ عليها روما سلطانها ،وانما انطوت احلامه على تكوين حلف مؤلف من الممالك الشرقية مآله ان يصبح قوة موحدة تكون الاسكندرية عاصمة لهذا الحلف الموحد . وهذا

البرنامج هو ادنى مايمكن تصوره من الخواطر التى ربما علقت بأذهان كل من انطونيوس وكليوباترة ٠

وليس هذا مجال التعرض لاى وصف مسهب لتلك الحملة التى شنها انطونيوس على اولئك البارثيين فى عام ٣٦ ق٠م٠ ولا لأى شئ لما لقيه من هزيمة اليمة ومن خسائر فادحة فى اثناء عودته ٠ وقد اعقب هذا المصير قيامه بشن حرب على أرمينيا فى ٣٤ ـ ٣٣ ق٠م٠ ولعل قصده من وراء ذلك تغطية فشله السابق ٠ وقد انساق فى هذه الحملة الى التوغل فى قلب ارمينيا وانتهت تلك الحملة بأسر الملك الارمينى ومعه اسرته ٠ وقد احتفت كليوباترة بهذه الانتصارات بصورة تجلت فيها العظمة والروعة واسترعت جميع الابصار فى الاسكندرية وفى العالم الرومانى وبانت فيها بصورة واضحة تلك الاطماع التى كانت تجيش فى صدر كل من كليوباترة وانطونيوس ٠فكليوباترة بالاشتراك مع انطونيوس جلسا على منصة فى الاسكندرية ومن حولهما الابناء والبنات وقد اعلنت كليوباترة نفسها ملكة الملكات ولم يكن هذا باللقب الاجوف ٠لانها قدرت ان تكون لها السيطرة التامة على جميع الممالك التى وزعت فى هذا الحفل على ابنائها وبناتها من انطونيوس الذى كانت قـــد اعلنت من قبل زواجها منه ٠فأرمينيا والاقاليم المنتظر اقتطاعها من امتلاك البارثيين ٠ تكون من نصيب الاسكندر هليوس (الشمس) الذى زوجته من يوتاتى (Jotape) ابنة ملك ميديا (Media) اما سوريا فكانت من نصيب بطلميوس فيلادلفوس وكانت كل من قبرص وبرقة من نصيب كليوباترة القمر ٠ وتوزيع هذه الممالك على هذا النحو الساذ فيه اثارة لغضب روما وكشف للنقاب عن حقيقة نوايا انطونيوس وكليوباترة ازاء روما ٠ ولكن معركة أكتيوم فى عام ٣١ ق٠م٠ حطمت هذا البناء قبل ان يكتمل صرحه وتم تحطيم هذا البناء كله بعد موقعة نيقوبوليس (Nikopolis) فى ظاهر الاسكندرية سنة ٣٠ ق٠م٠ وكانت روما تعلم علم اليقين انه لو ترك الحبل على الغارب حتى يتم ذلك البناء لكان فيه خطر داهم على روما نفسها ٠ ولذلك عقد اكتافيوس العزم على تكتيل قواه وجعل ولايات الغرب وعلى رأسها ايطاليا تقسم له يمين الولاء (Conjuratio)

فى حرب يحتفى شنها ضد كليوباترة التى كان الرومان يعتبرونها العدوة اللدودة فهى (hostis) اما انطونيوس فاعتبر متخليا عن رومانيته ، بتصرفه فى املاك روما فى الشرق تصرف الشخص المفتون والمارق الى اذنيه فى حب كليوباترة وقد حسم الموقف عندما التقى الشرق تحت لواء انطونيوس والغرب تحت لواء اكتافيوس فى موقعة مشهورة فى المياه الغربية من بلاد اليونان وفى خليج امبراشيا ، فى اكتيم سنة ٣١ ق٠م٠ وهى تعتبر اشهر موقعة فى العالم القديم وكانت الهزيمة من نصيب انطونيوس وكليوباترة اللذان فرا من المعركة وعادا الى مصر ثم تلى ذلك موقعة نيقوبوليس التى حققت نصرا مؤزرا لاكتافيوس وانتهت بضم مصر الى حظيرة الحكم الرومانى وانتهاء دولة البطالمة بانتحار كل من انطونيوس وكليوباترة ٠

وهكذا منذ وفاة الاسكندر الاكبر حتى معركة اكتيم وهى فترة تبلغ نحو ثلثمائة عام (من ٣٢٣ حتى ٣١ ق٠م٠) تراوحت خلالها السياسة البطلمية بين المد والجزر وكان فيها تاريخ البطالمة يشتمل على حقب معلومة ، وكل حقبة منها تتميز بخصائص من القوة والضعف ٠ وكان ابرزها تلك الحقبة التى شهدت انهيار تلك الامبراطورية فى نهاية القرن الثالث واوائل القرن الثانى ويعتبر بدء هذا الانهيار فى عهد فيلوباتور واتخذ صورة متسمة بالحروجة والخطورة فى عهد ابيفانيس وحوالى علم ٢٠٠ ق٠م٠ سار هذا التداعى والانهيار بخطى سريعة ٠ وسواء اكانت مملكة البطالمة تمثل مملكة محصورة فى وادى النيل لم اتسعت رقعتها وانبعجت فى الشرق والغرب والشمال فكانت ذات لتوءات لابد من المحافظة عليها واحرزت امبراطورية مترامية الاطراف وتطلبت سلطانا بحريا شاملا للحوض الشرقى من البحر المتوسط ، فان مصر بمعناها الضيق (١) كانت هى القاعدة وهى الاساس الذى كان يرتكز عليه كل هذا الكيان الهائل وكانت هى الشغل الشاغل للملوك المتعاقبين فى هذه الاسرة فلم تغب مصالحها عن بالهم ولم تغفل عيونهم عن الاهتمام بالجهاز الحكومى حتى فى احلك الظروف واسوأ الاحوال ٠

(١) رقعة وادى النيل لاتزيد كثيرا عن مساحة مملكة بلجيكا حاليا والمسافة من رأس البرلس شمالا حتى اسوان وجزيرة فيلة جنوبا تقدر بـ ٤٩٢ ميلا اذا طار الغراب رأسا اما اذا سرنا مرتسمين نهر النيل فالمسافة تبلغ ٧٥٠ ميلا٠

الانفتاح على دول عالم البحر المتوسط وعلاقة مصر بروما

بعد ان سردنا اهم الاحداث التى جرت داخليا وخارجيا على عهد ملوك البطالمة المتعاقبين ، يحسن بنا ان نجمل هنا معالم بعض الموضوعات ذات الاهمية الخاصة فى تاريخ مصر البطلمية ومدى الارتباط بين السياستين الداخلية والخارجية وأثر كل منهما على الاخرى . من الحقائق المعروفة ان الاضواء من جميع الجهات فى الحوضين الشرقى والغربى من البحر المتوسط ظلت مسلطة بشدة على مصر عقب فتح الاسكندر الاكبر لتلك البلاد فى عام ٣٣٢ ق.م. اى فى مستهل الثلث الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، بل ومن قبل ذلك بكثير . ولعل الفضل الاكبر فى ذلك كان راجعا الى ذلك الوصف الشامل الذى كان هيرودوت قد دبجه فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عن مصر فى الكتاب الثانى من موسوعته التاريخية وشاء هذا المؤرخ اليونانى ان يسهب فى وصف ما شاهده من امجاد تلك البلاد واثارها وما خبره من عادات قومها . وقد عن له ان يبرز ما كان لها من عظمة حضارية ومن تقاليد دينية متميزة وما كان لاهم معالمها الاثرية من روعة وما كان لطوائف سكانها من نشاط متعدد الجوانب . اخذ كل هذا بألباب القراء فى العالم اليونانى وبخاصة من اتيحت لهم الفرص لزيارة هذه البلاد ، وملك عليهم نفوسهم وقلوبهم ، وهكذا استجاب كثيرون من اليونانيين لدعوة هيرودوت ولبوا النداء فرادى او جماعات . فلما جاءت غزوة الاسكندر لمصر ، فتحت البلاد ابوابها على مصاريعها مرحبة بأولئك الوافدين الذين جاءوا من كل صوب وانهالوا على مصر كالسيل المنهمر ، متهافتين عليها ، اما لمجرد مشاهدة معالم تلك البلاد او لينضووا فى سلك الخدمة المدنية او العسكرية لدى ملوك البطالمة ، وبخاصة الملك بطلميوس فيلادلفوس وهو الذى كان صيته قد طبق الآفاق حتى بلغ السماكين وذلك بفضل اصلاحاته التقدمية العديدة وسعة افقه وتشجيعه للعلم والعلماء والمؤسسات الثقافية والحضارية التى اقامها واسبغ عليها من فضله وماله الشيء الكثير ، فاكسبه هذا شهرة عالمية واسعة . وكانت اصلاحاته العمرانية وحكومته البيروقراطية مضرب الامثال ، كما كانت انتصاراته بفضل قواده فى البر والبحر محل تفاخر وتباه ، مما اوحى للشعراء اليونان ان يشيدوا بذكرها وكان شاعر البلاط السكندرى ثيوقريطس

Theocritus) أحد الاعلام الذين سجلوا سلسلة من الاشعار والقصائد الرعوية
(Idylls) التي طالما تغنى بها الرعاة . وجاءت فيها إشارات مغلفة الى امجاد
هذا الملك والى سخائه وتشجيعه للوافدين من اليونانيين وبخاصة من كان يرم منهم
الانضواء في سلك الجندية . دعاهم الشاعر ثيوقريطس الى التبكير بالحضور الى مصر ففيها
على حد قوله «كل شيء جميل وفيها ملك جواد ، يجزل العطاء للضباط والجنود ويقدم
لهم افضل الاجور عن سعة وسخاء »فلا هو بالضنين الشحيح وانما يبسط لهم الرزق ويؤمن
مستقبلهم بما كان يمنحه لهم من اقطاعات ومنح عينية ومساكن كان يوطنهم فيها وينزلهم على
بيوت المصريين «يشاركونهم في بعض طوابقها كنزلاء طبقا لاوامر ملكية صادرة في هذا الشأن .
سار اغلب ملوك البطالمة من بعده على منوال بطلميوس فيلادلفوس ونهجوا على نهجه بصفة
عامة في مجالي السياسة الداخلية والخارجية وفتحت مصر ذراعيها مرحبة بمقدم شعوب
كثيرة بين اوربية واسيوية واستجابت البلاد لجهود فئات نشطة من هؤلاء المغامرين والمفكرين
والحرفيين الذين اوتوا مقدرة فائقة على العمل الجاد والمثمر والاصلاح في شتى الميادين
فأثمرت جهودهم وأينعت بذور هذه السياسة وانتعشت البلاد اقتصاديا وماديا وادبيا .

وكان من بين المتطلعين الى مصر المزدهرة بل والمتربصين بها دولة ناهضة في
الحوض الغربي من البحر المتوسط «وتلك هي روما الغنية والدولة الناهضة في وسط ايطاليا .
كانت هذه الدولة الغنية منذ بدء عهد بطلميوس فيلادلفوس ترقب الاحداث الجارية في الحوض
الشرقي من البحر المتوسط وصادف اذ ذاك ان كانت في كفاح مرير وصدام وعراك مع دولة افريقية
هي قرطاجة وهي دولة بحرية وتجارية عتيدة وفي اثناء الصدام المسلح بين روما وقرطاجة في
الحرب البونية الاولى ٢٦٤ - ٢٤٢ ق.م «كانت مصر حذرة ووقفت موقفا محايدا متسما
بالحكمة والروية وعرضت ان تقوم بدور الوسيط بين جارتها الافريقية وبين روما من اجل تسوية
هذا الخلاف المسلح «ولكن طلبها هذا رفض . وعلى اى حال فمصر ارتبطت بروما منذ
٢٧٣ ق.م . برباط من الود والصداقة واخذت الصلات بين الطرفين تأخذ شكلا وديا وترثقت
الروابط والعلاقات بينهما على مضى الزمان وتوطدت شيئا فشيئا . ولكن روما كانت تدبر
وترسم وتضع الخطط ، متطلعة الى المستقبل البعيد وقد استطاعت

ان منصب الشباك التي كبلت بها اعناق ملوك البطالمة المتعاقبين وخاصة بعد ان دب الخلاف والنزاع الاسرى بين افراد البيت المالك واستفحل هذا الخلاف واتخذ صورة مسلحة بين اخوين غير متحابين هما بطلميوس السادس فيلوميتور وبطلميوس الملقب يورجتيس الثانى ثم مرة اخرى من بين الاخير بعد أن آل اليه ملك البلاد وحده عقب موت اخيه وبين اخته وزوجته كليوباترة الثانية • وحوادث ووقائع تلك الحروب التى نجم عنها انقسام البلاد وانفصال الصعيد عن الوجه البحرى ليست بخافية على أحد • وقد امتدت آثارها الى جميع مرافق البلاد وتعطلت حركة التقدم الى ان تم الصلح فى عام ١١٨ ق٠م٠ بين الطرفين المتحاربين وسلم كل فريق للآخر بقبول ماتم من اوضاع وحقوق على نحو ما فصلته لنا وثيقة بردية مشهورة هى رقم ٥ فى مجموعة بردى تبتونيس فهدأت الاحوال ولكن الى حين وكانت روما تتدخل وتنصح وتوفق بين المتقاتلين • وتجددت الخلافات بين ابناء كليوباترة الثالثة الزوجة الثانية ليورجتيس الثانى وهما بطلميوس الاسكندر الاول والاسكندر الثانى وجاء بطلميوس لاثيروس فاشتط فى سلوكه وتجددت الثورات والقلاقل ـ كل ذلك وروما قابعة من وراء ستار •تارة تتدخل للتوفيق بين الزوج وزوجته والاخ واخته واخرى بين الاخوة المتنافسين على العرش •

وليس من قبيل الاستطراد ان يجرنا هذا الحديث الى الكلام عن الاوضاع فى مصر والآفاق التى اتجهت اليها فى سياستها الداخلية والخارجية فى حقبة حاسمة من تاريخها ثم التعرف على الظروف والاحوال الاجتماعية والاقتصادية فى عصر شامل لملوك ثلاثة هم بطلميوس فيلوباتور ٢٢١ ـ ٢٠٣ ق٠م٠ ثم بطلميوس ابيفانس ٢٠٣ ـ ١٨١ ق٠م٠ ثم بطلميوس فيلوميتور ١٨١ ـ ١٤٥ ق٠م٠ وفى هذا الصدد ينبغى ان نذكر دائما حقيقة اساسية وهى انه بينما كنا فى العصر السابق وهو عصر كل من بطلميوس فيلادلفوس وبطلميوس يورجتيس الاول نعتمد اساسا فيما نستقيه من معلومات على النصوص الادبية والوثائق البردية وهى وفيرة ثم على مجموعة من النقوش والعملة •اذا بنا فى العصر التالى وهو عصر الملوك الثلاثة المشار اليهم نواجه بحالة اخرى فيها ضحالة نسبية من حيث المصادر التى نستقى منها المعلومات •فالمصدر الادبى إلا قليله على فقرات من المؤرخ اليونانى بولبيوس (Polybius) الذى عاش فى عصر بطلميوس

يورجتيس الثانى وزار مصر اذ ذاك ثم ان وثائق البردى والنقوش المسطرة على الحوائط والالواح الحجرية والبردية والرخامية والبوابات اقل فى القرن الثانى مما كانت عليه فى القرن الثالث • على ان هذا الوضع قد يكون بمحض الصدفة ولاينبغى التعويل عليه اذ قد تكشف الايام عن ارشيف اشبه بأرشيف زينون الذى القى اضواءا ساطعة على عصر بطلميوس فيلادلفوس وفترة الاثنى عشر سنة من صدر عهد بطلميوس يورجتيس الاول او قد نعثر على وثائق ذات قيمة واهمية تكشف لنا الغامض من الامور ونضيف اشياء كثيرة لما لدينا من نتف المعلومات ثم ان تلك الفقرات التى كشفت حديثا عن قرار مهم اصدره الملك بطلميوس فيلوباتور عن عبادة الاله ديونيسوس والطقوس والمراسيم الخاصة بهؤلاء العباد وضرورة حصرهم وتسجيل اسمائهم لدى ديوان فى الاسكندرية ودعوتهم من جميع انحاء البلاد للمثول فى الاسكندرية امام موظف معين اسمه ارسطوبولوس الخ مما جاء فى وثيقة بردية منشورة فى مجموعة بردى برلين — هذا القرار لايقل اهمية وقيمة عما جاء فى حجر رشيد من عهد بطلميوس ابيفانيس وصدر عن الكهنة ورجال الدين وهم يشيدون بذكر هذا الملك ويشيدون بأعماله • ثم ان الحملة زودتنا بقسط وفير من المعلومات لايقل اهمية عما جاء فى نظيراتها مما يرجع الى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد •

وعندما نعرض لهذه الحقبة ينبغى ان نتوخى الحذر الشديد فلا نعمد الى التعميم والاستنباط بناء على مبدأ مرعى او طبقا للقاعدة التى تقول بأن السكوت وعدم النص يخول لنا التسليم بالوضع الراهن (argumenta ex silentio) فمثلا اذا ماتوافرت لدينا الادلة على وجود وظيفة ما مثل وظيفة وزير المالية (dioecetes) فى القرن الثالث ولم نجد شيئا يدل على بقائها فى القرن الثانى فليس من الضرورى ان نستنبط انها توارت عندئذ واصبحت فى خبر كان والعكس بالعكس اذا وجدنا اشارة لوظيفة عامة فى القرن الثانى مثل وظيفة الاديولوجوس (Idiologos) او الابيستراتيجوس (Epistrategos) فليس معنى هذا ان احدى هاتين الوظيفتين او كلتيهما كانتا موجودتين فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد وكذلك الحال اذا ماوجدنا

ظاهرة مهمة من صميم الحياة الاجتماعية او الاقتصادية او الدينية غاب ذكرها في اى من الوثائق الخاصة بالقرن الثالث ثم ظهرت فجاءة ولاول مرة وورد اشارة ثبت اليها في وثائق القرن الثاني ، فقد يكون هذا من قبيل الصدفة البحتة ، ذلك لان معلوماتنا عن القرن الثالث ، على وفرتها وتنوعها ، ليست بالوافية ولايزال يحتورها النقص والقصور كذلك في نواحي كثيرة . وعلى ذلك يتحتم علينا ان نأخذ حذرنا فلا نعمد الى التعميم ولا الى استقراء الحوادث او استنباط الاحكام العامة حتى لانتهم بالاسراف في احكامنا او التغالي والافراط في حسن النية .

ومما لاريب فيه ان مصر في هذه الحقبة اى في عصر الملوك الثلاثة وهم فيلوباتور وابيفانيس وفيلوميتور ، كانت تمر بمرحلة في غاية الدقة والحرج من تاريخها . وبالتالي مرحلة انتقال عابر وانما هي سلسلة متصلة ومتلاحقة من الازمات السياسية بين داخلية وخارجية وفيها مواجهات لمراكز قوى في الداخل وفي الخارج . وكان اولى بها ان تتأهب وتستعد لكل هذه المواقف والمواجهات حتى لاتباغت فتتعثر وتقع في شراك ينصبها لها الخصوم في الداخل وفي الخارج . وهناك اتجاهان اثنان لابد من التنويه عنهما . ومع انهما ليسا بجديدين تماما ، الا انهما برزا بصورة جدية في سياسة البطالمة ، مما استرعى انظار الباحثين والكتاب . والاتجاه الاول كان متعلقا بمعاملة الملك لطوائف الاهلين من عامة الشعب المصرى ونظرته اليهم . وقد شاب ذلك تغير ملحوظ في هذه الحقبة ، قوامه الاهتمام بعناصر الشعب وجموعه الغفيرة (Laoi , plethos) ومايمكن ان تؤديه هذه الاعداد الهائلة من خدمات لحكومة الملك البطلمي ، المتقوقع في وادى النيل والمعتصم بين جنباته ، متخذا استراتيجية طبيعية من موقع البلد الفريد ومستعينا في ذلك بطوائف الشعب المصرى ، وبخاصة طبقة المحاربين المصريين وهم جموع الماخيموى (Machimoi)

وقد اسفرت هذه السياسة عن نتائج باهرة بالنسبة لتدعيم مركز الاسرة البطلمية في مصر . وقد اختلفت هذه السياسة عما كان متبعا من قبل في صدر عصر البطالمة الذين كان ملوكهم الثلاثة الاولون وهم بطلميوس سوتير وبطلميوس فيلادلفوس وبطلميوس يورجتيس الاول

فى فترة طوالها (٨٤) اربعة وثمانون عاما من ٣٠٤ حتى ٢٢١ ق٠م٠ يتبعون سياسة تتسم بحب السيطرة والتحكم وان كانت تهدف الى حب الخير والصالح العام وعرفت بالاسم الاتى (benevolent domination) وكانت هذه السياسة موجهة نحو بنى الشعب المصرى ونحو طوائف اليونانيين على السواء وهى فى مجموعها تنطوى على البطش والجبروت والمغالاة فى المعاملة ، فالملك باعتباره سيد البلاد كان مسيطرا على كل مقاليد الامور ومتحكما فى شئون عامة الشعب ومستعينا فى ادارة البلاد بالعناصر الاجنبية فى تسيير دفة الشئون الدينية والعسكرية وكان اغلب هؤلاء الاعوان من الاغريق او الاسيويين المتهلنين او المصطبغين بصبغة يونانية ، فلما جاء فيلوباتور تبدل الامر غير الامر وابتدعت سياسة جديدة كانت لاتزال فى دور التجريب والاختبار فاسفرت عن نجاح تام وقد تحسستها الحكومة البطلمية شيئا فشيئا بعد ان وجدت الاجدوى من انتهاج سياسة السيطرة والتسلط والتحكم واتخاذ هذا المبدأ قاعدة اساسية فى سياسة الحكم الداخلى وقد حل محل هذه السياسة المنطوية على شيء كثير من التعنت وقصر النظر ، روح من التعاون والمشاركة الاخوية (association) وكان من جراء هذه الزمالة أن اقدمت الحكومة البطلمية على عدة تنازلات فى مجالات شتى من اهمها الشئون العسكرية والشئون الدينية فانضوى المصريون فى سلك العسكرية وتعلموا نظام الفيالق واشتركوا بجدارة وكفاية فى معركة رفح ثم اسبغت الحكومة على المعابد المصرية فى مختلف انحاء البلاد وكثير منها فى قرى الفيوم وبعضها معابد صغيرة اسبغت حق الايواء والجيرة (heira asyla) وهو حق كان يخول للمعبد ايواء المستجيرين واللائذين كما قدمت الحكومة منحا وامتيازات لبعض الشخصيات البارزة من بين طوائف الشعب المصرى وبذلك كسبت عطفه وتأييده ٠

اما الاتجاه الثانى فيتصل بالسياسة الخارجية لملوك البطالمة وانعكاسات مايجرى فى الشئون الداخلية على توجيه تلك السياسة الخارجية والحد من اهدافها واطماعها ٠ ذلك ان هذا الاتجاه المتطور فى تصريف الشئون الداخلية قد صاحبه تغيير جذرى فى الاسلوب الذى اتبعته الحكومة فى الشئون الخارجية ، ولتفسير ذلك نعاود الكرة فنقول ان الملوك

البطالمة الاولون كانوا يحاولون جهد استطاعتهم فى كل من الداخل والخارج تحقيق غايتين اساسيتين اولاهما الاستقلال التام (autarchia) ثم الكفاية الاقتصاديـــة (autarkeia) فى الناحيتين السياسية والاقتصادية وثانيهما قوامه متوقف علـــى مايحققه الامر الاول والهدف منه تحقيق اكبر قدر مستطاع من السيطرة والسيادة Hegemonia فى معترك شئون العالم المتحضر والمشاركة فى توجيه السياسة الخارجية وبهذا تتحـــقق السيطرة والعظمة لمصر وتضمن حرية الارادة والحركة وقد حدث هذا بالفعل واصبحـــت بلدان العالم فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط تخطب ود مصر التى صارت حرة طليقة ذات كفاية اقتصادية وسياسية ، تحرك دفة امورها بنفسها ولايتحكم فيها احد وبذلـــك كفلت لنفسها قدرا لابأس به من العظمة والسيطرة واحتفظ الملوك الثلاثة الأُولون بقدر متوازن فى هاتين الناحيتين . فلما جاء بطلميوس الرابع الملقب فيلوباتور وخليفتاه بطلميوس ابيفانيس ثم بطلميوس فيلوميتور حاولوا جهد استطاعتهم الاحتفاظ بالكفاية الاقتصادية والسياسيـــة ولكن الامر الثانى وهو السيطرة قد اعتوره شيء من القصور واخذ هؤلاء الملوك الثلاثـــة يتخلون شيئا فشيئا عن هذا الوضع ومتطلباته ، فالسيادة او بالأحرى ال(hegemonia) كانت عبئا ثقيلا كلف البلاد من الجهد فوق طاقتها فلم تعد تتمسك بهذه النعرة التسلطية . وعصر فيلوباتور كما نعرفه من ثنايا ماكتبه المؤرخ بوليبيوس ملىء بالقلاقل والاضطرابات والنشاط العسكرى تأهبا للحرب ضد انطيوخوس الثالث وهى التى انتهت بالنصر المؤزر لسياسة سوسيبيوس وزير الحربية للملك فيلوباتور ونجاحه فى رد الملك انطيوخوس الثالث وهزيمته فى موقعة رفح سنة ٢١٧ ق.م . وعقب انتهاء هذه الحرب قام المصريون بتأييد من القوات المحاربة المصرية وهى ال machimoi بثورة جامحة وعمت البلاد حرب اهلية كبدت مصـــر ضحايا كثيرة وجعلت كلا من فيلوباتور ووزيره سوسيبيوس يفكر ان فى تدبير الامر من اجـــل مواجهة تلك الصروفات الباهظة فى حربين متعاقبين : حرب خارجية وثورة داخلية . وقد اضطر الملك الى احداث بعض التغييرات فى التنظيمات المالية والادارية وكانت لهـــذه المستحدثات عواقبها وآثارها البعيدة المدى ، فيما شهدناه من ظهور اجهزة جديدة مثل جهاز ديوان الاديولوجوس ومن فرض بعض ضرائب بعضها على ايجار الاراضى وغلتها وبعضها

الاخر مستحدث ، مثل ضريبة هي اشبه ما تكون بضريبة الرأس (aparcheis) وهذه الضريبة لم تكن معروفة في القرن الثالث وجاءت البيانات الدالة على ظهورها لاول مرة في العصور المتأخرة من الحكم البطلمي وكان اول من فرضها هو فيلوباتور • ومن المحتمل ان الدولة عمدت الى تشديد الخناق على الناس من اجل تحصيل الايجارات والضرائب والوفاء بالمتأخرات ومطالبة الجماهير بالقيام بأعباء شتى والتزامات عديدة ذات طابع استثنائي ، مما يجرى عادة في اوقات الاخطار وفي اعقاب الحروب • وفي اغلب الظن كانت مثل هذه الاجراءات ينجم عنها ادخال بعض الاصلاحات في الجهاز البيروقراطي • والثابت انه في القرن الثاني قبل الميلاد لوحظ وجود بعض التغييرات الهامة في الادارة المالية : فشدد النكير على الناس واحكمت الرقابة من جانب الحكومة على الافراد وحددت العلاقة بين الموظفين والموكلين بجباية الضرائب وبين المسئولين ماديا عن تحصيلها وذلك كيلا يفلت احد من الوفاء بما عليه من التزامات • وقد يروق لنا القول بأن هذا الاصلاح الضريبي والتغيير في اسلوب الجباية تمّ على يدى فيلوباتور • ونظرا لان التشدد في جباية الضرائب والاصرار على توقيع المسئولية المادية على الموظفين والملتزمين والضامنين ، جر بالتبعية الى عمل مصادرات للممتلكات بين حين وآخر ، فان تكدس هذه الاملاك المصادرة نتيجة لهذه السياسة المتشددة ، استتبع بالطبع التفكير في انشاء جهاز خاص يضطلع بمثل هذه الاعباء والمسئوليات واذا ماوجدنا أدلة وبينات ابتداءا من عام ١٧٩ ق٠م٠ ومابعدها ، على ظهور ادارة جديدة او جهاز مالى جديد اطلق عليه " ايديولوجوس " (Idiologos) مهمته مرتبطة بالاملاك المصادرة والاملاك التي لاصاحب لها ، اليس يحق لنا والحالة هذه أن نتصور ان هذا الجهاز ربما كان يرجع تاريخ تنظيمه او ابتداعه مع ابراز الاهمية المتزايدة له في عهد بطلميوس فيلوباتور (٢٢١ - ٢٠٣ ق٠م) على ان هذا كله من قبيل التكهنات وليس لدينا في الوقت الحاضر اي سند يؤيد هذا الادعاء • ونظرا لان بعض الشك والريبة لايزال يحيط بهذا الموضوع الذي تشوبه شوائب ولايعدو ان يكون سوى احتمالات ، نسوقها هنا من قبيل الاستدلال ، فإنه من الأحوط الا نجزم برأى قاطع ، فقد تسفر الاوراق البردية المكتشفة عن بينة دامغة تؤيد هذه الفكرة او تدحضها • على ان الثابت الآن والقول المتداول هو

ان هذه الوظيفة ظهرت فى عهد فيلوميتور عام ١٦٨ ق.م • على أن اهم اصلاح ينسب الى فيلوباتور وقامت البينة والادلة المؤيدة لذلك هو ما ادخله على نظرية الحكم وتغيير فى اهداف الحكومة ، فانتقل من سياسة التحكم والسيطرة والجبروت على المصريين الى خط مغاير تماما هو مراعاة اللين والمشاركة والتعاون مع طبقات الشعب المصرى وذلك بقصد كسب ودهم وكسر حدة كرههم للحكم المقدونى •

وعندما نتحدث عن السياسة الداخلية وما طرأ عليها من تغيير فى الاسلوب والاهداف ، ينبغى أن تكون انظارنا مسلطة على روما لان علاقة مصر بروما كانت هى كذلك فى تطور وتغيير مستمر وقد اخذت تلك العلاقات تتوطد وتتوثق على مضى الزمان • وكانت روما فى الوقت نفسه تتطلع لمستقبل بعيد المدى وترسم وتخطط لصالح الشعب الرومانى ووجدت فى مصر المناخ الصالح والمهاد الخصب لتنفث فيه سمومها وتحقق اغراضها واهدافها ولكن على مهل وبدون تعجيل للاحداث فنسجت من الخطط والشباك ما كبلت به اعناق ملوك البطالمة ابتداء من الملك فيلوميتور ومن تبعه من ملوك البطالمة الاخيرين الذين انحى عليهم استرابون بالائمة وبعتهم بأرذل الصفات ونسب اليهم الضعف والمسكنة واطلق عليهم صفة المخمورين والمنبذلين وضرب المثل بالملك بطلميوس " اوليتيس " او الزمار والد كليوباترة السابعة • وكان الخلاف الاسرى على اشده ، فدب بين الاخ واخيه والزوج وزوجها والوالد وابنته ، واتخذ صورا رهيبة ، احتشد فيها الجانبان السلاح وكان من ابرز الأمثلة على ذلك ماوقع بين الاخوين فيلوميتور وبطلميوس السابع او الثامن الملقب يورجتيس الثانى ثم ماوقع بعد ذلك من خلاف اسرى مسلح بين هذا الاخير وبين زوجته كليوباترة الثانية ، مما ادى الى وقوع حرب اهلية ، انقسمت فيها البلاد على نفسها وبذلك اتيحت الفرص الذهبية لروما كيما تتدخل فتصلح ذات البين وتمعن فى الوقت نفسه فى اذلال هؤلاء الملوك الضعاف او المستضعفين • وقد وصف لنا المؤرخ اليونانى بولیبیوس بعض الاحداث التى وقعت وكان معاصرا لبعض منها فوصفها لنا باسهاب وتفصيل وحكاها بأسلوب رصين ، متوخيا الحيدة والاتزان ، فكان خير مرجع لنا عن هذه الحقبة • ولدينا وصف آخر جاء على لسان مؤرخ رومانى مشهور هو ليفى (Livy)

يؤكد نفس هذه المعاني المتضمنة روح الضعف والاستسلام والتدخل الروماني بصورة سافرة في شئون مصر وتأييد هؤلاء الملوك الضعاف من البطالمة وقد سرد لنا بعض الاحداث الاخرى والنيفية التي كانت تتبعها روما في ارسال السفراء لمصر لاملاء الشروط والتحكم في مصائر الامور وحادثة السفير الروماني " جايوس بوبيليوس لايناس " مشهورة وهو الذى املى شروطه على انطيوخوس الرابع ملك سوريا وارغمه على الرجوع من الاسكندرية والتخلى عن جني ثمار نصر كان قد حققه في مصر وبذلك خلصت روما مصر من عدوها هذا وصانت العرش البطلمي المتأرجح ولكن كان هذا لفترة ، وعندما سنحت الفرصة وقعت مصر فريسة ولقمة سائغة في يد الرومان بعد حين طال او قصر ، والرومان كانوا منذ اول الامر يعرفون جيدا اهدافهم ويتلمسون افضل السبل لتحقيق هذه الاهداف ، وقد وقفوا لمصر بالمرصاد ولم يتورعوا عن استغلال الوقيعة في بعض الاحيان بين الاطراف المتنازعة من الملوك والامراء والاميرات في البيت البطلمي ولم يكفوا عن التدخل في شئون مصر الداخلية والخارجية ونصرة هذا على ذاك ولم يتأخروا عن حماية عرش البلاد من انوقوع فريسة في حوزة الملك السلوقي ، انطيوخوس الرابع ، عندما هم بالفعل في احتلال البلاد والحضور الى الاسكندرية لجني ثمار انتصاراته على الجيش البطلمي فكان تخليص عرش مصر من انيابه على هذا النحو السافر بمثابة وضع مصر تحت الحماية الرومانية ، ولو ان هذه الحماية لم تعلن رسميا ، وهكذا سارت امور العرش البطلمي في تذبذب وتأرجح في مهب الريح ، ويبدو ان ملوك البطالمة الاخيرين قد استكانوا واصبحت وآثروا ان يسيروا في ركب روما ويصبحوا تحت حمايتها وان يفاخروا بما كانت تسبغه عليهم من القاب جوفاء لاتغني ولاتسمن من جوع مثل اللقب الذين اسبغه مجلس الشيوخ الروماني على بطلميوس اوليتيس وهو الحليف والصديق للشعب الروماني " Socius et Amicus populi Romani " وهذان لقبان حصل عليهما بالرشوة والعطايا لاعضاء الشيوخ ولقادة الرومان وزعمائهم من امثال يوليوس قيصر وبومبى واولوس جابينيوس ، وهكذا تمثل هذا الوضع المشين بصورة تجلت فيها البشاعة على عهد ذلك الملك المستضعف بطلميوس اوليتيس (٨٠ — ٥١ ق.م) ، عندما ثار عليه السكندريون

وطردوه سنة ٥٨ ق٠م٠ لتفريطه فى المحافظة على املاك مصر والسماح لروما بالاستيلاء على جزيرة قبرص دون أن يحرك ساكنا وعندئذ سافر الى روما مستنجدا ٠ وجال وصال فى روما واخذ يوزع الرشاوى ويرتكب مختلف الحماقات الى ان تمكن من ان يحظى بعطف الزعيم بومبى ويا قناع اولوس جابينيوس (aulus gabi-nius) وهو الوالى الرومانى على سوريا ووعده له بتقديم رشوة ضخمة هى عشرة آلاف من التالنتات اذا ماقدم له العون فى رده الى عرشه بفضل جحافل الجيش الرومانى وقد تحقق له ماأراد و. اء الجيش الرومانى زاحفا من الشام وبقى فى الاسكندرية منذ عام ٥٥ق٠م٠ لتأييد هذا العرش فكان لبقائه فيها مغزاه واصبح بمثابة جيش احتلال ٠ بل هو احتلال فعلى مقنع وبذلك اصبح الطريق ممهدا للحكم الرومانى السافر فى عام ٣٠ ق٠م٠

هذا عرض سريع لاهم الاحداث وتطوراتها مع تحليل لمغزاها ومرماها وليس من سرد هذه الاحداث اى مناص لكل من يتصدى لتاريخ مصر فى الحقبة الاخيرة من الحكم البطلمى ٠ والشيء الذى يسترعى الانتباه هو ان الاحتلال الرومانى لمصر لم يأت فجاءة ولم يكن ابن ساعته ولم تكن روما متعجلة الاحداث ٠ بل تربصت لمصر وتحينت الفرص من اجل تحقيق مآربها فى غير ما جلبة ولاضوضاء ولم تتسرع اطلاقا فى اقتطاف هذه " الكمثرى " الدانية ٠ بل تركتها حتى نضجت وسقطت تلقائيا كما يسقط الفرخ فى عب صاحبه وهو مستلق على ظهره تحت الشجرة ينتظر فى غير تلهف اقتطاف هذه الثمار فى الميقات والموعد المعلوم ٠ ويدل هذا على مدى الاحكام فى وضع الخطط السياسية ومبلغ الاتقان فى رسم روما لها٠

تعقيب المؤرخ والجغرافى استرابون

وان خير مايمكن ان نختتم به هذا البحث فى تبيان الوان من الحضارة التى سادت فى مصر على عهد ملوك البطالمة وشرح سيرة اهم ملوكهم سواء من حيث القوة او الضعف ـ هو ان نقدم هذه الصالة التى دبجها مؤرخ جغرافى لامع هو استرابون الذى كان معاصرا للحقبة الاخيرة من حكم البطالمة ٠ بل وشاهد عيان اذ زار مصر فى صدر الحكم الرومانى

فى عام ٢٤ ق.م. بدعوة من صديقه الوالى الرومانى الثانى على مصر واسمه ايليوس جاللوس (aelius gallus) (٢٦ — ٢٤ ق.م) . وقد عاش استرابون فى مصر لبضع سنين وجاب انحاء هذا القطر واتيحت له فرص فريدة كيما يتجول ويتقصى وقد وصف لنا معالم البلاد وآثارها ونظم الحكم فيها . ومن الطريف انه عنى على تاريخ الاسرة البطلمية وعقب على احوال ملوكها مع الاقتضاب الشديد . ولكن احكامه وآراءه اتسمت بالاتزان والتدقيق فكان كالخبير والعليم ببواطن الامور ولذلك لا يجب ان نغفل ذكر بعض هذه الآراء وهو عندما سرد لنا قصة مصر البطلمية وما احاط بها من ظروف قبيل الغزو الرومانى فاض فى ناحيتين هما الكيفية التى كانت تدار بها شئون البلاد فى عهد ملوكها الاخيرين مع التنويه بصفة خاصة بتصرفات كل من الملك بطلميوس يورجيتيس الثانى الملقب " فيسكون " مع السكندريين الذين ناصبوه العداء فأغلظ لهم القول واساء معاملتهم ثم انحى كذلك باللائمة على الملك المفتون بطلميوس اوليتيس الذى ساءت صحيفته وتردى فى سلوكه وتعثر فى تصرفاته مع السكندريين اما الامر الثانى فهو نظام الحكم الذى وضعه الرومان لمصر والضمانات التى اتخذوها لكى يصونوا البلاد من التعرض للهزات التى واجهتها فى اواخر حكم البطالمة .

ولما كان استرابون فى جملته ممن يوثق فى روايته ويعتد بما ذكره وما دبجه كتصوير منه لحالة البلاد حتى اننا كثيرا ما نجد فى الكتب والمراجع عبارات مقتبسة منه من قبيل التدليل على اوضاع معينة فى سياسة الحكم والاختصاصات والتوجيهات فى هذا السبيل فقد آثرنا ان نسوق هنا ترجمة لبعض الفقرات والفصول من كتابه السابع عشر ايمانا منا بأن قول استرابون لابد ان يؤخذ مأخذ الجد ويكون له الاعتبار قبل كل شئ وهاهى مقتبسات من الكتاب السابع عشر (١) ف ١١ (٧٩٦) " ذلك ان بطلميوس بن لاجوس خلف الاسكندر ثم جاء من بعده فيلادلفوس وخلفه ابنه يورجتيس) الاول) ثم فيلوباتور بن اجاثوكليا ثم جاء من بعده ابيفانيس وخلفه فيلوميتور وهكذا كان الابن يخلف دائما اباه حتى جاء فيلوميتور فخلفه اخوه يورجتيس الثانى الذى كان يلقب كذلك

فيسكون ثم جاء من بعده بطلميوس لاثوروس (أ) وفى آخر المطاف جاء بطلميوس اوليتيس (الزمار) المعاصر لأيامنا وهو والد كليوباترة . و. من هؤلاء الملوك فيما عدا الثلاثة الاولون ، قد افسدتهم حياة الترف والدعة التى كانوا يعيشون فى كنفها ، فأداروا شئون الحكم فى البلاد على نحو بالغ من السوء . على ان أسوأ هؤلاء جميعا هم اولئك الملوك الذين يرقم لهم بالرابع والسابع ثم الاخير وهو الزمار . وفضلا عن ان هذا الملك الاخير كان فاسقا ومفتونا ، انصرف الى الملذات والشهوات ، فانه كان يهوى مصاحبة الجوقات بعزماره وكان يفاخر بما يبديه من مهارة فى هذا الفن ، الى حد انه لم يكن يتردد لحظة فى اقامة مباريات ومسابقات من هذا النوع فى القصر الملكى . وفى هذه الحلقات والمباريات كان يجول ويصول ويحرز قصب السبق من باقى المتنافسين . وانتهى به المطاف بأن نفاه السكندريون (عام ٥٨ ق.م.) ولما كان له من البنات ثلاثة ، كبراهن هى الابنة الشرعية (برنيقه) فقد اعلنها السكندريون ملكة عليهم . اما ابناه الذكور فكانا لايزالان فى سن الطفولة واقتضى هذا اقصاؤهما عن معترك الحياة السياسية فى ذلك الحين . ولما استقر بها الحكم وتربعت على عرش البلاد ، بعثوا الى سوريا يبحثون لها عن زوج ووقع الاختيار على شخص يدعى النسخانى (Cybiosactes) وكان يدعى نسبته الى ملوك الشام ولكن الملكة بعد بضعة ايام تخلصت منه ودبرت خنقه اذ لم تطقه لفظاظته وغلظته ثم حل محله زوج آخر يسمى اركيلاوس تسلل الى مصر دون علم جابينيوس اذ احضره بعض العلماء الى الملكة ونودى به ملكا على مصر (حكم مدة ستة اشهر فقط) وانتهى امره بذبحه بواسطة . ابينيوس . وفى الوقت نفسه كان بومبى العظيم (أ) اى بطلميوس الثامن . وهنا اسقط استرابون كلا من بطلميوس التاسع الملقب بالاسكندر الاول واسقط كذلك اخاه بطلميوس العاشر الملقب الاسكندر الثانى ولعل السبب فى اغفال ذكرهما ان هذه القائمة كانت تضم اسماء الملوك الشرعيين وهما فى اغلب الظن ليسا كذلك قد استقبل اوليتيس الذى كان قد وفد الى روما (فأكرم وفادته) وقدمه الى السناتو حيث اسبغت عليه كنيتان هما الصديق والحليف للشعب الرومانى واستطاع بومبى ان يضمن له التأييد لا فى

رده الى عرشه المسلوب فحسب ، وانما كذلك فى الحكم باعدام اغلب السفراء الوافدين من مصر والبالغ عددهم مائة وكانوا قد اوفدوا فى بعثة الى روما لمناهضة الملك المخلوع وتفنيد حججه • وكان من بين هؤلاء "ديون" الفيلسوف الاكاديمي ورئيس هذه البعثة • وعلى ذلك اعيد بطلميوس الى عرشه (مؤيدا بجيش رومانى) بواسطة جابينيوس • فقتل بطلميوس كلا من اركيلاوس وابنته • ولكن لم تنقض فترة طويلة فى حكمه حتى وافاه اجله فمات اثر مرض انتابه ، تاركا من بعده ابنين وبنتين كبراهن تسمى كليوباترة • وعندئذ اعلن السكندريون كلا من الابن الاكبر وكليوباترة على عرش البلاد • ولكن الرفقاء والخلان فى صحبة الابن الاكبر اوقدوا الفتنة والبوا الزوج الصغير على كليوباترة وسعوا الى نفيها فأقلعت من الاسكندرية مصطحبة معها اختها الصغرى ويممة شطر سوريا • وقد صادف فى ذلك الحين ان (أتت الرياح بما لا تشتهى السفن) اذ جاء بومبى العظيم فارا من فارساليا وعند رسوه فى ميناء الفرما عند جبل كاسيوس ، وقعت خيانة كبرى ، فذبح بومبى العظيم بواسطة رجال حاشية الملك (وبتحريض منه) ولما جاء يوليوس قيصر ، امر بقتل الشاب[1] واستدعى كليوباترة من منفاها ونصبها ملكة على عرش البلاد ثم عين الاخ الباقى زوجا لها وشريكا معها فى الملك على الرغم من انه كان صغيرا جدا • وبعد مقتل يوليوس قيصر فى مارس سنة ٤٤ ق•م• وبعد معركة فيليباى عام ٤٢ ق•م• التى اندحر فيها قتلة يوليوس قيصر من الجمهوريين عبر انطونيوس الى آسيا وبعث الى كليوباترة يستدعيها كيما يسائلها عن تصرفاتها (وتقاعسها فى تقديم العون ضد قتلة يوليوس قيصر) ولكنه كرمها واحتفى بها احتفاءا كبيرا ثم اتخذ منها زوجة وانجب منها ذكورا واناثا ثم خاض غمار حرب فى موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق•م• بصحبتها ولكنه آثر الفرار فى اعقاب الملكة عندما خرجت بأسطولها من خليج امبراشيا ميممة شطر مصر • وبعد ذلك اقتفى اغسطس قيصر اثرهما وقضى عليهما ووضع حدا كان خاتمة لحكم مصر التى كانت شئونها موضع عبث فئة من المفتونين

---

(١) هنا استرابون اسقط حرب الاسكندرية بين يوليوس قيصر وشعب الاسكندرية واشعال الثورة بتحريض من هذا الشاب الذى ثار لكرامته وخاض الحروب ثم مات فى خضمها •

والمخمورين " • ويمضى استرابون فى الفصل الثانى عشر مستهلا كلامه ببدء عهد جديد هو وقوع مصر فى حوزة الرومان ومفصلا لنا اركان الحكم الرومانى ووجهة نظر الامبراطور الاول فى وضع البلاد ومنهاجه فى حكمها • وقد عنى استرابون على اختصاصات بعض كبار الموظفين الذين نصبهم اكتافيوس •وعاد يقول " لما كانت الحكومة البطلمية قد تنكبت سواء السبيل ولم تنتهج النهج السليم فإن مستقبل مدينة الاسكندرية ورفاهيتها كانت فى تدهور وانهيار بسبب حالة من الفوضى كانت قد ضربت اطنابها فى كل مكان • وعلى اى حال فالمؤرخ " بوليبيوس" الذى كان قد زار المدينة •ساءته حالتها المتفشية فى ارجائها فقال ان طبقات ثلاثة اصبحت هى التى تقيم فى المدينة اولاها العنصر المصرى من عامة الشعب وهؤلاء شديدو الانفعال وسرعان مايتملكهم الغضب وليس لهم اى ميل او استعداد لتقبل الحياة المدنية وثانيتها الطبقة المأجورة او المرتزقة وهؤلاء فى قلوبهم قسوة واعدادهم كبيرة ولايمكن ان تسلس لهم قيادة •ذلك انهم بحكم عادتهم القديمة كانوا يحتفظون بقوات اجنبية مسلحة وهذه القوات دربت واعدت لكى تحكم بدلا من ان تُحكم •نظرا لضعف الملوك وميلهم للاستكانة ومالعرفوا به من تفاهة • اما الفئة الثالثة فهى تتمثل فى عنصر مؤلف من السكندريين وهؤلاء كذلك لم يكن من شيمتهم الرغبة فى الاخذ بأسباب الحياة المدنيـة ولكنهم على اى حال كانوا خيرا من غيرهم لانهم من كونهم امشاجا مخلطة •كانوا بحكم اصل نشأتهم يمتون لليونان بأوثق الصلات وينصبهم فى الصميم المحافظة على العادات والتقاليد المرعية لدى عامة اليونان • ولكن حالتهم مالبثت ان تدهورت بعد ان انقض عليهم الملك بطلميوس يورجتيس " فيسكون " وشتت شملهم • وكان فى عصره ان وفد لزيارة الاسكندرية •

الكاتب اليونانى المشهور " بوليبيوس " وسجل انطباعاته • وعندما تحزمت المدينة وجابهت هذا الملك يورجتيس الثانى وكنته بالشرير بدلا من فاعل الخير وعصت أوامره • صوب عليهم جنده الذين قضوا على كثيرين منهم — تلك كانت حال مدينة الاسكندريـــة

وهذه هي الاوضاع السائدة فيها وهي على حد قول بوليبيوس تنطبق عليها قول الشاعر الخالد هوميروس في الكتاب الرابع من الياذته (السطر ٤٨٣) حيث قال ان الذهاب الى مصر طريق وعر وبين محفوف بأشد المخاطر ".

مظاهر القومية المصرية على عهد البطالمة

ان هذا الموضوع طريف للغاية ، وقد يشوق الدارس المصري ان يعرض له بشيء كثير من التفصيل وهو يتطلب من المؤرخ استعراض الكثير من الاحداث واستنباط الكثير من النتائج من ثنايا تلك الاحداث وماكان يترتب عليها من تصرفات الملوك البطالمة المتعاقبين ، بل ومن قبلهم الاسكندر الاكبر ، مؤسس تلك الحضارة الهيللنستية التى عمت أرجاء الشرق وتسربت الى مصر بخطى وئيدة وثابتة ، فأتت منها مصر اكلها فى كل حين واقتطفت خير الثمار من منابعها الاصلية فى بلاد اليونان وحوض البحر المتوسط ، إما بصفة مباشرة او على يد اولئك الوافدين من تلك الاقطار ، ثم مالبثت مصر ان اصبحت هى نفسها قبلة الانظار فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .

والامر يستدعى منا ان نذكر بعض الاحداث التاريخية ، فنقول أن غزوة الاسكندر الاكبر لمصر فى عام ٣٣٢ ق.م. كانت ضمن حملته الكبرى على دولة الفرس ، انتقاما للحروب الشعواء التى كان الفرس قد شنوها فى صدر القرن الخامس قبل الميلاد على المدن اليونانية فى شبه جزيرة اليونان ونكلوا فيها بالمدائن واشعلوا النيران فى أثينا وسرعان ماكللت مساعى الاسكندر بالنجاح والتوفيق على عدوه الفارسى دارا الثالث وتقوضت دولة الفرس وتمزقت عقب موت ملكها ، دارا الثالث هذا ودخلت مصر لأول مرة فى تاريخها المعروف ، فى زمام حضارة اوربية بعد استسلامها للاسكندر وترحيبها بجيوشه باعتباره المخلص والمنقذ لها من بطش الفرس وظلمهم وبذلك انضوت مصر فى منطقة النفوذ الغربى والحكم الاوربى . والغزاة من مختلف الشعوب كانوا قد تسللوا من قبل الى وادى النيل فجاءوا فى الاجيال السالفة من الشرق والغرب والجنوب وبعض هؤلاء الغزاة استقروا فى مصر لفترات طويلة ، ولكن ابعد كانت دائما فى حرز مكين من

الغزو من ناحية الشمال ، بفضل ذلك الحاجز المنيع الذى هيأته واوجدته تلك المستنقعات الكثيرة المنتشرة فى شمال الدلتا ، بل ان نهر النيل نفسه كان بمثابة الحائط الواقى من الغزو الخارجى من ناحية الشمال ، فصان مصر ضد "برديكاس" عندما هدد بطليموس بن لاجوس فى فترة ولايته على مصر واراد تأديبه ولكن حملته باءت بالفشل ومات برديكاس نفسه فى هذه الحملة التأديبية الفاشلة . فالنيل اذا ، كان فى كثير من الاحيان خير واقى من غزوات الاعداء وشرهم . ولما اتيحت الفرصة السانحة لليونان والمقدونيين على السواء لغزو غرب آسيا وسقطت آسيا الصغرى والشام فى ايديهم ، اصبح الامر يسيرا عليهم فتغلبوا على مصر وسيطروا عليها ووقعت البلاد ، كما قلنا ، فى قبضة الاسكندر فى يسر وسهولة . ولم يكن اليونانيون شعبا يجهله المصريون تماما قبل ذلك ، بل كانوا على معرفة وثيقة بهم فاختلطوا بهم وعرفوهم ايام الفرعون ابسماتيك والاسرة الصاوية (السادسة بعد العشرين) ، وسمحوا للايونيين والميليطيين بالذات (وهم سكان مدينة ميليطوس (Miletus) فى آسيا الصغرى) بالإقامة والاستقرار فى مدينة اسسوها وكانت خاصة بهم وتلك هى نفراطيس (Naucratis) مركز ايتاى البارود فى غربى الدلتا وقد اقام اليونانيون فى كنف هذه المدينة وسمح لهم باقامة جميع الخصائص والمقومات اللازمة للتمتع بحياة يونانية خالصة ومباشرة نظم الحكم المألوفة من مجلس البولى (الشيوخ) ومجلس يضم الاحرار (اكليسيا) ومعابد للالهة اليونانية ومؤسسات ثقافية وحضارية مما كان اليونانيون يألفونه ويحرصون على الاحتفاظ به أينما ذهبوا . ثم فضلا عن هذا كله كانوا يباشرون تجارتهم بحرية تامة – ثم كل هذا على سبيل الترضية والتشجيع لهم على السكنى فى مصر والانضواء فى خدمة ملوكها كجنود مرتزقة ، فكانوا بذلك نواة صالحة لنشر الثقافة اليونانية فى مصر منذ ابكر العصور . وهكذا كانت التجارة متبادلة بين مصر والبلاد اليونانية فى فترات متباينة طوال القرون التى سيطرت فيها كريت على ساحل الشام وفلسطين وهناك ادلة كثيرة على قيام مثل هذا الاتصال بين كريت ومصر .

ولما انتقلت مراكز السيطرة اليونانية الى ميسينى اوميكيناى (Mycenae) الواقعة فى شبه جزيرة المورة (البليبونيز) ثبت بالادلة المستنبطة من الكشوف الاثرية ان المدن فى بلاد اليونان احتفظت بسبل الاتصال والتبادل التجارى مع مصر . ولما ظهرت هيلاس الجديدة (Hellas) واخذت مدائن اليونان مثل أثينا وكورنثة وارجوس وطيبة فى التوسع وحرصت على ارسال ابنائها للخارج لاقامة مستعمرات ومستقرات مدنية ، حافظت على بقاء الصلة بينها وبين المدائن الام . وسارعت المدن التجارية مثل ميليطوس وغيرها فى آسيا الصغرى الى المشاركة فى هذا المضمار ، فأقامت مراكز فى مصر ، كانت بمثابة مستودعات واختارت من مدينة نقراطيس قاعدة فى غرب الدلتا . على ان الاثر الذى كان لهؤلاء التجار اليونان على مصر ، سواء من الناحية الادبية او المادية ، لايمكن الاعتداد به ولا مجال لذكره لتفاهته . ذلك ان هؤلاء التجار كانوا قد وفدوا الى مصر لمجرد التبادل التجارى ومباشرة الاعمال ، املا فى تحقيق مكاسب وتحسين احوالهم المادية . ولعلهم كانوا فى احسن الاحوال يجوبون ارجاء البلاد ويزورون مناطقها الاثرية بوصفهم سائحين . ويصدق هذا القول على اولئك الجنود من المرتزقة اليونان الذين قدموا الى مصر لتأدية خدمات عسكرية بوصفهم مأجورين ، مجلوبين خاصة لهذا الغرض وانضووا فى خدمة الفرعون ابسماتيك ثم امازيس وغيرهما من فراعنة مصر فى العصر الصاوى .

وان بقايا نتف ادبية اوتاريخية دالة على ماأسماه الكتاب اليونان بحكمة المصريين ووجود اشارات عابرة الى ذلك المعنى فى ثنايا المصنفات التى دبجها الكتاب اليونان فيما قبل عصر الاسكندر ، لهى شذرات لاتكشف عن اى معرفة وثيقة بكنه الحياة المصرية ولا بألوان من الادب المصرى الخالص ، بل ان كاتبا ومؤرخا مشهورا مثل هيرودوت وقد جاب المدن المصرية فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وتقصى احوال البلاد واختلط بأهلها وسأل كهنتها ، لم يتعمق فى الكتاب

الثاني من موسوعته التاريخية وهو الجزء الذى خصصه لوصف مصر واحوالها وعادات شعبها وآثارها ولم يزد فيما كتبه عن ذكر بعض المظاهر الخارجية والحالة الاجتماعية والدينية فى شيىء من الاطناب ولذا جاء وصفه بعيدا عن اى تعمق متسما بالسطحية واصبح لايمكن التعويل عليه ولايعدو ان يكون من قبيل الكلام العابر الذى يروق للصحفى المتجول ان يسطره • وزاد الطين بلة انه كان يحكى ما يذكره له الكهنة دون اى تمحيص فأوقعه هذا فى " مطبات " ورعليه نقدا فرمى بالبساطة وعدم تحرى الدقة فى الرواية وقد حرص فيما ذكره عن المصريين على ان يصمهم بتهمة النفور من الاجانب والغرباء (Xenophobia) وقال ان المصريين يخشون الاختلاط بالاجانب ويحرصون على ان ينأوا بجانبهم حتى يكون هناك بينهم وبين الاجانب حجاب وهذه تهمة لصقت بالمصريين على مدى سنين طويلة •

وفى الوقت نفسه لانجد من الناحية المصرية اى اثر دال على ان بعض المصريين شغفوا بالتغلغل فى حياة جيرانهم من اليونانيين او حتى عرفوا شيئا من قبيل حب الاستطلاع عن الافكار اليونانية او اظهروا بعض الاكتراث بالوقوف على لون من الوانها او انهم نهلوا فى وقت ما من عيون الآداب اليونانية والفكر اليونانى والفلسفة ابتداءا من طاليس او سقراط وافلاطون وارسطاطاليس او اقتبسوا شيئا من الاشعار التى جادت بها قرائح الشعراء اليونان ابتداءا من شعراء الملاحم هوميروس والتراجيديين ايسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس والكوميديين من امثال ارسطوفانيس وميناندر وكتاب القرن الخامس قبل الميلاد وهو القرن الذى كان يمثل العصر الذهبى فى تاريخ الامة اليونانية جمعاء • والامر الغريب ان المصريين نأوا بجانبهم الى حد ما عن مناهل الحضارة اليونانية هذه اعتزازا منهم بحضارتهم المصرية العريقة ولم يلتفتوا الا الى المناقص ولم يهتموا [illegible] من صفاء الذهن ودقة الحس [illegible] بين اليونانيين وبين المصريين [illegible] الشعور [illegible] بالقدرة على الابتكار وحسن التنظيم والتبويب • ونص السر فى [illegible] للنفس [illegible]

من الاجانب حسبما عبر عنه هيرودوت فكان لهذا الشعور اثره في عقلية المصريين وجعلهم يحبون العيش بمنأى عن الاجانب ، متوجسين بعض الخيفة ، وسواء أكان المصريون على حق في تصرفهم هذا أم لا ، فان هذه الظاهرة كانت بادية للعيان في تصرفاتهم ازاء اليونانيين الذين عايشوهم وسكنوا في بيوتاتهم وعملوا في المصانع والحقول معهم جنبا الى جنب.

وعلى ذلك فان قيام مملكة مقدونية في مصر في اعقاب دولة الاسكندر وتقسيمها بين نفر من قواده وأركان حربه ثم استئثار بطلميوس بن لاجوس بوادي النيل بعد عام ٣٠٥ - ٣٠٤ ق.م ، واعلانه الاستقلال بالمملكة المصرية وتأسيسه حكومة ملكية بيروقراطية على هذا النحو الصارم والسافر - كل هذا قد أثار مجموعة من المشاكل ، لها جدتها وطرافتها في الوقت نفسه. وفي اغلب الظن لم يتيسر لاى من الاسر الاجنبية التي حكمت مصر من قبل ، ان تكون على هذا النحو من الاختلاف التام في افقها وعقليتها ، وعلى هذا البعد الواسع المدى عن قلوب المصريين الصميمين مثلما كان عليه الحال على عهد البطالمة . ومن ذلك فإذا كان الحكم الاجنبي البطلمي يرمي الا يقتصر على مجرد كونه احتلالا عسكريا بحتا ، فان الضرورة كانت تقضي بأن يتحقق نوع من الاختلاط والمزج بين اليونانيين والمصريين في شتى النواحي وبالاخص في الناحية الدينية . وكان لابد ان يحدث شيء من التماثل والتطابق او التوفيق بين شتى المذاهب والعقائد والطقوس الدينية. ولم يجد اليونانيون اى ضير في هذا ، من تسليمهم بأن اليد المصرية كانت هي العليا في الشئون الدينية وان المصريين كان قدمهم راسخا في هذا المجال . وقد اصيب اليونانيون بشيء من الرعب والخوف والوجل ازاء ماجرى في المعابد المصرية من طقوس ومراسم دينية ومايقيمه الكهنة المصريون من مختلف العبادات في شتى انحاء مصر وماحرصوا عليه من مظاهر العظمة والجلال . ووقف اليونانيون مبهورين ومبهوتين ازاء معبد الكرنك بطيبة وشتى المعابد الاخرى بمفيس والفيوم وبوزيريس وفيلة واسوان وادفوا ، وحيثما

ذهبوا فى أنحاء الوجهين القبلى والبحرى وجدوا معابد مماثلة ذات عظمة وجلال ، تتضاءل امامها معابد اليونان فى بلادهم وفى شتى جزر بحر الارخبيل . ثم ان سياسة الاسكندر الاكبر كانت تنطوى فى مجموعها على قيام امبراطورية عمادهـــا المزج والاختلاط والتوفيق بين الشعوب دون تفرقة بين اليونانى وبين الافريقى او الاسيوى فالجميع سواء ، متآلفون فى النهوض بحضارة عالمية . وفى دعوة الاسكندر هذه ، كان متقدما على عصره وكان سباقا الى العمل الجاد من اجل تحقيق وحدة البشر وهى فكرة ربما كان الموحى بها استاذه ومعلمه الكبير الفيلسوف ارسطاطاليس. وكان هدف الاسكندر الاسمى ان يتحقق مثل هذا المزج بين الشعوب فى كل ولاية من ولايات هذه الامبراطورية . وبمعنى آخر كان يبغى ان "يهلن" الشرق الادنى برمته ويصبغه بالصبغة الهيلينية ، المشوبة بالطابع الشرقى وان تسود مصر حضارة هيللينستية ، فلا هى مصرية صميمة ولا هى يونانية خالصة وانما هى مزيج منهمـــا معا ، بحيث يكون التركيب فيها منسجما متسقا ومتحدا بعضه فى بعض . على ان وفاة الاسكندر الاكبر فى سن مبكرة ، اذ وافته المنية وهو لا يزال فى مقتبل العمـر لم يتجاوز الثلاثين الا بقليل ، جعله يترك برنامجه الذى عمل جاهدا علـــى تحقيقه ، فى صورة "كروكية" ، لم يكتمل اطارها ولم تتضح معالمها ولا تعدو ان تكون سوى خط بيانى ، اهتزت بعض اجزائه ، ولكنه على اى حال كان السبب المباشر فى ان مصر انفتحت على العالم الاوربى وسارت فى ركب حضارة اوربيـــة ، محور ارتكازها فى مقدونيا وبلاد اليونان وجزر بحر الارخبيل .

وقد قيل فى وقت ما انه كان من حسن حظ مصر ، عند تقسيم الولايات فـــى هذه الامبراطورية بين قواد الاسكندر واركان حربه ، ان وقعت من نصيب رجل حصيف من هؤلاء القواد ، كان قد جاوز الاربعين من عمره وعركته الايام وعرف من اين تؤكل الكتف والكيفية التى يتمكن بها من ان يصيد بحجر واحد عدة عصافير على الشجرة . وفضلا عن ذلك فانه كان يؤمن بأن عصفورا فى اليد خير مـــن

عشرة على الشبرة ـ ذلك هو بطلميوس بن لا .وس المقدونى ، الذى اشتهر بأنـه . من خيرة قواد الاسكندر واقربهم واحبهم الى نفسه واكثرهم دهاءا وحنكة . وبالاضافة الى هذا كله فان الظروف كانت قد اتاحت له ان يكون فى صحبة الاسكندر وبرفقته عندما غزا مصر ثم انه لازمة طوال الفترة التى قضاها الاسكندر فى مصر وصاحبـه فى رحلته الشاقة الى واحة سيوه من اجل زيارة معبد آمون فيها ثم حضر تخطيط مدينة الاسكندرية واختيار هذا الموقع الرملى على الشاطئ الشمالى الغربـى بالقرب من قرية تسمى راقوده يعيش فيها الصيادون . وفى هذا المقام القصير الذى لم يزد الا قليلا على المدة التى يقضيها السائح العادى فى مصر وهـى بضعة اشهر ، استطاع بطلميوس وهو فى صحبة الاسكندر ان يطلع بحكم الظـروف وملازمته للاسكندر فى جميع خطواته وتحركاته على جميع الخطط والمشروعات التى كان الاسكندر ينوى تطبيقها وتنفيذها فى مصر ، فأفاد من ذلك وتعلم الشئ الكثير وهو كما قلنا ، يمثل الرجل الحصيف والحريص بطبعه والعليم ببواطن الامور . وفى اغلب الظن كان البرنامج الذى اتخذه بطلميوس بن لاجوس لنفسه وعمل فيما بعد على تطبيقه هو بحذافيره صورة من تلك الافكار التى كانت تداعب الاسكندر وتجول بخاطره بشأن مصر ، فهناك اوجه شبه كبيرة بين هذه الخطة التى طبقهـا بطلميوس وبين تلك التى كانت لدى سيلوقوس فى سوريا وهو احد النظراء لبطلميوس ومن رفاق الاسكندر وقواده . وهذا التطابق فى حد ذاته يعتبر اكبر دليل على ان المصدر الذى استقى منه الطرفان المصرى والسورى ، واحد وان كلا النظامين كان مقتبسا من النموذج واحد .

والخطة الاساسية التى انتهجها بطلميوس الاول وقام عليها برنامجه كانت تنطوى على ضرورة تسرب تلك العناصر الاجنبية من يونان ومقدونيين ومتأغرقـين من الشعوب الاسيوية ومن سكان جزر بحر الارخبيل وتغلغلها فى جميع ارجاء مصر ، على ان يكون هذا التسرب بطريقة انسيابية ويراعى فيها ان تكون سلمية وطبيعيـه

ولا أثر فيها لاستعمال الغصب او استخدام القوة الغشومة • وكان اسلوبه يعمد الى عدم التظاهر بما لديه من قوة عسكرية او اللجوء الى الاكراه والبطش او الجبروت• وانما ترك الاوريتجرى فى أعنتها فى شىء من الاسترخاء وعدم التعجل ودون اى ايحاء او استبداء • ومما ساعد على تحقيق هذا الاسلوب فى الاتصال مع المصريين و. ود منطقة واحدة كبيرة ذات رقعة واسعة متاخمة للصحراء الغربية هى واحة الفيوم ، استهوت اليونانيين واختارها ملوك البطالمة كيما يستقر فيها بعض الجند وتوزع عليهم الاراضى فى كنفها • وكان اختيار بطلميوس الاول لهذا الموقع بالذات ينم عن حصافة ومهارة فائقة فتلك الواحة النائية كانت تسمى اقليم البحيرة (Limné) باعتبارها واقعة فى احضان بحيرة قارون ثم لما جاء بطلميوس الثانى غير اسمها واطلق عليها الاقليم الارسينوينى تخليدا لذكرى اخته وزوجته الثانية ارسينوى الثانية • وهذا الاقليم متحكم فى شريان كبير للمواصلات عند رأس الدلتا ويؤلف نقطة بارزة صوب الغرب ، يمكن ان تتخذ منها قاعدة نائية لحماية الحدود الغربية لمصر • وفضلا عن هذا وذاك فهى متاخمة للصحراء ويمكن الزحف منها وعمل توسع عمرانى فى جوف الصحراء • وقد تم استصلاح اراضى شاسعة على حساب تلك المستنقعات والاراضى المالحة او القلوية الواقعة فى جنوب بحيرة قارون وعلى جانبيها • ثم ان هذه الواحة النائية كانت بعيدة عن المجرى الرئيسى لنهر النيل والوادى الواقع على جانبيه ، ولكنها فى المتناول وهى محصورة ويمكن الاطمئنان الى ان الجند اليونان المستقرين او المستوطنين فى نطاقها اصبحوا فى مأمن ، بعيدين عن اى عائق وليسوا مصدر اثارة للروح القومية المصرية وهم الذين كانوا فى عيون العناصر الوطنية اشبه بالقذى ، يضيق بهم المصريون ذرعا ويتوجسون منهم خيفة• وهكذا اكتظ اقليم الفيوم بالقرى والمدائن وعرف منها ستموستون قرية تحمل اسماء يونانية وكان من بينها اربعة عشر قرية تحمل اسماء بعض افراد الاسرة المالكة فكان هناك فيلادلفيا

وفيلادلفيا وفيلوتيريس [illegible] وكليوباترا [illegible]

(ديمى السباخ في شمال بحيرة قارون) وغيرها من مستوطنات اليونانيين ومؤسساتهم العمرانية • وهكذا آثر اليونانيون الاقامة في تخوم الفيوم بعيدين عن المناطق المكتظة بالسكان وعن معاقل الوطنية المصرية واهمها طيبة •

والمركزان الرئيسيان للحياة اليونانية الصحيحة وهما اللذان قدر لهما ان يكونا بواتق لعملية التهلين والتمدين والتحضير في مصر ، هما الاسكندرية على الشاطئ الشمالي الغربي وبطلمية في اعماق الصعيد في محافظة جرجا • وكلاهما مؤسستان حضاريتان بحكم نشأتهما وطبقا للغرض الاساسي من تأسيس كل منهما • وقد تم تنظيم الحياة في كل منهما على النسق اليوناني الصميم باعتبارهما مدينتين متمتعين بالحكم الذاتي • وليس في احدى هذه الحالات الثلاث ماكان يستوجب اخراج احد من العناصر الوطنية من مكانه او السطو على أرضه واغتصابها منه اضطرارا فالسكان الاصليين بدرجة تستحق الذكر فالجنود المستوطنون في الفيوم حلوا في اراضي تم استصلاحها في اغلب الاحوال على ايدى هذه العناصر الاجنبية وكان بعضها اما من المناطق الصحراوية المتاخمة او مستنقعات جففت ومهدت بفضل العقول والاساليب المتطورة على ايدى عناصر خبيرة من مهندسين ومقاولين يونان • اما الاسكندرية فكانت نشأتها واختيار رقعتها موفقة للغاية فهى عبارة عن سلسلة من الكثبان الرملية الممتدة على شاطئ البحر المتوسط الى الغرب من الفرع الكانوبى في دلتا نهر النيل • وكان يسكن هذه البقعة من قبل جماعات قليلة متناثرة من الصيادين الذين اقاموا عليها اكواخهم في راقودة • كل ذلك لم يكن هناك ضير على احد او افتئات على اراضى الغير عندما وقع اختيار الاسكندر بذكائه الفذ وبعد نظره على ذلك المكان • وقيل إنه كان متأثرا بما شاهده عند حصاره لمدينة صور وهو في طريقه الى مصر وما وجده في جزيرة فاروس تجاه الشاطئ السكندرى من تشابه اوحى اليه بأن يربط هذه الجزيرة الصغيرة الرابضة في عرض البحر بالشاطئ بواسطة جسر طويل أقامه لهذا

الغربى وعرف باسم الهيبتاستاديم او السبع الفراسخ من حيث الطول وبذلك كانت هناك ميناءان شرقية وهى المستعملة وغربية تشتد فيها رياح البحر وتخشاهـا السفن ولكن الفنار المقام فوق جزيرة فاروس كان خير مرشد يهدى السفن لترسو فى هذه الميناء • وقد قيل فى صدد اختيار الموقع الذى أُسست فيه المدينة أن اهل نقراطيس من اليونانيين ادلوا الى الاسكندرية بالنصح والارشاد بصدد اختيار هذا الموقع الفذ وما يتمتع به من اهمية نظرا لبعده عن مصب النيل فى الفرع الغربى وهو الكانوبى وعدم تأثره بما تجلبه مياه الفيضان هناك • اما عن مدينة بطلمية فقد اسسها بطلميوس الاول وشاء القدر ان تكون المدينة الوحيدة التى اسسها ملوك البطالمة واقتصروا على ذلك ولم يسايروا الركب فى السياسة التى انتهجها الملوك السلوقيون وكانوا سباقين فى انشاء المدن ولم يتقاعسوا عن ذلك مثلما فعل البطالمة الذين خشوا اذا ماتوسعوا فى انشاء المدن ، ان يقطعوا اوصال البلاد ويفتتوا من وحدتها والرابطة التى اوجدها نهر النيل • ولعلهم ارادوا بتأسيس مدينة واحدة أن يثبتوا للعالم أنهم يستحقون الجدارة بأن يكونوا خلفاء الاسكندر وأنهم لم يتأخروا عن الركب الحضارى ، بل ساروا فى هذا المضمار اسوة بملوك سوريا وغيرهم من خلفاء الاسكندر الذين ساروا فى هذا الشوط الى مدى بعيد فتوسعوا فى تأسيس المدن • وكان تأسيس بطلمية على موقع به قرية مصرية تسمى " ابسوى " (Psoi) وهى قرية ليست بذات اهمية ولم تترك لنا سوى اسمها القديم ولم نعرف عنها شيئا كثيرا وقامت محل بطلمية فى العصر الحديث مدينة المنشاة وهى مركز فى محافظة جرجا مخلدة لذكرى بطلمية مؤسسة بطلميوس الاول وحاملة اسمه المجيد ويقال انه قصد بهذه المدينة ان تكون اداة تحضير وتمدين فى الصعيد وان تراقب الاحوال الجارية فى طيبة ، معقل الوطنية الوطنية حتى تتعادل الموازين والاوضاع وتكبح جماح الغلاة من الناهضين للحكم الاجنبى اذا ما ثارت ثائرتهم •

ومن ثنايا هذه المراكز ، انبثق نور الثقافة والحضارة اليونانية في طابعهـا الهيللينستي وتسربت الى شتى ارجاء مصر حتى وصلت الى الواحات والاقطار النائية والمتطرفة من مصر ، بما في ذلك الريف والحضر على السواء . ولكن بطلميوس الاول كان حصيفا وحريصا للغاية فآثر الحذر الشديد في اختيار الطرق التي يمكنه ان يسلكها ازاء تسرب تلك الافكار والعادات اليونانية والنظم الحكومية المرعية عند اليونان وقد شاهدناه وهو عازف عن المغالاة والتوسع في انشاء المدن ، مكتفيا بالنصيب اليسير واتباع القسطاس ومقتصرا على تأسيس مدينة واحدة هي بطلمية . ويمكن اعتبار موقف بطلميوس الاول من العبادات المصرية وتسامحه ازاءها دليلا على السياسة التي انتهجها نحو العناصر القومية ودعاة الفكر المصري الصميم ، فهو لم يتدخل في شئون العبادة المصرية ، ولو فعل شيئا من ذلك ، لكان متناقضا مع نفسه وماجرى عليه العرف اليوناني ، فكان الاهالي احرارا في مباشرة العبادات التي سار عليها اجدادهم واستمروا بالفعل يعبدون آلهتهم التقليدية في معابدهم القديمة . وكان في مصر ، على حد قول العالم البريطاني الراحل سير "هارولد ادريس بل " ملغمة وثنية حقة ، تعددت فيها الآلهة المصرية والالهة اليونانية الى درجة يحار الانسان في فهم مدلولاتها وسر تعددها وقد جرت عدة محاولات للمطابقة والمقابلة بين بعض هذه الآلهة المصرية ونظرائها عند اليونانيين مثال ذلك الاله امحتب اله الشفاء يقابل عند اليونانيين الاله اسكلبيوس . على ان بعض هذه المحاولات كانت غير منظمة وفيها شيء كثير من الافتعال وسارت فيها الامور على غير هدى . اما الملك البطلمي فقد اتخذ لنفسه المركز التقليدي المخول له باعتباره فرعون البلاد فهو اله يعبد وهو فضلا عن ذلك يعتبر المالك لكل شيء ولا راد لكلمته . وعلى اي حال فالعبادات السائدة في مصر كان مظهرها يساعد على ابراز صورة فيها شيء من التوافق بين المصالح المشتركة .

على ان المفتاح الذى ييسر لنا تفهم الخطة البطلمية ، نجده فى سياسة هذا الملك البطلمى الاول الرامية الى ابتداع عبادة جديدة ، تجمع بين الافكار المصرية والافكار اليونانية فى مجال دينى واحد ، الا وهو عبادة الاله المبتكر " سيرابيس (Sarapis) " . وقد حيك حول نشأة هذه العبادة الجديدة قصص كثير وفسرت مظاهرها وطقوسها المتفشية والمنتشرة بين طوائف عديـــدة بأساليب وطرائق كثيرة وشابتها احلام ذكرها لنا الكاهن المصرى مانيثون السمنودى وردد ها من بعده كثير من الكتاب اليونان والرومان من امثال المؤرخ الرومانى تاكيتوس (Tacitus) واصبح هذا الاله والالهة الاخرى المشتركة معه فى محرابه (Theoi Synnaoi) محور اهتمام الناس والحكومة اليونانية على السواء وانتشرت المعابد المكرسة له فى كل مكان حتى وصلت الى اعمـــاق القرى المصرية . وتجمع الناس بين يونان ومصريين حول هذه العبادة التى اتخذت منذ نشأتها طابعا رسميا واولتها الحكومة كل تشجيع . وفى اتخاذ هذه الديانة الجديدة عبادة رسمية مايوحى بخطة انتوتها الحكومة وهى العمل على اطمـــاس جميع الالهة الاخرى ذات الاهمية الضئيلة ، بقدر المستطاع ووضع الكثير منها على الرف ، إن امكن . وعلى ذلك يمكن القول ان السياسة التى كانت الحكومة البطلمية تهدف الى تحقيقها ، هى السعى الى ضم الشمل والعمل على التوحيد بين العناصر الساكنة فى مصر وبين الاجانب الوافدين والجمع بينهم فى صعيد واحد وهذا هدف قومى بالطبع وفكرة صائبة ، ومن شأنها ان تسلس قيادة المحكومين متى اشتركوا فـــى عبادة اله واحد ، ابتدعته لهم الحكومة البطلمية ، وانه لحدث خطير حقا فى تاريخ نشأة العبادات والديانات ، ان يزمع الملك البطلمى الاول على تكليف هيئة مشتركة من العلماء ، يمثل فيها العنصران ، المصرى فى شخص مانيثون واليونانى فـــى شخص تيموثيوس اليومولبيدى وهو فقيه ومتضلع فى الديانة . وقد قامت تلك الهيئـــة بصياغة الطقوس اللازمة لهذه العبادة وبالطبع كان للعنصر اليونانى الغلبة واليـــد

العليا ، وكان مانيتون متجاوبا ومستسلما لاقصى حد . وهكذا وضعت مراسم هذه العبادة التى انشأها بطلميوس الاول واقتبست عناصرها من ديانات عديدة سائدة فى امم مختلفة وذلك استجابة لمطالب الساعة حسبما تراءى لهذه اللجنة وطبقا لمقتضى المفاهيم التى وضعت لتسير عليها اللجنة وتنهج على منوالها . فكان الاله سيرابيس ممثلا لشخص الاله اوزيريس واخته وزوجته ايزيس وابنهما " حورس " او كما يسميه اليونانيون هاربوقراتيس (Harpocrates) فكان ذلك عبارة عن ثالوث مرموق فى نظر اليونانيين والمصريين على السواء وكان هذا الثالوث بمثابة حلقة اتصال ورباط دينى وثيق بين الشعبين : المصرى واليونانى — فتآلفت القلوب واتحدت الاهداف وهذا وضع له قيمته فى حد ذاته بالنسبة للحاكم والمحكوم ولاينبغى ان نغفل ذكر هذا الاثر فى تقديرنا وتقييمنا لنشأة القومية المصرية . وفى الوقت نفسه قد أتاح هذا الاجراء فرصة سانحة للدولة كيما تتحكم فى شئون تلك العبادة المصرية دون حاجة لأى تدخل او عبث بالاوضاع القائمة ، فالعبادات القديمة كان امرها هينا ، اذ امكن وضعها فى يسر وسهولة تحت اشراف موظفين حكوميين ثم تركت بعد ذلك تلك المؤسسات الدينية القديمة وشأنها فعلى امل ان تتضاءل وتنكمش شيئا فشيئا وينتهى بها المطاف الى ان تذبل امام تلك العبادة الجديدة ذات الرونق الباهر او على اقل تقدير يجرى امتصاصها وتغلغلها فى داخل عبادة سيرابيس عن طريق التوافق والتطابق وهو امر كان يكفى له فى كتب التاريخ البطلمى بعملية المطابقة بين المعتقدات (syncretism) . ومهما كانت الاساليب المختارة من اجل ستر العبادة الرسمية الجديدة وتغليف عبادة سيرابيس بالمراسم والطقوس المقتبسة من مصادر مصرية ، فان الروح اليونانية كانت هى الغالبة والبارزة . وتمثلت هذه الصبغة فى الفكرة الاساسية التى كانت السبب فى ابتداع الاله سيرابيس بقصد واضح لا لبس فيه وهو جلب كل اولئك الذين عبدوا هذا الاله الى الدائرة اليونانية وضمان ولائهم

للملك البطلمي بالانضواء في عبادة مشتركة كهذه ، فكأنما الغرض الحقيقي من وراء هذه العبادة هو سياسي .

وهناك اساليب اخرى غير مباشرة شبيهة من ذلك الاجراء الذى اتبع في ابتداع عبادة سيرابيس . وقد روعى اتخاذها وسيلة او اداة من اجل "تهلين" المصريين وطبعهم بالطابع اليوناني وهذه الاساليب تناولت المظهر والجوهر على السواء وكان لابد ان تؤتى ثمارها في كل حين ، بل وفي شتى المجالات ، فليس من المعقول ان يقف المصريون مكتوفي الايدى امام حضارة هيلينية متفتحة لتقبل العناصر الشرقية والاسيوية ولاحتضان الصالح منها ، على ان يكسى هذا كله ويطلى بقشرة رقيقة او سميكة من غشاء " هيليني " . وبعض هذه الاساليب يمكننا التنقيب عنها في اماكن اخرى ، ففي مجال اللغة ، كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية واستمر هذا الوضع مرعيا طوال العصرين البطلمي والروماني اى نحو الف سنة . وعلى ذلك كان على المصريين ان يجاروا هذا الوضع ويتقبلوه صاغرين ويتأقلموا معه . ونحن نعرف ان الامية كانت متفشية في مصر وان عدد الاميين (hoi agrammatoi) كان يمثل العنصر الغالب في السكان وان الكتبة العموميين ورجال الدين هم الحفظة على هذا التراث الفكرى واللغوى . ومع انه لايوجد من الدلائل مايشير الى وجود اى اثر لروح الاكراه في استعمال اللغة اليونانية واستخدامها في المكاتبات والشكاوى ، اذ بقيت اللغة المصرية القديمة والخط الديموطيقي مرعيين في شئون الديانة المصرية والادب المصرى والمعاملات وعقود الزواج بين المصريين ثم في النقوش والمراسم الدينية ، فإنه كان من الطبيعى ان الشبان المصريين الراغبين في شق طريقهم في سلك التوظف والترقى بقصد التعاون مع الحكومة اليونانية ، تعين عليهم تعلم اللغة اليونانية والاخذ بنصيب من الثقافة اليونانية المجلوبة ، تمشيا مع روح العصر وتجاوبا مع سادة البلاد الجدد . ومن اجل تحقيق هذه الاهداف انشئت المدارس لتعليمهم .

وقد جلبت هذه المدارس اليونانية فى ركابها الوانا من المؤسسات والنوادى وحلبات المصارعة والندوات الثقافية والرياضية وهى المعروفة باسم (gymnasia) ثم الحمامات • ويؤم كل هذه المنتديات جماعة من الشبيبة او الفتيان (ephebi) ويتخرجون منها بعد فترة قصيرة شبانا صالحين ومواطنين مستكملى المواطنية وكان هذا مقصورا بالطبع على العناصر اليونانية وحرم على المصريين الانضواء فى هذه المؤسسات الثقافية وكل من تسلل اليها ،كان يقصى عنها ويعاقب فالاب المصرى الذى يعمد الى تسجيل اسم ابنه فى سلك الشبيبة بطريق التدليس كان يعاقب بمصادرة ربع املاكه وذلك بحسب ماجاء فى البند الرابع بعد الاربعين من مقننة الاديولوجوس وهى الدستور العرفى فى اواخر الحكم البطلمى وفى العصر الرومانى • وقد انتشرت الجمنازيات فى مصر البطلمية حتى وصلت الى اعماق الريف والى القرى النائية • ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت هذه المؤسسة فى وسط المدينة المصرية العريقة وهى طيبة معقل الوطنية المصرية ومركز عبادة الاله آمون • اما متحف الاسكندرية واكاديميتها الثقافية الا وهى الموسيوم (Museum) حيث كان التاسوع الالهى (Musae) الراعى لربات الفنون التسع ثم المكتبة اليونانية المشهورة فكانت هذه معالم ذائعة الصيت ومفخرة لمصر البطلمية وفيها عكف نخبة من العلماء اليونان الذين جاءوا من بلاد اليونان والجزر وآسيا الصغرى ينعمون بضيافة الملك البطلمى الذى اغدق عليهم من عطفه وتشجيعه الشيء الكثير فعكفوا على اعداد الموجزات والملخصات من كتب العلم والمعرفة مصرية ويونانية وتم لهم اخراج مصنفات بوبوها فى ثوب يونانى قشيب لصالح العالم اجمع وبذلك اثرى الفكر العالمى واصبح لدينا تراث ادبى وفكرى هائل يعرف بالادب السكندرى بعد تنقيح اعمال المفكرين والكتاب والشعراء اليونانيين الاولين • ثم ان سبل التجارة المصرية كانت قد اخذت تتأثر كذلك وتنسجم فيها المعاملات مع التقاليد والعرف اليونانى وذلك باستخدام العملة المسكوكة كوسيلة ميسرة فى التبادل التجارى وعرفت

قواعد البيع والرهن والائتمان والهبة واليونان حذقوا في كل هذه الانواع من المعاملات •

بانت امارات المعالم الرئيسية التى جرى تخطيطها لبرنامج " التهلن " والتحضر في مصر قبل موت بطلميوس الاول (سوتر) في عام ٢٨٣ قبل الميلاد (او في ٢٨٢ ق•م) وان كان ابنه بطلميوس الثاني الذى توج فرعونا علـــى البلاد في يوم ٢٦ يونية من علم ٢٨٤ ق•م• قد نهض بمصر وهم باضافة الكثير من المشروعات الاصلاحية في شتى الميادين وادخل على برنامج التعمير الكثير من التحسينات والتصويبات وسار على هذا المنوال بروح حماسية ،فكان كالحموم ، لايأبه بالصعوبات ولا بضخامة المشروعات التى عقد العزم على تنفيذها •واستجابت البلاد الى التنظيمات التى ادخلها وتقبلت التشريعات الكثيرة التى وضعهـــا ، واغلبها متسم بالطابع الاقتصادى والمالى والادارى• وقد حاك لمصر حكومـــة بيروقراطية منسقة احسن تنسيق حتى اصبحت هذه الحكومة المركزية مضرب الامثال في العالم الهيللينستى • على انه بعد ذلك بقليل ظهرت بوادر اليقظة او الصحوة من جانب الشعب المصرى وبانت ابادات حركات دالة على رد الفعل • وظهر ذلك بشكل جلى في التسليم والاستجابة للميول الشعبية وللمشاعر المصرية في اكثر مـــن اتجاه • فمثلا في موضوع العملة ،كان بطلميوس قد اقام نظام عملته طبقا للطريقة اليونانية المألوفة وذلك على قاعدة الفضة ،مع اعتبار معدن الذهب معيارا بالنسبة للفئات ذات القيمة العالية والنحاس كأداة لعملة مساعدة • ولكن التجار المصريين كانوا قد ألفوا حساب اثمان الاشياء عند تصريف بضائعهم بالنحاس ،فكان امـرا طبيعيا ان يعترضوا على ادخال معدن غريب عليهم كوسيلة للتعامل • وعلى ذلك منذ علم ٢٧٠ ق•م روئى في عهد بطلميوس فيلادلفوس ، إعادة تنظيم الاسلوب المتبع واصبح العنصر الاساسى في العملة يتألف من النحاس وذلك ارضاءا للمصريين واستجابة لمطالبهم ولم يعد النحاس يعتبر عملات صغيرة كما كان مألوفا في التداول عند المدن

اليونانية ، بل اصبح قطعا كبيرة ضخمة ، معيارها فيما يبدو على صورة سبيكة .
ويقول العالم الروسى رستوفتزف فى كتابه عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى
العالم الهيللينستى طبعة ١٩٤١ ص ٤٠٠ ثم ١٤١٦ " إنه فى النصف الثانى
من عصر فيلادلفوس كانت العملات النحاسية الضخمة وقد رسمت على وجوهها رؤوس
الالهة المصرية ، تسك فى مصر وهى لم تعد تتداول كعملات رمزية وانما اصبحت
قطعا من العملة المعتادة يقبلها الناس حسب قيمتها المعدنية الحقيقيـــة " .
وكانت هذه المرحلة اولى الخطوات فى عملية كان من شأنها ان تؤدى خلال بضع
سنوات اخرى الى الاعتراف بالنحاس كمعيار للعملة المستعملة فى داخل البـــلاد
والمعترف بها فى دار " السكة " بالاسكندرية ، وذلك فى وقت اصبح فيه استعمال
الفضة يأتى فى المقام الثانى . وانه لمن الجدير بالذكر ان ننوه بأن وجه العملة
فى هذه القطع النحاسية الكبيرة الحجم ، كان مرسوما عليه رأس اله له من الخصائص
مايشبه الى حد كبير الها محليا هو اقرب مايكون الى آمون ، الاله المصرى المتيد ،
بينما انواع العملة التى كانت مستعملة من قبل كانت تحمل صورة رأس الاسكندر
" ذى القرنين " وبطلميوس او الاله اليونانى الكبير رب الالهه ، على جبـــل
اوليمبوس وهو زيوس (Zeus) .

ومن الادلة على يقظة العناصر الوطنية والشعور القومى ماتجده فى تلـــك
الاعداد الضخمة من اناس ملقبين باسماء مصرية صميمة وقد جاء ذكرهم على انهـــم
يشغلون مراكز رسمية ومناصب مهمة فى خلال القرن الثالث وفى الحقبة الاخيرة منـه
بالذات (اى قبيل معركة رفح فى عام ٢١٧ ق.م. ثم مابعدها) . وقد يرد علـــى
ذلك بالقول بأن هذا انما يدل فقط على ان المصريين اخذوا يستغلون تعليمهـــم
اليونانى وذلك بالانضواء فى سلك الخدمة الحكومية عن طريق التوظف او شغل المناصب
الاخرى ذات الاهمية والجاه والنفوذ . ولكن هناك مقياس آخر نستدل منه على مبلغ
ماجلبوه معهم من افكار مصرية صميمة وماادخلوه فى عملهم من روح قومية واعتداد

بالشخصية المصرية . ولعلنا نستطيع تبين هذا بشكل جلي من عمل مقارنة بين نقشين عظيمين مشهورين في تاريخ البطالمة ، دبجت كلا منهما هيئة دينية من الكهنـــة المصرية خلال فترة تتراوح بين اقل من خمسين عاما تفصل احد النقشين عن الآخـر والنقش الاول يرجع تاريخه الى عام ٢٣٧ ق.م في حكم الملك بطلميوس الثالـــث الملقب يورجتيس الاول وهذا النقش معروف باسم قرار كانوبوس وقد صدر في هـذه الناحية ومحلها الآن " ابوقير " بظاهر الاسكندرية . والمتصفح لهذا النقـــش الذي خرج به الكهنة المصريين بعد اجتماعهم على شكل مؤتمر عام او مجمع ديني ، يجد ان هذا القرار روعي في صياغته ان يجيء على نسق متفق مع اى قرار يونانـي من حيث المنهاج والاسلوب والديباجة وان الاصل فيه هو النص اليوناني وعن هـذا الاصل ترجم النص الهيروغليفي وكتب كذلك بالخط الديموطيقي وعلى ذلك يمكن ان تقول ان الروح اليونانية هي الغالبة والحال بالمثل في نقش مسطر على حجر مماثل من عهد بطلميوس الثاني ويعرف هذا النقش بحجر منديس تخليدا لذكرى زيارة هذا الملك الى منديس في شرقي الدلتا وكان كذلك مصاغا باللغة اليونانية واللغـــة الهيروغليفية والخط الديموطيقي وهو من باب اولى باعتباره اقدم من حجر كانوبوس كان الاصل فيه اللغة اليونانية . ولكن هذا الحال تبدل في الحجر الذي سطر في عهد بطلميوس الخامس وعرف بحجر رشيد وقد صدر في عام ١٩٦ ق.م . وفيه تجلت حالة من الردة او العودة الى الصيغ المصرية الصميمة واتباع الاسلوب المصري فهو اذا ، نقش اكثر مصرية من النقش الاول . ومع انه في جميع هذه الحالات ورد نص باللغة اليونانية ولكن شتان بين هذا وذاك فبينما في نقش كانوبوس كانت اللغة اليونانية هي الاصـل وعنها نقلت الصيغة المصرية اذا بنا في حالة حجر رشيد جاءت الصيغة المصرية هي الاصل اما الصيغة اليونانية فما هي الا ترجمة عن الاصل المصري . واى فقيه له دراية بقواعد اللغة واهتمام بالنواحي الفيلولوجية وعلم اشتقاق الكلمات واساليب صياغتها ، يستطيع التعرف على كنه ذلك وتمحيص هذه الفكرة بعمل دراسات مقارنة ، ذات طابع لغوى بحت .

وهناك حدث آخر مهم ، نوهت عنه جميع الكتب التى عرضت لتاريخ الاسرة البطلمية ، لما له من اهمية بالغة فى التدليل على ظهور روح القومية المصرية بصورة سافرة وبشكل بارز . ذلك انه عندما تعرض بطلميوس الرابع (الطقميفيلوباتور) لغزوة من الشام شنها عليه انطيوخوس الثالث فى الفترة مابين عامى ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ق.م . كان الملك البطلمى يماطل فى المفاوضة حتى أعد العدة بتوجيه من وزيره اليونانى المسمى " سوسيبيوس " فكون فرقة مصرية صميمة دربها على نظام الفيلق اليونانى وكانت تضم عناصر مصرية خالصة فلما خاضت المعركة اثبتت جدارتها وابلت بلاءا حسنا فى معركة رفح فى يوم مشهود فى تاريخ الامة المصرية هو الثانى والعشرين من شهر يونية عام ٢١٧ ق.م . وفيه تم النصر للقوات المصرية على جيش انطيوخوس الثالث وكان للمصريين دور هام فى هزيمة السوريين وردهم على اعقابهم . وقد وصف لنا المؤرخ اليونانى " بوليبيوس " الاحداث التى مرت وفصل لنا الاستراتيجية التى اتبعها الفريقان المتقاتلان ودور الفيلق المصرى فى كسب هذا النصر المؤزر . وعقب هذا النصر ، شعر المصريون بكرامتهم واصبحوا يعتدون بشخصيتهم بعد ان تبين انهم اصحاب فضل فى توطيد العرش البطلمى بعد ان كان هذا العرش قد اهتز تحت اقدام الملك بطلميوس الرابع وهكذا كانت نتائج معركة رفح بعيدة المدى بالنسبة للمصريين وقد قامت ثورات مصرية واضطرابات فى شتى انحاء البلاد عقب هذا النصر واخذ المصريون يطالبون بثمن غالى لهذا النصر وكانوا قد عقدوا العزم على استرداد كرامتهم المهدرة وكسب الحقوق المهضومة . ولذلك اعتبرت معركة رفح نقطة تحول هام ومنعطف خطير فى تاريخ الدولة البطلمية . وقد تلى هذا سلسلة من الترضيات والتسويات المنطوية على تعطف وتسامح (phlilonthropa) قوامها الاخذ بيد المصريين ورد بعض الحقوق اليهم . ولعل المرسوم الذى انهيت به الحرب الاهلية التى نشبت بين بطلميوس الثامن (يورجتيس الثانى) وبين زوجته الاولى كليوباترة الثانية سنة ١١٨ ق.م ، جاء شاملا لعدة نقاط وفيه تسوية لكثير من الاوضاع وارضاء لجميع الاطراف من قبيل تهدئة الخواطر .

أما عصر كليوباترة السابعة (٥١ ــ ٣٠ ق٠م) ففيه اكثر من مؤشر يدل على الأخذ بيد المصريين وفيه مايدل على ان هذه الملكة كانت تحظى بالتأييد من جانب العناصر المصرية وان هذه الملكة كانت في نظر الشعب المصري تعتبر بطلة وانه كان مستعدا للمضي في تأييدها الى ابعد شوط باعتبارها ملكة مصرية ٠ يكن لها الحب والتقدير ٠ ولكن الظروف الخارجية لم تكن مواتية وخارت قوى زوجها الروماني ماركوس انطونيوس في معركة شنها في مرسى مطروح ضد القائد كورنيليوس جاللوس الذي كان يعمل لحساب اكتافيوس ثم هزم انطونيوس مرة اخرى في نيقوبولس بظاهر الاسكندرية امام قوات اكتافيوس في عام ٣٠ ق٠م وبذلك اسدل الستار على مُلْك البطالمة بعد اغسطس عام ٣٠ ق٠م وانتحار كل من انطونيوس وكليوباترة ٠ وبدأ عصر جديد هو الحكم الروماني في مصر وقد بدأ هذا الحكم متهاديا وعلى مهل وتغيرت فيه جميع الاوضاع والاهداف بطريقة جوهرية ٠ فالسياسة البطلمية التوسعية ألقى بها في مهب الريح ٠بل وضرب بها عرض الحائط ولم يعد هناك مجال على الاطلاق لأي تدخل من جانب مصر في معترك السياسة الاوربية ولا في دائرة الحضارة الاوربية واصبح محكوما على مصر ان تنأى بجانبها ٠بعيدة عن هذه الدائرة الممتازة٠ وكان القصد الوحيد الذي كان اكتافيوس يهدف الى تحقيقه والذي عمل خلفاؤه من بعده على النهج على منواله ٠ هو العمل على استغلال موارد البلاد باعتبار ان مصر مصدر ايراد ضخم وتمثل خيراتها مادة دسمة او بالأحرى على حد قولهم اعتبار مصر كالبقرة المحلوب التي لاينبغي ان يجف لبنها ابدا لصالح روما ٠

ثبت بأهم الاحداث والتواريخ فى مصر البطلمية وفى جاراتهـا

نظرا لتداخل الاحداث وارتباط ماكان يجرى فى مصر البطلمية جا كلن يقع فى البلدان المجاورة التى تخلفت عن امبراطورية الاسكندر بعد تقسيمها بين نفر من القواد ونظرا للصعوبات التى تواجه الباحث فى هذا التيه فقد آثرنا أن نشفع هذا البحث بقوائم بها اهم الاحداث على الصعيد المصرى وفى العالـــم المحيط بمصر فى تلك الحقبة من نبذ مقتضبة لربط الاحداث وعمل تصور شامــل ٠

٣٢٣ ، ١٣ يونية ق٠م٠ مات الاسكندر الاكبر ٠

برديكاس هو الخليفة على هذه الامبراطورية والممثل الرسمى عن فيليـــب الثالث الملقب اريدايوس (٣٢٣ ق٠م — ٣١٧/٣١٦ ق٠م) وعن الابن المولود وهو الاسكندر الرابع بعد وفاة الاسكندر (٣٢٣ — ٣١٠ / ٣٠٩ ق٠م٠)

بطلميوس يصبح الوالى على مصر ويحمل لقب ساتراب اى مرزبان وله سياسة معلومة ومرسومة اتبعها طوال فترة ولايته وعرفت هذه بالسياسة الستراپيـــــة (Satrapenpolitik) ٠

فى هذه الفترة تخلص من كليومينيس (Cleomenes) من اهل نقراطيس وكان الاسكندر قد عينه ليشرف على مالية البلاد المصرية ولكنه استغل نفوذه واخذ يتاجر فى الغلات وفى اقوات الناس فحكم عليه بطلميوس بالاعدام ٠ مقتل برديكـــاس فى اثناء هجومه على مصر لتأديب بطلميوس الذى كان قد خرج عليه وعصا امره ٠

أنتيپاتر يعين بدلا من برديكاس نائبا عن هذا الملك المريض

٣٢٠ ـ ٣١٨ ق٠م	بطلميوس يغزو سوريا الخالية (سهل البقاع ـ لبنان)
٣١٩ ق٠م	تعيين بولبيرخون نائبا وممثلا عن هذا الملك بعد موت انتيباتر ٣١٩ ق٠م بطلميوس ، انتيجونس ، كسانذر ، ليسيماخوس وآخرون يعصون امر بولبيرخون ويشقون عصا الطاعة عليه باعتباره وصيا ٠
٣١٧ ق٠م	ام الاسكندرية اوليمبيا ستدبر مقتل فيليب اريدايوس الاسكندر الرابع يعتبر ملك العالم الاوحد وبالتالى ملك مصر ٠
٣١٠ ق٠م	مقتل الاسكندر الرابع واغتياله بواسطة كاسندر احد خلفاء الاسكندر
٣١٥ ق٠م ٠	بطلميوس يغزو تيرور
٣١٥ ـ ٣١١ ق٠م ٠	نشوب حرب شعواء يشترك فيها نفر من خلفاء الاسكندر من بينهم بطلميوس ٠
٣١٣ ق٠م	بطلميوس يقمع ثورة نشبت فى برقة
٣١٠ ـ ٣٠٩ ق٠م	الاسكندر الرابع وامه الفارسية " روكسانا " يقتلان ويتواريان بناء على اوامر صادرة من كاسندر
٣١٠ ـ ٣٠٨ ق٠م	بطلميوس الاول يحاول عبثا احياء حلف كورنثة واعادة هذا الحلف الى سيرته الاولى ٠
٣٠٩ ق٠م ٠	موت اوفيلاس حاكم برقة
٣٠٨ ق٠م	مولد بطلميوس الثانى فى جزيرة قوص ـ عودة برقة الى بطلميوس
٣٠٧ ق٠م	ديمتريوس المحاصر يغزو اثينا وعندئذ يفر حاكمها ديمتريوس الملقب بالفاليرى (نسبة الى مرفأ فاليرم احد مرافئ اثينا) ويلجأ الى بلاط بطلميوس الاول وهذا الفار كان

فيلسوفا ومشرعا ، وكان اثره فى كثير من القوانين والتشريعات التى حدثت فى مصر اذ ذاك واصبح اسم ديمتريوس الفاليرى ملحوظا فى السياسة البطلمية فى هذا العهد الاول وكان يحظى بعطف كبير من قبل الملك بطلميوس الاول .

٣٠٦ ق.م	تحطيم الاسطول المصرى بواسطة ديمتريوس المحاصر فى مرفأ سالاميس بجزيرة قبرص . اعلن كل من انتيجونس الاعور وديمتريوس نفسه ملكا .
٣٠٤ ق.م	بطلميوس الاول يعلن نفسه ملكا اقتداء بما فعله كل من سلوقوس وليسيماخوس وكاسندر فى بلادهم
٣٠٠ ق.م	تأسيس مدينة انطاكية على نهر العاصى (اورنتيس) فى الشام
٣٠٠ ــ ٢٩٨ ق.م	يتزوج ليسيماخوس من ارسينوى ابنة بطلميوس الاول
٢٩٨ ق.م	يقوم ماجاس الاخ غير الشقيق لبطلميوس باسترداد برقة لحساب بطلميوس
٢٩٧ ق.م	فرار ديمتريوس الفاليرى الى بلاط بطلميوس الاول
٢٩٦ ق.م	استيلاء بطلميوس على قبرص
٢٩٢ ق.م	موت الكاتب الساخر ميناندر فى اثينا وكانت سمعته ورواياته المسرحية محببة فى مصر وعرفت منها مسرحية " الفظ " المنطوى على نفسه (Dysklos) والمرأة المحترقة (Empimpramene) والحليقة (Epikeironene) وغيرها .

٢٨٧ ق.م ابتداء عبادة الاله سيرابيس فى مصر — وكان لهذه العبادة شأن عظيم فى تدعيم سياسة الحكم فى مصر البطلمية وكان لها اهمية فى توثيق الروابط وجمع شمل اليونان والمصريين فى صعيد واحد فهم يتعبدون لإله واحد هو الذى انشأه بطالميوس الاول وبنى له معابد كثيرة فى جميع ارجاء مصر ويرجع اصله الى apis + Osiris ومعابده هى السرابيومات (Serepeum-Serapea) فى الاسكندرية وفى حواضر الاقاليم بجميع انحاء مصر وفى قراها ، تعد بالعشرات وانتشرت عبادته فى الخارج فى البلدان التابعة لمصر .

٢٨٦ ق.م بطالميوس الاول يحتل مدينة صور ومدينة صيدا

٢٨٥ ق.م بطالميوس الثانى يصبح شريكا مع ابيه فى الملك فى الفترة مابين مارس وابريل من هذا العام ثم يتقاعد بطالميوس الاول ، ويعتزل نهائيا لصالح ابنه ثم بطالميوس الصاعقة — كيراونوس (Ceraunus) وهو اخ غير شقيق لبطالميوس الثانى وكان الابن الاكبر لبطالميوس الاول ينسحب ويذهب الى بلاط ليسيماخوس فى تراقيا .

عقد معاهدة بين بطالميوس الثانى واحد ملوك الهند وقيام ليسيماخوس بغزو بايونيا (رومانيا حاليا) واستيلاء على تساليا فى بلاد اليونان

٢٨٤ ق.م — تتويج بطلميوس الثاني فرعونا على مصر في يوم ٢٦ من شهر يونية

٢٨٣ ق.م — موت بطلميوس الأول

يقوم بطلميوس الثاني بتنظيم عبادة الملك الحاكم ruler- cult على النسق البطلمي والنسق الفرعوني

يودع بطلميوس الثاني الفيلسوف ديمتريوس الفاليري السجن وقيل إنه هو الذي أمر بإعدامه

٢٨٠ ق.م — نشأة الأعياد البطلمية وهي عيد يسمى (Ptolemaia) أو (Pentaeteris) ويحتفى به كل خمس سنوات ولهذه الأعياد والمهرجانات طابعها ما كانت تشهده مدينة الاسكندرية بين حين وآخر . اتمام بناء فنار فاروس على جزيرة فاروس قرابة هذا العام فكان احد عجائب الدنيا ويسر الملاحة البحرية بارشاد السفن والملاحين عند الرسو في ميناءي الاسكندرية وهما الشرقية والغربية (Eunostus)

٢٨٠ — ٢٧٩ ق.م — تنشب حرب بين بطلميوس الثاني وانطيوخوس الاول . يعاد مد او تطهير القناة الواقعة بين النيل قرب السويس — هيرونيوليس (Heronpolis) والبحر الاحمر (بحر القلزم) (Erythrian) وهذه القناة ترجع الى عهد الفراعنة وكانت قد سدت فقام بطلميوس الثاني بتطهيرها .

٢٧٩ ق٠م — عودة ارسينوى ارملة ليسيماخوس ملك تراقيا الى موطنها في مصر لدى اخيها الذى يتزوجها بعد ذلك بقليل (٢٧٨ — ٢٧٤ ق٠م) اسوة بزواج الاله اوزوريس من اخته ايزيس فكان هذا التصرف من جانب بطلميوس الثانى لفتة كريمة لم تغب على فطانة المصريين واعتبرت اشارة من الملك بعزمه على التقرب من عقائد المصريين وكانت حركة سياسية بارعة قصد بها في اغلب الظن توثيق الصلات بين الاسرة المالكة وبين المصريين ٠

لق بطلميوس الثانى زوجته الاولى وكان اسمها كذلك ارسينوى وهى ابنة الملك ليسيماخوس ملك تراقيا ثـــم نفاها الى قفط وعقد زواجه على ارسينوى الثانية فـى الفترة مابين ٢٧٨ — ٢٧٤ ق٠م

٢٧٤ — ٢٧١ ق٠م — تنشب الحرب السورية الاولى بين بطلميوس الثانـــى وانطيوخوس الاول ، يبعث بطلميوس الثانى بقواته ، يقودها قواد من قبله اما هو فقد آثر ان يقبع في مصر يدير شئون حكومته البيروقراطية ويتصرف على مجريات الامور فيها ٠

٢٧٤ ق٠م — ماجاس حاكم برقة وهو اخ غير شقيق لبطلميوس ، يتحالف مع عدو مصر انطيوخوس الاول ، من قبيل الكيد لمصر ٠ بطلميوس الثانى يحتل بضع نقاط على السواحل الغربية لآسيا الصغرى ويتخذ منها مواطىء اقدام للتوسع فـى الداخل ٠

٢٧٣ ق٠م — ايفاد بعثة مصرية من قبل بطليموس الثانى الى روما لاعلان الصداقة (Amicitia) التى تربط مصر بروما • وكانت هذه حركة بارعة تنم عن بعد النظر فى السياسة المصرية التى اثرت اتخاذ موقف محايد وانطوت على عدم تقديم العون والمساعدة لمجارة افريقية تقع فى الغرب من مصر هى قرطاجة (تونس حاليا) وهى فى حالة حرب مع دولة فتية هى روما وتعرف هذه بالحرب البرامية الاولى (٢٦٤ ــ ٢٤٢ق٠م) وانتهت بهزيمة قرطاجة ويعتبر اتخاذ بطليموس الثانى لهذا الموقف المحايد فى معترك سياسة عالمية كهذه عملا سياسيا بارعا •

٢٦١ ق٠م — اتمام الصلح بين بطليموس الثانى وانتيجونس جوناتاس مع موت انطيوخوس الاول فى الاول او الثانى من شهر يونية من هذا العام وخلفه ابنه انطيوخوس الثانى الملقب بالاله (Theos)

٢٦٠ ــ ٢٥٣ ق٠م — نشوب الحرب السورية الثانية ووقوف مصر ضد كل من مقدونيا وسوريا فى عهد ملكها انطيوخوس الثانى •

٢٥٣ ق٠م — اتمام الصلح بين بطليموس الثانى وانطيوخوس الثانى على ان تصبح افسوس وميليطة بآسيا الصغرى مدينتين ماوقيتين •

٢٥٢ ق٠م — برنيقة ابنة بطلميوس الثانى تتزوج من انطيوخوس الثانى بعد ان يطلق زوجته الاولى لاوديكى (Laodice) ويذهب الملك بطلميوس الثانى لوداع ابنته حتى الحدود الشرقية لمصر ثم تصحبها بعثة شرف يراسها ابوللونيوس وزير مالية بطلميوس الثانى حتى تصل الى سوريا وتزف الى ملكها هناك •

٢٤٦ ق٠م — موت بطالميوس الثانى فى شهر يناير وموت انطيوخوس الثانى فى الربيع من نفس العام فى افسوس ٠ سلوقوس الثانى يخلف انطيوخوس الثانى ويوافق على ان تقوم امه " لاوديكى " بقتل غريمتها برنيقة ٠ بطالميوس الثالث يخلف بطالميوس الثانى ويسارع لنجدة اخته دون جدوى ويعلن الحرب على سلوقوس الثانى ويتقدم الى مملكة بابل ويحرز انتصارات باهرة ويثبت اقدامه فى بعض المدائن الواقعة على ساحل تراقيا وفى سلوقيا فى البيرة بفلسطين وفى اجزاء كبيرة من الاقاليم المطلة على ساحل آسيا الصغرى ٠ وقبل اتمام هذا البرنامج الحربى عقد زواجه على برنيقه من برقة وكانت هدية زواجها ضم برقة الى مصر ٠
الشاعر البرقاوى المشهور " كاليماخوس " يدبج قصيدة عنوانها خصلة شعر برنيقه (Lock of Berenice)
وكانت هذه الملكة قد قصت هذه الخصلة من شعرها وقدمتها قربانا لالهه ايزيس بمعبدها بابى قير متوسلة اليها بأن تعيد لها زوجها سالما من حروبه فى آسيا ٠

٢٤٦ — ٢٢١ ق٠م — مدة حكم بطالميوس الثالث الملقب بفاعل الخير " يورجتيس " الاول

٢٤٦ — ٢٤١ ق٠م — الحرب السورية الثالثة تمتد اربع سنوات بين بطالميوس الثالث وسلوقوس الثانى

٢٤٥ ق٠م — فى اثناء هذه الحرب يضطر بطالميوس الثالث الى العودة الى مصر بسبب اشتعال ثورة وقيام حركة عصيانية لم تدم طويلا اذ اسرع باخمادها ٠

٢٤١ ق.م	اتمام الصلح بين سلوقوس الثانى وبطلميوس الثالث وانتهاء الحرب السورية الثالثة
٢٣٧ ق.م	الكهنة المصريون يلتئم جمعهم بدعوة من الملك فى مجمع (Synodos) يعقد بأبى قير (Canopus) ويصدرون قرارا مشهورا عرف بالاسم الاتى قرار كانوبوس (Canopus Décree) اشادوا فيه بالملك بطلميوس يورجتيس الاول وبما اسداه للبلاد من خير وما قدمه من خدمات ومن عفو عن المسجونين وتنازل عن المتأخرات من الضرائب واصلحوا التقويم المصرى وصدر القرار باللغة الهيروغليفية والخط الديموطيقى ثم باللغة اليونانية ونقش على حجر بهذه الخطوط الثلاثة •
٢٢١ ق.م	وفاة بطلميوس الثالث بين الخامس والسادس عشر من شهر فبراير من ذلك العام
٢٢١ ق.م	تولية بطلميوس الرابع الملقب فيلوباتور (فى ٢١ فبراير تقريبا)
٢٢١ — ٢١٧ ق.م	نشوب الحرب السورية الرابعة بين انطيوخوس الثالث وبطلميوس الرابع •

المؤرخ اليونانى المشهور بوليبيوس يعرض لبعض الاحداث التى وقعت فى عهد هذا الملك ويشير الى سياسته الداخلية وارتمائه فى احضان ثالوث مؤلف من ام عاشرة وبنتها اجاثوكليا التى كانت محظية الملك واخوها اجاثوكليس الذى كان احد وزراء الملك • سوسيبيوس (Sosibius)

وزير الحربية فى عهد هذا الملك هو صاحب الفضل الاكبر فى النصر الذى كسبته مصر فى معركة مشهورة وقعت على الحدود الشرقية فى رفح ٢١٧ ق٠م فى يوم ٢٢ يونية ٠

تأليف فيلق مصرى من المحاربين المصريين الذين كنا هم هيرودوت باسم (الماخيموى " اى المحاربين) وربما هم بصفات فيها الازدراء والاحتقار لشأنهم ٠ ولكنهم لما تم تدريبهم على نظام الفيلق ابلوا بلاءا حسنا وكسبوا النصر وثبتوا اقدام العرش البطلمى ٠

٢١٠	مولد بطلميوس الخامس وتعيينه بعد تليل شريكا فى الملك مع ابيه
٢٠٦ ـ ١٨٦ ق٠م	انفصال الاقليم الطيبى (Thebaid) عن مصر بعد ان استقل به ملكان من بلاد النوبة ٠
٢٠٥ ق٠م	موت بطلميوس الرابع (٢٨ نوفمبر او فى عام ٢٠٤ ق٠م) اخفاء خبر هذا الحادث الاليم لفترة من الزمان حتى تم تلفيق وصية مزورة افتعلها الثالوث الماكر (اجاثوكليس واخته وامهما) ٠
٢٠٥ أو ٢٠٤ حتى ١٨٠ ق٠م	عهد الملك بطلميوس الخامس الملقب ابيفانيس " الظاهر "
٢٠٣ ق٠م٠	عقد معاهدة سرية بين فيليب الخامس وانطيوخوس الثالث ضد بطلميوس الخامس والملوك الذين من الشباب اليافع ٠

٢٠١ — ١٩٥ق٠م	الحرب السورية الخامسة بين انطيخوس الثالث وبطلميوس الخامس
١٩٧ ق٠م	تتويج بطلميوس الخامس فرعونا على مصر واتمام هذا التتويج فى منفيس وليس فى الاسكندرية وهذا الاجراء له معناه ويعتبر لفتة من البطالمة للتقرب من مشاعر الشعب المصرى والكهنة المصريين واتخذ دليلا على بروز القومية المصرية ممثلة فى رجال الدين ٠ كان على هذا الملك الشاب ان يشن حربا على الثوار فى الشمال والجنوب وذلك بالاضافة الى حربه ضد انطيوخوس الثالث
١٩٦ق٠م	يشتهر هذا العام فى التاريخ البطلمى بأنه سطر فيه حجر مشهور فى التاريخ المصرى كله ذلك هو حجر رشيد الذى اشاد فيه الكهنة بالملك بطلميوس ابيفانيس وسطر بخطوط ثلاثة هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ويرجع الى هذا النقش الفضل فى التوصل الى فك طلاسم اللغة الهيروغليفية بمقارنة اسمين واردين فى النص اليونانى وهما بطلميوس وكليوباترة زوجة الملك ومقابلة حروفها على نفس الاسمين الواردين داخل اطار فى النص الهيروغليفى وبذلك امكن التوصل والتعرف على العديد من الحروف الهجائية فى اللغة الهيروغليفية ٠
١٩٥ ق٠م	ابرام الصلح بين انطيوخوس الثالث وبطلميوس الخامس وانهاء الحرب السورية الخامسة ٠
١٩٤ ق٠م	عقد الزواج بين بطلميوس الخامس وبين كليوباترة الاولى ابنة انطيوخوس الثالث ٠ وكان مهر هذه الزيجة الملكية

	هو الموافقة على ان يؤول الايراد الناجم عن املاكه الجديدة فى فلسطين وجنوب سوريا الى الملكة كليوباترة الاولى •
١٩٢ — ١٨٩ ق٠م	نشوب حرب سورية بين روما وبين انطيوخوس الثالث
١٨٦ ق٠م	يخيم السلم فى الصعيد وتهدأ الخواطر فى ارجائه وتبدأ عمليات البناء والتشييد فى معبد ادفو وكانت المدينة تسمى بالاسم الاتى (Apollonopolis magna)
١٨٤ — ١٨٣ ق٠م	مولد بطالميوس السادس فى سايس (Sais) ونهاية الاعتصاب المتفشى فى صعيد مصر•
١٨٠ ق٠م	موت بطالميوس الخامس
١٨٠ — ١٤٥ ق٠م	عهد الملك بطالميوس السادس الملقب فيلوميتور اى "حبيب امه" وهو عهد مشحون بالاحداث وحالة عدم الاستقرار •
١٧٦ ق٠م	وفاة كليوباترة الاولى ام بطالميوس السادس والوصيمة عليه
١٧٥ — ١٦٤ ق٠م	انطيوخوس الرابع الملقب ابيفانيس يتولى الحكم فى سوريا خلال هذه الفترة ويحدث صدام بينه وبين مصر وتظهر اطماعه فى مصر بصورة سافرة •
١٧٥ — ١٧٤ ق٠م	عقد زواج بين بطالميوس السادس واخته كليوباترة الثانية وتمت هذه الزيجة فى الفترة مابين فبراير من عام ١٧٥ ومارس من عام ١٧٣ ق٠م
١٧٣ ق٠م	روما توفد بعثة رومانية الى الاسكندرية (لعلها من تبيل التقصى والاستطلاع) •

١٧٠ ـ ١٦٨ ق.م	وقعت فى هذه الفترة الحرب السورية السادسة بين انطايوخوس الرابع وبطلميوس السادس.
١٧٠ ق.م	بدأ هذا العام بغزوة قام بها انطايوخوس الرابع لمصر ، اشترك بطلميوس السادس وزوجته كليوباترة الثانية واخوها الاصغر بطلميوس الثامن (VIII) فى الحكم فى مصر .
	اتساع رقعة املاك انطايوخوس الرابع وكانت هذه تشمل الشام وما وراء الفرات حتى الهند ويدخل ضمن ذلك وسط ايران وباكتريا وسمرقند والتركستان وافغانستان وباكستان وفضلا عن ذلك كان له احلاف فى آسيا الصغرى وفى مقدونيا
١٦٩ ق.م	شن حملة ثانية على مصر من قبل انطايوخوس الرابع وربما صحب ذلك اعلانه عن انه اصبح ملكا على مصر. وربما كانت بعض نفقات هذه الحملة قد غطاها انطايوخوس الرابع مما حصل عليه من اسلاب استولى عليها من معبد بيت المقدس.
	قيام شعب مدينة الاسكندرية بثورة اعلنوا فيها السخط على انطايوخوس الرابع واعماله العدوانية.
١٦٨ ق.م	قيام انطايوخوس الرابع بغزوة ثالثة على مصر ووصوله الى الاسكندرية وتربعه على عرش البلاد والتحكم فى مصيرها ومستقبلها بحق هذا الغزو والفتح ـ ولكن تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن وحرم هذا الملك من ان يجنى ثمرة انتصاراته هذه نظرا لان روما انبرت له بشكل سافروكانت

اذ ذاك قد خرجت منافية من حرب بينها وبين ملك مقدونيا المسمى برسيوس (Perseus) وهو خصم عنيد ولكنها استطاعت ان تنتصر عليه في موقعة بيدنا (Pydna) سنة ١٦٨ ق٠م في يوم مشهود هو ٢٢ يونية من ذلك العام • وعندئذ تقع حادثة مشهورة نوه عنها جميع المؤرخين وذكرها المؤرخ الروماني " ليفي " فقال ان بعثة رومانية حضرت الى الاسكندرية على رأسها سفير روماني يدعى جايوس بوبليوس ليناس (G.PopiliusLaenas) وواجه هذا السفير الملك السوري انطيوخوس الرابع وهو في نشوة نصره ٥ وطالب اليه الرحيل من مصر على عجل ولم يشأ ان يمهله وقتا ليتدبر فيه الامر بل ان المبعوث الروماني خط بعصاه كانت في يده على الرمل بدائرة من حول الملك وشدد النكير عليه بأن طلب منه الاجابة في الحال وبطريقة حاسمة فإما الموافقة على الرحيل ومغادرة البلد وإما ان يختار الحرب تشنها روما عليه • ولكن الملك آثر اختيار الحل الاول واعلن موافقته على الرحيل وبذلك خلصت روما مصر من انياب الملك السوري واضطر ان يرحل عن مصر وعن قبرص وان يتخلى عنهما بطريقة فيها اذلال • وهكذا ساقت المقادير روما قهرية جعلت من مصر ٥ بل والمملكة البطلمية كلها حليفا تابعا لروما واصبح منذ ذلك الحين الحكم البطلمي مدينا لروما بهذه الحماية والرعاية فهي التي خلصته من الهزيمة وهي التي ازاحت عن البلاد

تلك الفئة التي لحقت بها من جراء الغزو السوري والتدخل في شئون البلاد • قيام الثورات في ارجاء الامبراطورية السلوقية نتيجة لحرمان البلاد من جني ثمار الانتصارات التي ذهبت عبثا •

١٦٨ — ١٦٤ ق٠م على مدى اربع سنوات قامت ثورات جامحة في شتى انحاء البلاد كانت احداها ثورة تزعمها شخص يحمل اسما مزدوجا هو ديونيسيوس بيتوسيرابيس (Dionysius Petosarapis) يجمع بين التسمية اليونانية والمصرية •

١٦٤ ق٠م يقوم الاخ الاصغر بطالميوس الثامن بطرد اخيه الاكبر بطالميوس السادس من مصر •

١٦٣ ق٠م يعود بطالميوس السادس الى عرش مصر ويحكم وحده على كل من مصر وقبرص ، مؤيدا ومدعما بالسلاح الروماني •

أما بطالميوس الثامن فقد تم الاعتراف به كملك بطالمي على برقة •

١٦٢ ق٠م يقوم بطالميوس الثامن بزيارة لروما ويتسلم قبرص ولكنه يضطر لاتمام ثورة وعصيان نشب في برقة

العلاقات بين روما وبطالميوس السادس تسوء وتتوتر بعد ان كان الفتور يخيم عليها ولا يعرف السبب ولعل السر في ذلك ان روما كانت تعضد اخاه الاصغر بطالميوس الثامن وتنصره عليه ومن هنا بدأ الامتعاض والنفور من جانب بطالميوس السادس •

١٥٥ ق.م	بطلميوس الثامن يعلن عن وصية كان قد أبرمها منذ عام ١٦١/١٦٢ واتخذ فيها من روما الوريثة لملكه . وكان قصده بذلك حماية نفسه من محاولات الاغتيال والمؤامرات التي كان يظن ان اخاه بطلميوس السادس يدبرهــا ضده . ولذا اتخذ من هذا الخوف ذريعة لتبرير تلك الوصية المذرية التي إن دلت على شيء ، فإنما تدل على مدى التخاذل والضعف والتفريط في حقوق الوطن من قبل بطلميوس الثامن .
١٥٤ ق.م	بطلميوس الثامن يهاجم قبرص ولكنه يرتد على اعقابــه بعد ان صده اخوه الاكبر بطلميوس السادس.
١٤٧ ق.م	بطلميوس السابع الملقب Neos Philopator وهو ابن بطلميوس السادس فيلوميتور ، يصبح شريكا مع ابيه في الملك.
١٤٦ ق.م	بطلميوس يقلب ظهر المجن ويتنكر لحلفائه من اجــل تمكينه من السيطرة على سوريا بطريقة افضل فيشــن حربا يحرز فيها النصر ويخر عدوه صريعا في المعركــة في شهر يوليو من عام ١٤٥ ق.م ولكن الجراح التي اصيب بها فيلوميتور في المعركة كانت قاتلة فمات بعد فترة قصيرة في عام ١٤٥ ق.م . وتولى الحكم لفتــرة لاتعد وبضعة اشهر ابنه بطلميوس السابع الملقب نيوس فيلوباتور ولكنه نحي في اواخر اغسطس واوائل سبتمبر عن الملك بواسطة بطلميوس الثامن الذي اعلن بعد ذلك عن عقد معاهدة تسود بين مصر وقبرص .
١٤٥ ـ ١١٦ ق.م	فترة حكم بطلميوس الثامن الملقب يورجتيس الثاني ، سلوكه

فى حكم مصر ومعاملته للسكندريين والقسوة فى تصرفاته ازاء العلماء والادباء فى اكاديمية الاسكندرية — كل هذا جلب عليه السخط فأسبغ عليه السكندريون لقب الشرير بدلا من لقب كان يدعيه وهو لا يستحقه وهو لقب فاعل الخير •

١٤٥ ــ ١٤٤ ق•م	استهل الملك حكمه بنفى نفر من العلماء المشهورين وترحيلهم من الاسكندرية وكان من بين هؤلاء العالم الفيلولوجى فى فقه اللغة وهو " أريستارخوس " (Aristarchus) ذو الشهرة اللامعة
١٤٤ ق•م	اتمام تسوية بين بطلميوس الثامن وبين كليوباترة الثانية ارملة اخيه الاكبر وكان الرومان هم الوسطاء فى عمل هذه التسوية ومقتضاها تزوج بطلميوس الثامن من كليوباترة الثانية ام بطلميوس الثامن بقتل بطلميوس السابع الملقب نيوس فيلوباتور وهو ابن اخيه بطلميوس السادس حتى يزيح هذا الابن من طريقه ويؤمن عرشه من هذه الناحية •
١٤٤ ــ ١٤٣ ق•م	مولد ابن لبطلميوس الثامن من كليوباترة الثانية ملقب بالممفيتى
١٤٢ ق•م	زواج بطلميوس الثامن من كليوباترة الثالثة وهى ابنة بطلميوس السادس من كليوباترة الثانية اى انها ابنة زوجة بطلميوس الثامن وبذلك اصبح زوجا للام ولابنتها على حد سواء •

١٤٠ — ١٣٩ ق٠م٠	كليوباترة الثانية تحرض على اعلان العصيان ضد هذا الملك
١٣٢ — ١٣١ ق٠م	العصيان يعم مصر العليا والوسطى
١٣١ ق٠م	كليوباترة الثانية تكره بطالميوس الثامن وزوجته كليوباترة الثالثة على الفرار من مصر الى قبرص ٠ بطالميوس الثامن يقتل ابنه الملقب بالمفيتى من زوجته كليوباترة الثانية امعانا فى الانتقام — بطلميوس الثامن يتحصن فى ممفيس واغلب مصر العليا
١٣٠ ق٠م	يسترد بطالميوس الثامن الاقليم الدلتى واجزاء اخرى من مصر
١٢٩ — ١٢٨ ق٠م	كليوباترة الثانية تهرب الى ديمتريوس الثانى ملك سوريا وتحمل معها كنوزها املا فى ان يقدم لها ديمتريوس الثانى هذا العون والمساعدة وقد هم بالفعل بغزو مصر ولكنه اضطر الى التوقف عن الزحف على البلاد عند الفرما عندما سمع ان بعض البلدان فى سوريا اعلنت الثورة عليه ٠
١٢٨ ق٠م	واجه بطالميوس الثامن هذا الخطر المحدق به وهو الغزو الآسيوى بان دس مدعى لعرش سوريا يسمى الاسكندر الثانى زابيناس (Zabinas) وهو ابن المتبنى لانطيوخيوس السابع وقد نصب هذا الابن بالفعل فى انطاكيا بفضل ماقدمته مصر من عون ومساعدة له
١٢٧ ق٠م	استطاع بطالميوس الثامن ان يستولى على الاسكندرية بعد غيبة طويلة امتدت منذ ١٣١ ق٠م عندما طرد منها

١٢٥ ق.م	بطلميوس الثامن يقرر التوقف عن تقديم العون للاسكندر الثانى
١٢٤ ق.م	كليوباترة الثانية تعود الى مصر ويتم الصلح بينها وبين بطلميوس الثامن وكليوباترة الثالثة .
١٢٣ ـ ١٢٢ ق.م	يعود الشقاق من جديد بين الطرفين
١١٨ ق.م	تجرى تسوية مشهورة (Philanthropia) بين بطلميوس الثامن وكليوباترة الثانية وجاءت بنود هذه التسوية واردة فى وثيقة بردية مشهورة ومنشورة فى مجموعة بردى " تبتونس رقم (٥) وكثيرا ما يعرض لها المؤرخون للتعرف على مدى ما اتيح لكل من الطرفين من حقوق وما اعترف به من اجراءات كان كل طرف قد اتخذها لصالح اعوانه ومؤيديه .
	يموت فى هذا العام (١١٨ ق.م.) المؤرخ اليونانى العظيم بوليبيوس وقد نيف على الثانية بعد الثمانين من عمره
١١٧ أو ١١٦ ق.م	اكتشاف طريق بحرى مباشر بين مصر والهند بفضل استخدام الرياح الموسمية وصاحب هذا الكشف هو (Eudoxus) وشاركه فى هذا الكشف العالم هيبالوس (Hippalus)
١١٦ ق.م	وفاة بطلميوس الثامن فى ٢٨ يونية وبذلك تصبح زوجته الثانية وهى كليوباترة الثالثة هى الحاكمة الحقيقية لمصر ، وتختفى اية اشارة الى كليوباترة الثانية بعد ٢٧ نوفمبر من عام ١١٦ ق.م.

وصية بطلميوس الثامن لابؤبه بها وتصبح فى مهب الريح .

بطلميوس التاسع يتولى العرش بفضل المساعدة التى لقيها من امه كليوباترة الثالثة وبطلميوس الملقب أبيون (Apion) يستولى على برقة بوصفه ملكا بطالميا بعد ذلك ببضع سنوات .

١١٥ ق.م كليوباترة الثالثة تضطر بطلميوس التاسع الملقب لاثيروس (Lathyrus) كيما يطلق كليوباترة الرابعة التى استطاعت بعد ذلك ان تديرجيشا غزت به سوريا وتزوجت من كيزيكينوس (Cyzicenus)

١١٤ — ١١٣ ق.م بطلميوس العاشر الملقب بالاسكندر يعين حاكما على قبرص .

الحرب الاهلية بين انطيوخوس الثامن وانطيوخوس التاسع كادت ان تكون السبب فى تقويض اركان الحكم السلوقى فى الشام .

١١٠ — ١٠٨ ق.م بطلميوس التاسع جرت تنحيته عن العرش لفترة ثم حل محله اخوه بطلميوس العاشر لفترة اخرى خلال العامين (١٠٨ — ١٠٨) الى ان يتم التصالح بين بطلميوس التاسع وكليوباترة الثالثة .

١٠٧ ق.م. بطلميوس العاشر يشترك فى الحكم مع كليوباترة الثالثة

١٠٧ — ١٠١ ق.م تواجه مصر فترة يسودها القلق والاضطراب بسبب هذين الاخوين بطلميوس التاسع وبطلميوس العاشر وتأليب امهما كليوباترة الثالثة احدهما ضد الآخر .

١٠١ ق.م	تموت كليوباترة الثالثة وينفرد بالحكم في مصر بطلميوس العاشر .
٩٦ ق.م .	يموت بطلميوس أبيون وتؤول برقة الى روما بناء على وصيته
٨٨ ق.م	يعود بطلميوس التاسع الى مصر عقب موت بطلميوس العاشر في معركة بحرية كان قد خاضها على مقربة من ساحل ليكيا بآسيا الصغرى .
	ثورة عارمة تنشب في الاقليم الطيبي .
٨٠ ق.م	يموت بطلميوس التاسع ثم تخلفه ابنته برنيقة لفترة قصيرة بين مارس ويونية من هذا العام .
	بطلميوس الحادي عشر يعلن نفسه ملكا على مصر بعد ان يحصل على تأييد من الدكتاتور الروماني سلا (Sulla) ويتزوج بطلميوس الحادي عشر من برنيقة هذه في يوليو ثم يقتلها بعد انقضاء تسعة عشر يوما من مشاركتها له في الحكم . ولكن السكندريين قتلوه جزاءا له على فعلته .
٨٠ ق.م	بطلميوس الثاني عشر الملقب اوليتيس او الزمار يتبوأ عرش مصر في اواخر عام ٨٠ ق.م
٧٩ ق.م	الملك بطلميوس الثاني عشر يتزوج من كليوباترة تريفاينا (Tryphaena) ابنة بطلميوس التاسع .
٧٦ ق.م	يتوج الملك بطلميوس الثاني عشر في الاسكندرية وليس في ممفيس .
٧٥ ق.م	روما ترفض الاعتراف بالملك بطلميوس الثاني عشر لفترة ما
٧٤ ق.م	برقة تصبح ولاية رومانية بمقتضى الوصية التي تركها

٦٤ ق٠م	سوريا تصبح ولاية رومانية٠
٦٣ ق٠م	الزعيم الروماني بومبي يستولى على بيت المقدس ضمن حملته على بلاد الشرق وتسوية اموره٠
٥٩ق٠م	يوليوس قيصر وبومبي وكراسوس والثلاثة اركان الحكم الثلاثي الاول٠ يعترفون ببطلميوس الثاني عشر ملكا على مصر في نظير رشوة ضخمة قدمها الملك الى يوليوس قيصر ٠ولاذة بنية في جيوب الساسة الرومانية٠
٥٨ ق٠م	قبرص تصبح ولاية رومانية٠
٥٨ ق٠م	تقوم ثورة في الاسكندرية ضد الملك المفرط في املاك مصر لانه لم يحرك ساكنا ازاء ضياع قبرص٠ الملك يضطر الى ترك المدينة الثائرة ومغادرة البلاد الى روما٠
٥٩ — ٥٧ ق٠م	حكم مشترك بين كليوباترة تريفاينا وبرنيقة يسود في مصر٠
٥٧ — ٥٥ ق٠م	في خلال هذه السنوات انفردت برنيقة بالحكم في مصر٠
٥٦ — ٥٥ق٠م	عودة بطلميوس الثاني عشر الى عرشه بفضل الزعماء الرومان وبومبي بالذات وبمعونة الجيش الروماني المرابط في سوريا تحت قيادة " اولوس جابينيوس" (Aubus gabinius) حاكم سوريا٠ الملك بطلميوس الثاني عشر يقتل ابنته برنيقه ويقتل كذلك زوجها المسمى اركيلاوس(Archalaus)
٥١ — ق٠م	موت بطلميوس الثاني عشر
٥١ — ق٠م	تحكم كليوباترة السابعة كبرى بناته ٠ مصر ٠ وفترة توليها الحكم حافلة بالاحداث الجسام وبالامال العريضة وتخوض

بمصر محارث سياسية وعسكرية عالمية وتثبت العالم جدارة

وكفاية وأنها ند لعظماء الرجال . وهذه الفترة من

تاريخ مصر شهدت تطورات كثيرة في الداخل والخارج

وتجددت فيها أطماع الأسرة البطلمية وتداخلت

السياسة المصرية مع السياسة الرومانية ورجالاتهـا

وكادت كليوباترة تلقى التوفيق والنجاح ولكن الظروف

العالمية كانت اقوى منها فباءت في آخر المطاف

بخسران مبين .

٤٩ ــ ق.م — نشب نزاع بين كليوباترة السابعة وبين اخيها وزوجها

بطلميوس الثالث عشر وكان يصغرها بسبع سنوات وكانت

هي نفسها في سن مبكرة لن تبلغ السابعة عشرة وكان

الاثنان يحكمان بالاشتراك طول الفترة من ٥١ حتى

٤٩ ق.م .

٤٩ ــ ٤٨ ق.م — تنشب حرب في الاسكندرية سميت في التاريخ الروماني

بالحرب السكندرية = Bellum Alexandrinum

ونسبت لمؤلف او مصنف روماني يسمى " هرتيوس "

(Hirtius) وصف فيها الاحداث والاستراتيجية

في شوارع الاسكندرية ومبانيها . وقد خاض هذه الحرب الملك

في هذه الحرب ويعرض لوصف مواقع الصغير زوج كليوباترة

دفاعا عن شرفه ضد يوليوس قيصر الذي كان قد حضر الى

الاسكندرية متعقبا غريمه بومبي بعد ان هزمه في فرساليا

سنة ٤٨ ق.م . واتصل بكليوباترة وعاشرها معاشرة الازواج

٤٨ ـ ق٠م بطليموس الثالث عشر يغرق في النيل وتلحق به الهزيمة على يد يوليوس قيصر ويقضى على الثورة وتنتهي تلك الحرب التي اشعلها بطليموس الثالث عشر • يصبح الاخ التالي وهو الاصغر ملكا وشريكا مع كليوباترة وزوجا لها •

٤٧ ـ ق٠م يولد ابن لكليوباترة من يوليوس قيصر ويسمى هذا الابن قيصر الصغير او بالاحرى قيصرون (Caesarion) وسوف نرى كيف يصبح هذا الابن بطليموس الخامس عشر وكيف يكون محور تفكير كليوباترة ومحط آمالها •

تبرون تعود الى مصر بتأييد من يوليوس قيصر بالطابع•

٤٦ ـ ق٠م تذهب كليوباترة الى روما بدعوة من يوليوس قيصر وتقيم في قصر منيف على ضفاف التيبر وتبقى في روما حتى وقعت الواقعة وهي اغتيال يوليوس قيصر في يوم مشئوم هو الخامس عشر من شهر مارس (Ides) سنة ٤٤ على يد بروتس وكاسيوس ونفر من الجمهوريين المتشددين الذين ظنوا ان يوليوس قيصر له نوايا غير جمهورية وانه بدأ ينحو نحو المذاهب الهيللينستية التي اسقتها له كليوباترة ،فخشوا على الروح الجمهورية الصميمة من اطماعه وتصرفاته فاغتالوه وهو يتأهب للخروج من مجلس السناتو الى الشرق ببرنامج عسكري ضخم ضد الفرس• وكانت كليوباترة وهي تقيم في روما ،تعقد صالونا ادبيا ،يتردد عليه شخصيات لامعة من بينها الخطيب والزعيم شيشرون • وكانت كليوباترة تعيش في روما معززة مكرمة ،بفضل ماأسبغه

عليها يوليوس قيصر من عطف ومحبة ولكن الالسن كانت
تلوك اسمها وتندد بهذه العلاقة الاثمة بينها وبين
هذا الزعيم الروماني الكبير واخذت تتردد مختلف
الاقاويل عن خطط ومآرب ذات طابع ملكي او هيلليني
وتتوجس خيفة من اطماع سياسية قيل ان الملكة كانت
تبثها في نفس هذا الزعيم الروماني • وروما الجمهورية
كانت تضيق بمثل هذه الافكار الملكية وتخشى على
مصيرها مما قد تخبئه الاقدار لها • ومن هنا نشأ التآمر
ووقعت الكارثة • وكان توارى هذا الزعيم الكبير على
هذا النحو الفجائي بمثابة نكبة كبرى وكارثة حلت
بكليوباتره وما بنها من يوليوس قيصر وقلبت الاوضاع
رأسا على عقب؟

٤٤ ق٠م — عادة كليوباترة الى مصر هاربه على حد قول شيشرون
(Fuga-reginae) وتنفست روما الصعداء
لخروج الملكة المصرية من صعيد روما • امرت كليوباتره
بقتل اخيها الاصغر وزوجها بطلميوس الرابع عشر (بعد
السادس والعشرون من شهر يوليو وعندئذ اعلنت ان ابنها
قيصرون اصبح هو بطلميوس الخامس عشر والشريك لها في
الملك •

٤٢ ق٠م — تقع معركة بين الجمهوريين وبين كل من الكتافيوس
وانطونيوس اخذا بالثأر لدم يوليوس قيصر المهدر ويتم
فيها النصر على الجمهوريين في
معركة فيليباي (Philippi)

بشمال بلاد اليونان .

٤١ ق.م — يتم لقاء مهم بين انطونيوس وبين كليوباترة فى آسيا الصغرى فى بلدة طارسوس (Tarsus)
ومن ذلك الحين يرتبط مستقبل كليوباترة بهذا الزعيم الرومانى الذى مالبث ان تحول الى محب متيم بكليوباترة
والى بدورها اعتبرته اداة منفذة لبرنامج سياسى كانت عاقدة العزم عليه وتنتويه ، وفيه رفعة لشأن مصر واسترداد امبراطوريتها الضائعة .

٣٧ ـ ٣٦ ق.م — تتسلم كليوباترة بعض اجزاء من لبنان وتسك عملة باسمها

٣٦ ـ ق.م — كليوباترة ملكة الملوك

٣٤ ـ ق.م — انطونيوس يسبغ هبات ويوزع الممالك على ابناء كليوباترة وبناتها منه وبذلك يثير ثائرة الرومان عليه وعلى الملكة المصرية .

٣١ ق.م — معركة اكتيوم فى المياة الغربية من بلاد اليونان .
انتصر فيها الغرب على الشرق بفرار انطونيوس وراء كليوباترة دون ان تنشب معركة فصلية وبذلك يحسم النزاع بين الشرق والغرب ويتقرر المصير .

٣٠ ـ ق.م — استيلاء اكتافيوس على الاسكندرية [illegible] فى الثالث من اغسطس .
وفى يوم ١٢ أغسطس من نفس هذا العام انتحرت كليوباترة بعد ان استولى عليها اليأس وبعد ان فقدت انطونيوس الذى كان قد انتحر قبلها ببضعة ايام .
وبذا اسدل الستار على صفحة كفاح مرير خاضته كليوباترة من اجل رفعة شأن مصر ولكنها لم توفق فضم اكتافيوس مصر الى حظيرة الحكم الرومانى وجعلها ولاية تابعة لسلطان الشعب الرومانى .

